بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م

إسطنبول: ١٤٣٦/ ٢٠١٥

اسم الكتاب باللغة التركية: Nebiler Silsilesi Ders Kitabi-1

الترجمة للعربية: سلسلة الأنبياء - كتاب مدرسي -١

تأليف: عثمان نوري طوبّاش

إعداد:

د. فاروق كانجر

أ. لقمان حلوجي

مراجعةو تصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٣٨٥١

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language: Arabic

العنوان:

- Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
  Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
  Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

كتاب مدرسي

سلسلة الأنبياء

– ١ –

تأليف

عثمان نوري طوپباش

إعداد

د. فاروق كانجر

أ. لقمان حلوجي

ترجمة

د. وليد القط

مراجعة وتصحيح وتدقيق

الدكتور. آدم آقيـــن

مُقدِّمة

يقدم اللّه ﷻ العون لعباده حتى يصلوا إلى الهداية، بإلقاء تلك المسؤلية على أُناس من بينهم ممن لهم صفات الصلاح بالإضافة لما اختصهم به الله ﷻ من أخلاق رفيعة، حتى يقوموا بدور المُرشد و المُوَجِّه للناس. و أكرمهم سبحانه و تعالى بالوحي و جعلهم أنبياء. و أمر اللّه ﷻ هؤلاء الرسل المباركين الذين يمثلون قدوة للأمم، بثلاثة أمور:

أ- أن يتلوا آيات اللّه و يبلغونها.

ب- أن يُطهروا أنفسهم و يزكونها.

ج- أن يُعلموا الناس الكتاب و الحكمة.

و بدأ اللّه سبحانه وتعالى بآدم عليه السلام حتى تكون الكيفية التي يتم بها إرسال الرسل الذين يمثلون مساعدة ربانية استثنائية للناس، حتى تكون شاملة للإنسانية كلها. فكان آدم هو أول إنسان و أول نبي في الوقت نفسه.

و إن ظل هذا الطريق المبارك للهداية الذي أيده و قوّاه اللّه ﷻ بسلسلة من الأنبياء بلغت مائة و عشرين ألفاً و نيِّف، فإنه لم يجد الكمال إلا بمجيء سيدنا النبي ﷺ مُتّبعاً لمسيرة تكامل وتعادل الإرتقاء الذي حققته البشرية. لقد أكرم اللّه ﷻ الإنسانية كلها بمجيء النبي ﷺ، فهو مرشد الهداية لها حتى قيام الساعة، و هو الذي أبهر المؤمنين و أعجز الكافرين بما فيه من معجزات.

لقد جاء القرآن الكريم لهداية الناس كي يمنحهم السعادة في الدارين؛ الدنيا و الآخرة. و حتى يتحقق هذا المقصد، فإنه يتعرض للكثير من الموضوعات. و نجد قصص الأمم السابقة من أكثر الخصوصيات القرآنية أهمية والتي تخدم هذه الغاية.

و هناك حكمة من وجود القصص في القرآن الكريم مثل تحذير الناس من الوقوع في الضلال و حثهم على العبودية للّه ﷻ بواسطة الأحداث التي لا تخلو من العبر و العظات التي عايشها الأقوام السابقين. فيتجسد في القرآن الكريم السلوك الضال و ما يقابله من تجلٍّ للعدالة الإلهية، كما يتجسد السلوك القويم و ما يقابله من مكافآت باعثة على السعادة. و هو الأمر الذي يخدم غاية أخرى مثل الترغيب في الأعمال التي تصل بالإنسان إلى السعادة، إلى جانب أخذ العظة و الدرس للحذر من الأخطاء المماثلة.

لقد أولى القرآن الكريم أهميةً كبيرةً للإرشاد بواسطة قصص الأمم السابقة. و يتضح ذلك من إفراده مساحةً واسعةً للغاية من القرآن الكريم بلغت الثُلث لمثل هذه القصص.

يقول مولانا جلال الدين الرومي – قُدس سره – في معرض حديثه عن أهمية هذه القصص:

«القرآن الكريم هو حال و وَصْف للأنبياء. فإذا أنت قرأت القرآن الكريم بخشوع و طبقت ما جاء فيه، فكأنك التقيت بنفسك مع الأنبياء و الأولياء. فكلما قرأت قصص الأنبياء كلما بدأ قفص الجسم يصير ضيقاً على طائر الروح!»

«ونحن لن نتحرر من قفص هذا الجسد إلا بهذه الوسيلة. فلا يوجد مفر للخلاص من هذا القفص سوي بهذا الطريق أي طريق التوحيد!...»

« ألم تر ما فعلته الريح بقوم عاد؟ ألم تسمع عمّا فعله الماء في الطوفان؟»

«ألم تر كيف أهلك بحر الحقد ذلك (البحر الأحمر) فرعون، و كيف خُسفت الأرض بقارون...»

«ألم تر ما فعلته الطيور الأبابيل بجيش الفيل، ألم تسمع كيف أكلت ذبابة صغيرة للغاية مخ نمرود الذي ادعى الإلوهية...»

«هل تعرف كيف أمطرت السماء حجارةً فوق قوم لوط الفاسقين و كيف دُفنوا في الظلام تحت ماء بحيرة ملوث؟»

«و ماذا لو تحدثتُ بإسهاب عن العون الذي قدمته الجمادات التي نظن انه لا روح فيها للأنبياء...»

«كم كان المثنوي عظيماً كبير الحجم لدرجة تعجز معها أربعون ناقة عن حمله...»

وقد تناول القرآن الكريم في هذه القصص تبليغ الأنبياء للرسالة و موقف أمة كل نبي منهم، و ذلك لتقوية عقيدة التوحيد في القلوب.

و يمكن تلخيص الهدف من القصص في شكل يتناسب مع الغاية من نزول القرآن، على النحو التالي:

يمكن القول أن الهدف من وجود القصص في القرآن الكريم هو إثبات نبوة سيدنا النبي ﷺ و بيان أن كل الأنبياء قاموا بنشر عقيدة التوحيد، و حتى يأخذ المُخاطبون بحديث القرآن الكريم العبرة و العظة و حتى يثير انتباه القلوب فتُغبِط الصالحين و تنحو نحوهم و يحذر الناس من الفاسقين. و هو بذلك يُعلِّم الناسَ أن يصبروا متخذين المثل في ذلك من الأنبياء الذين عانوا المحن و الإبتلاءات.

و يضم هذا الكتاب الذي بذلت أنا العبد الضعيف الجهد في تأليفه بتوفيق و لطف من الله، يضم الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم من أول صفحة فيه حتى آخر صفحة و ما في حياتهم من حكم و عِبر. فيحتوي هذا المؤلف:

سيدنا آدم عليه السلام الذي أُمرت الملائكة بالسجود إليه.

إدريس عليه السلام الذي حمل سر الإعجاب السماوي.

نوح عليه السلام الذي تطهرت الأرض من الكفر في عصره بالطوفان.

هود عليه السلام نبي قوم عاد الذين سوّت الريح العاتية بدارهم الأرض.

صالح عليه السلام نبي قوم ثمود الذين اهتزت ديارهم الفارهة بالزلازل.

إبراهيم عليه السلام الذي حوّل بخضوعه لأمر اللّٰه نيران نمرود الظالم إلى بستان من الورود.

إسماعيل عليه السلام الذي صار بإخلاصه و صدقه و توكله و تسليمه لأمر اللّٰه مثلاً أعلى. و سيظل يُذكر بين المؤمنين حتى يوم القيامة.

إسحاق عليه السلام الذي جاء من نسله بني إسرائيل.

لوط عليه السلام النبي الذي ظل يدعو قومه الطغاة الفاسقين للهدايه حتى اللحظة الأخيرة.

ذو القرنين عليه السلام الذي حمل راية التوحيد من الشرق إلى الغرب.

يعقوب عليه السلام الذي انكوى بنار الشوق و المحبة و صار مثلاً أعلى في الصبر.

يوسف عليه السلام الذي صار بنوره الذي يوازي نور البدر سلطاناً لمصر و للقلوب بعد ما مر به من الأسى و محنتي العبودية و السجن و اغترابه عن بلده و إحساسه بالوحدة و الألم و مجاهدته للنفس.

شُعيب عليه السلام الذي لُقِّب بـ«**خطيب الأنبياء**» بخطابته التي أسرت القلوب.

موسى عليه السلام الذي أغرق بعصاه المُعجزة فرعون الأحمق في دوامات البحر الأحمر

هارون عليه السلام الأخ الصالح الذي صار عوناً لسيدنا موسى عليه السلام.

داود عليه السلام الذي جيّش بأذكاره الجبال و الحجارة و حتى الحيوانات المتوحشة.

سليمان عليه السلام الذي لم تستأثر ثروته و جاهه و سلطانه العظيم في الدنيا على قلبه.

عُزير عليه السلام الذي أحياه اللّٰه بعد مائة عام ليكون مثالاً لإحياء الموتى يوم القيامة.

أيوب عليه السلام الذي صبر على البلاء بتَفكُّره العميق.

يونس عليه السلام الذي جاشت نفسه فتخطى الظلمات و تعمق في حقيقة الذكر و الدعاء.

إلياس عليه السلام الذي خلّف من بعد ذلك شهرة بقول اللّٰه عز وجل عنه « سلام على إلياس»

إليسع عليه السلام الذي رُفع على العالمين.

ذو الكِفل عليه السلام النبي الصالح الذي استحق رحمة اللّٰه.

لُقمان الحكيم عليه السلام شيخ الحكماء ظاهرهم و باطنهم.

زكريا عليه السلام النبي الذي ظُلم و ظل متوكلاً خاضعاً لأمر اللّٰه و لم يَتَأَوَّهْ و القوم يشُقونه بالمنشار.

يحيى عليه السلام الذي لقي الشهادة مثل أبيه.

عيسى عليه السلام الذي زكى نفسه و كان يشفي المرضى و يحيي الموتى بتضرعه و لجوئه إلى اللّٰه عز وجل.

و الخلاصة هي أننا قد بذلنا الجهد كي ننقل شرارة الحكمة من الأحداث التي مر بها كل الأنبياء و أممهم، حتى يمكن أن تكون مداراً يدرك منه الناس في زماننا احتياجاتهم الروحية و ما يمر بهم من محن فتضيء لهم مثل هذه الأحداث أي لَبْس قد يحدث. و في الوقت نفسه حاول العبد الفقير بإمكانياته المحدودة و بما أسعفته قدرته أن يبين أن الأنبياء قد كُلفوا بتجهيز و إعداد الأرضية البشرية على شكل قافلة من المبشرين (حاملي البشرى) في تسلسل يعقب أحدهما الآخر، من أجل نقطة كمال النبوة التي سيرسلها الله هداية للعالمين، من أجل نور الوجود و سر الخلق من أجل محمد ﷺ.

وقد كان في تدريس كتابنا ((سلسلة الأنبياء)) في مؤسسات التربية و التعليم الإسلامي المختلفة الدافع الذي جعلني أُعيد تناول هذا الكتاب من جديد ليتناسب مع كونه كتاباً مدرسياً؛ فقد تم اختصار الكتاب بهدف تسهيل الطريق أمام الطلبة للإفادة منه و زيادة معارفهم، و قمت بوضع بعض الإضافات في الأماكن التي رأيت أنها بحاجة إلى توضيح، و قمت كذلك بإثراء الكتاب ببعض الصور و الخرائط، و وضعت كمصدر أصلي بعض الآيات القرآنية التي يسهل حفظها أولا يمكن إغفال وضعها في بعض الأماكن.

وقد عمدنا إلى التبسيط في تناول الكتاب؛ و رأينا أنه لزاماً علينا و نحن ننقل من الثقافة الإسلامية الثرية إلى الأجيال القادمة أن نعتني و نحافظ على الاصطلاحات و الكلمات التي نقتبسها من الثقافة الإسلامية، و قد فحصت الآيات و الأحاديث الشريفة و نظمتها في شكل يتناسب مع الموضوع وتسلسل القصص.

وقد جهزت في نهاية الجزء الخاص بكل نبي مجموعة من الأسئلة للتقييم تتنوع بين ((الأسئلة التقليدية)) و ((ملء الفراغات)) و ((الاختيار من متعدد))، و وضعت في نهاية الكتاب مفتاح الحل لأسئلة ((ملء الفراغات)) و ((الاختيارمن متعدد))، و قد راعينا عند وضع الأسئلة أن تعمل على زيادة معارف الطلاب و تنشيط فكرهم وحثّهم و سلوكهم، و حضهم على التفكير في الحكمة من الحوادث، و أن تكون عوناً لهم على الربط بين تلك الأحداث و ما يحدث في يومنا الحاضر، و أن تحثهم على أخذ العظة و العبرة منها.

و قد جهزنا إضافة إلى ذلك ((كتيب الأسئلة)) فيه عدد كبير من الأسئلة و إجاباتها التي يمكن للملم و الطلاب الإفادة منها.

و إني لأتوجه بالشكر الخاص لأصدقائي الأكاديميين و أعضاء اللجنة الذين بذلوا الجهد في إعادة تجهيز الكتاب على هذا الشكل، و أرجوا من الله تعالى أن يتقبل هذا العمل صدقةً جاريةً منا.

أعوذ برحمة الله و مغفرته التي لا حدود لها و أتضرع إليه أن يسامحني لخطأ أو سهو وقع مني تقصيراً أو سهواً.

و ما التوفيق إلاّ من عند الله ﷻ ...

عثمان نوري طوبّاش

أسكدار – اسطنبول (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)

المَدْخَلُ

الحمد لله العلي الذي رزق عباده الضعفاء نشوة الإيمان و طمأنينته، و الصلاة و السلام على سيد الخلق الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور.

يُحدّثنا المولى تعالى في القرآن الكريم عن حقائق التبليغ و الحكمة الإلهية بذكر الأخبار عن الأمم السابقة، و ينتهج القرآن الكريم في هذا أسلوب القصص، الذي يسهل على البشر إدراكه و فهمه، يقول الله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف، ٣)

الخصوصيات التي تُميز القصص في القرآن الكريم:

- أنه يلفت الانتباه إلى جوهر الأحداث؛ فلا يولى اهتماماً كبيراً بعنصري الزمان و المكان و أسمائه؛ لأن الدخول في تفاصيل لا تخدم الغاية الأساسية من القصص من شأنه أن يزج بالمسألة في تفرعات لا فائدة لها و يجعل من العسير إدراك الهدف منها؛ فإذا نقل القرآن الكريم لأي سبب من الأسباب قصة ما، فإنه يتناول الجزء الذي يحتوي على المقصد فقط، و لأن القرآن الكريم يولى الاهتمام بالغاية الدينية من القصة، لذا نجده لا يلقي بالاً للتسلسل التاريخي، فيبدأ القصة من أولها أو منتصفها أو حتى من آخرها، و لا يترك القرآن الكريم الشخص المُخاطب يذهب بوقائع القصة بعيداً و يتعمق فيها؛ بل يوزع الإرشاد الديني و الحكمة و العظة في فواصل مختلفة.

و يستهل القرآن الكريم القصص بصفة عامة بمقدمة تجذب المُخاطب، أي أنه لا يقدم الحوادث بشكل جاف يدعو إلى النفور منها، بل على العكس يعمد إلى تقديم الأحداث في شكل مجسد يمتلئ بالحركة و الحيوية، و تحتوي معظم التعبيرات القرآنية على صور تمثيلية، و يعرض المشاهد المهمة بوضوح تام؛ و يترك كثيرًا من التفرعات الأخرى التي تحتويها القصة لفكر المُخاطب وخياله؛ فعلى سبيل المثال يعرض القرآن الكريم للرؤية التي قصها سيدنا يوسف على أبيه يعقوب عليه السلام في سورة يوسف، يعرضها باستهلال جذاب مستخدماً في ذلك أساليب تصويرية حيويةً:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة يوسف، ٤ – ٥)

و التكرار هو أحد أهم سمات القصص القرآني؛ فتغلب صفة التكرار في القصص القرآني أكثر من المواضيع الأخرى التي يتعرض لها القرآن الكريم، و التكرار المقصود هنا ليس تكراراً تاماً بمعنى أنه يأتي بأسلوب يحتوي على تفاصيل مختلفة عن المرات السابقة؛ لذلك فكل تكرار يعد وسيلة لاستنباط عبر و عظات جديدة، و يفتح آلاف النوافذ العلوية من القلب نحو العوالم الغيبية؛ فلقد تكررت مسألة عدم سجود إبليس لآدم عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن الكريم و في كل مرة يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى أسباب مختلفة لهذه الواقعة؛ فعلى سبيل المثال يذكر القرآن الكريم في الآية ٧٤ في سورة ص أن الغرور و الكبر هما اللذان ساقا الشيطان إلى الكفر، و هو في ذلك يشير إلى أن مرض التكبر مرض خطير قد يؤدي بالإنسان إلى الكفر إذا لم يجد له علاجاً، أما في الآيتين (١١ ، ١٢ من سورة الأعراف)، فيحكي القرآن كيف أن الشيطان كان من الملائكة و أن الله أنعم عليه من نعمائه، و أنه بدلاً من أن يشكر نعمة الله جحد و خرج على أمر الله و تكبر، و يلفت الانتباه في الآية ٣١ من سورة الحجر، إلى أن الكبر و الغرور هما اللذان سيطرا على الشيطان فأعميا بصيرته و كانت نتيجة ذلك أنه لم ير الجانب الروحي في نفخ الله تعالى من روحه هو في آدم عليه السلام، و إن كان الله تعالى قد خلقه من صلصال.

إن المقصد الأساسي من التكرار تقديم المراد، لكن بأساليب مختلفة؛ لهذا السبب لم تتكرر الأحداث العادية؛ فعلى سبيل المثال لا نجد تكراراً لحوادث: ميلاد و شباب و زواج موسى عليه السلام، وعلى النقيض من ذلك تكررت حادثة المباراة التي أقيمت بين موسى عليه السلام و السحرة من بني إسرائيل لأن بها خصوصيات مهمة لهدف الرسالة.

و من ناحية أخرى، فإننا لو قمنا بتجميع كل المعلومات الخاصة بشخص واحد، التي وردت في أماكن مختلفة، فإننا سنشاهد بناءً كلياً متكاملاً بخصوص تلك الشخصية.

وتكرار المعنى هو الذي يهم أكثر في القصص القرآني؛ فالهدف الأساسي من ذلك هو نقش الغايات الإلهية العلوية على الأرواح و القلوب؛ فالإنسان يفهم و يدرك المسألة بشكل أفضل إذا تكررت بأسلوب تعبيري مختلف، و هذا يشير أيضاً إلى اتباع كتاب الله لأسلوب تعليمي إلهي يتناسب مع الطبيعة النفسية للبشر.

وأحياناً ما يكون التكرار للتفصيل، أو للإجمال في أحيان أخرى، و قد عمد القرآن الكريم إلى اتباع هذا الأسلوب حتى يمكنه خطاب المستويات الذهنية المختلفة؛ لأن القرآن الكريم يخاطب الإنسانية جميعها بعوامها و خواصها، و بذلك تستطيع الجماعة البشرية من أي مستوى و طبقة و مرتبة و أي قدرة عقلية أن تفيد مما جاء فيه.

و قد عمد القرآن الكريم إلى تكرار الكلمات و الجمل حتى يضمن تحقيق أي من صفات البلاغة مثل إثارة الدهشة و الحيرة و لإفادة التحذير، مثال ذلك ما جاء في سورة «القارعة» فنجده يكرر كلمة القارعة ثلاث مرات، و هو في ذلك يستثير خيال المُخاطب ليجعله يشعر بفزع القيامة.

و الحال نفسه في سورة الرحمن فنجده بعد أن يُعدد النعم التي خلقها الله تعالى للإنس و الجن، نجده يقول﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ و يظل يكرر العبارة نفسها إحدى و ثلاثين مرة، و هو بذلك يريد أن يزيح

ستار الغفلة عن العباد و يحثهم على الاعتراف بالنعم الإلهية و يذكرهم بوجوب شكر الله تعالى على نعمائه. و القرآن الكريم إلى جانب الخصوصيات الأخرى التي يحتويها، هو كتاب دعاء و ذكر، و تظهر الغاية من الدعاء و الذكر بالتكرار.

يقدم القرآن الكريم الأنبياء في القصص القرآني بوصفهم أفضل شخصيات البشرية، و أن الله تعالى هو الذي اصطفاهم و ليس بسعي و كسب منهم، يقول الله تعالى:

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الأنعام، ٨٧)

و اختيار الأنبياء لهذه المهمة الإلهية جعلهم يحملون مسئوليات عظيمة، يقول الله تعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٦)

و يؤكد الله تعالى في الآية السابقة أن الأنبياء هم أيضاً عاجزون و أنهم لا يقدرون على ادعاء الإلوهية لأنفسهم، و أنهم على الرغم من عناية الله تعالى لهم، فإنه سيحاسبهم بالنظر إلى درجة اعتنائهم بإبلاغ الرسالة.

و يجب أن نؤكد هنا على أن مسؤولية جميع الأنبياء محدودة بفترة زمنية معينة ما عدا سيدنا محمد ﷺ و لهذا السبب لم تنتقل عنهم منظومة من السلوكيات الغنية التي يمكن أن تحتذي بها الأجيال التالية لهم، أما النبي ﷺ فخطابه كان موجهاً لكل الأجيال في كل مكان و زمان بدءًا من بعثته و حتى يوم القيامة، من أجل هذا دُوِّنت كل كلمة قالها و كل فعل قام به بحساسية شديدة، ووصلت إلينا حتى أدق تصرفاته عن طريق تواتر الروايات الصحيحة؛ لأنه أُريد له أن يكون أسوة حسنة لأُمة آخر الزمان، أي قدوة بغير نقصان يقتدون به.

لقد كانت أخلاق النبي ﷺ هي نفسها أخلاق القرآن، و لأن القرآن الكريم كان و لا يزال منذ نزوله و حتى الآن دليل الهداية و الرشاد للإنسانية جمعاء في الدنيا و الآخرة؛ لذا عمد إلى التأثير على القلب رغبة منه في تصحيح المفاهيم الحياتية الخاطئة و الضالة في المجتمعات التي غرقت في ظلم الكفر و الجحود، و بذلك يكون قد حقق انقلابا عظيماً للبشرية كلها، و سوف يستمر القرآن الكريم في أداء مهمته طالما وُجدت البشرية.

لقد تحدى القرآن الكريم الإنس و الجن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم دون أن يقيدهم في ذلك بزمن محدد، و ظل هذا التحدي قائماً حتى يومنا هذا دون أن يجد من يطل برأسه أمامه، و تؤكد الآية الكريمة على هذه الحقيقة على النحو التالي: **﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾** (سورة الإسراء، ٨٨)

و على الرغم من أن الله تعالى قد ضيّق من نطاق التحدي وحدّه في « عشر سور» فحسب، فإن أحدًا لم يستطع أن يأتي بها، و ظلوا على عجزهم، يقول الله تعالى: **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** (سورة هود، ١٣)

و في النهاية ضيّق الله تعالى نطاق التحدي وحَدّه في سورة واحدة فقط حتى يعلم الناس عجزهم إزاء ذلك، و ليعلموا كذلك أنه كلام مُنزل من عند الله تعالى، يقول تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ (سورة البقرة، ٢٣ - ٢٤)

يحتاج الإنسان إلى قلب سليم حتى يتمكن من فهم القرآن الكريم و إدراكه و حتى يشعر و يحس به ويقف على أسراره؛ لأن القرآن الكريم يفيض على كل قلب من أسراره حسب حالة هذا القلب أو ذاك، يقول الله تعالى:

﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (سورة محمد، ٢٤)

و تُحرم القلوب السوداء من أن تنال أية حصة من القرآن الكريم؛ فالقرآن الكريم يفيض بأسراره على المشركين و لا يهبهم الهداية، حتى وإن ملكوا من علوم الدنيا الظاهرية؛ ذلك لأنهم حُرموا من الحياة القلبية، يقول تعالى:

﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ (سورة الأعراف، ١٤٦)

و تأتي الأحاديث الشريفة مفسرة للقرآن الكريم؛ لأن سيدنا النبي ﷺ يعد أعظم مفسر لما جاء في القرآن الكريم، و أولياء الله الصالحون هم أعظم المفسرين بعد النبي ﷺ، ذلك لأنهم أخذوا حصةً من الحياة القلبية للنبي عليه الصلاة و السلام و عملوا بعلمه.

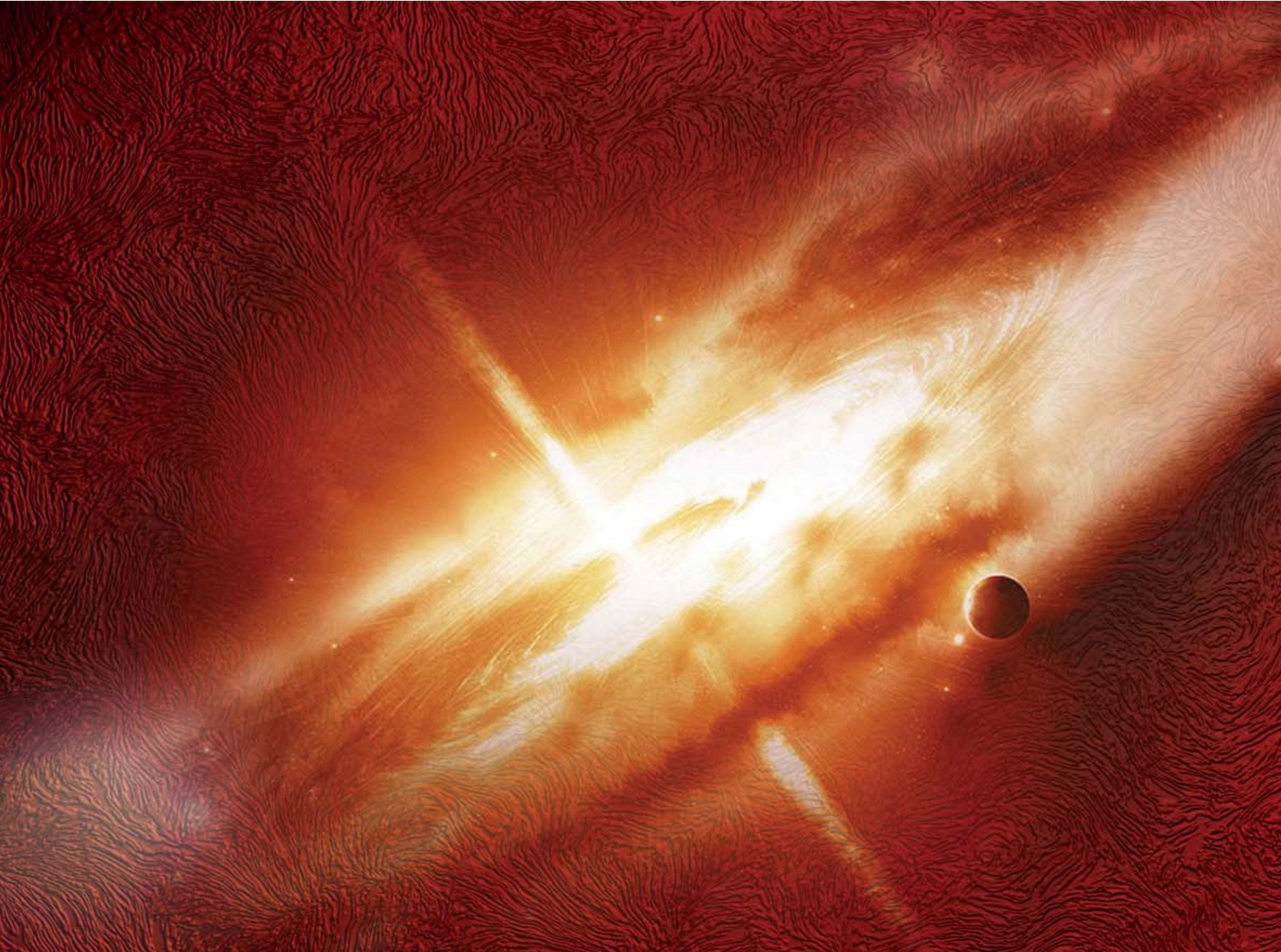
و كم هي جميلة مقولة مولانا جلال الدين الرومي في أن الإنسان إذا قرأ القرآن الكريم بقلب صاف مطمئن فإنه سيظفر بما فيه من الحكم و العبر، و يقف بذلك على أسراره:

« أصلح من نفسك أولا قبل أن تُقدم على قراءة آيات القرآن الكريم و أحاديث سيدنا النبي ﷺ! فإن لم تَشْمُم الروائح الجميلة في بساتين الورود، فابحث عن العيب في أنفك أو في قلبك و ليس في البستان!...»

كم هو كتاب عظيم هذا القرآن الكريم الذي نستقي منه لزمننا الحاضر العبر و الإرشاد و التحذير من خلال تناولنا لعدد من القصص التي وردت ضمن محتواه العميق.

اللهم اجعل لنا نصيباً من الخصال الحميدة كالصبر و الشكر على النعم و التوكل و التسليم بقدرك و الرحمة و الشفقة و التواضع و إنكار الذات، وهي صفات زخرت بها حياة أنبيائك الواردة في القرآن الكريم، ربنا و لا تحرمنا نصيباً من أن نعيش عباداً لك حقاً!...

آمـــــين...



حضرة آدم

عليه السلام

الذي أُمِرَت الملائكة بالسجود له

حضرة سَيِّدُنا آدم

عليه السلام

الخلق:

أراد الله ﷻ أن يُعرف حينما كان موجوداً وحده منذ الأزل. خلق الكون بتجلى صفاته (أسمائه الحسنى). يوجد لله ﷻ صفات كثيرة لا حصر لها سواء تلك التى علمناها أم تلك التى لم نحط بها علماً.

وتلك هى الأشياء التى تعكس بصورة كاملة كل صفات جماله وجلاله:

أ- الكون.

ب- القرآن الكريم.



ج- الإنسان.

والكون هو التجلي «الفعلى» لتلك الصفات الإلهية، أما القرآن الكريم فهو بمثابة المظهر «القولى» لها. أما الإنسان فكأنه جوهر ذلك الكون. لأنه المخلوق الوحيد الذى نال نصيباً قَلَّ أم كَثُر من جميع صفات الله. وهذا هو السبب في ذكره بوصفه أكثر المخلوقات تكريماً وتشريفاً. وبجانب صفات الله الجلالية كالمُضل[1] والمتكبر[2] ،فتوجد لله أيضاً العديد من صفاته الجمالية كالهادي و[3] الرحمن[4] ، والرحيم[5] ، وغيرها. وكما يُرى فإن الإنسان «جامع الأضداد». أي

١- المُضل: أي الذى يسوق من يستحق إلى الضلالة
٢ - المتكبر: الذى تتجلي عظمته وجلاله في كل شئ.
٣- الهادى: الذى يُوصِّل إلى الهداية.
٤- الرحمن: الذى يرحم كل مخلوقات العالم
٥- الرَّحيم: الذى يرحم في الآخره عباده المؤمنين فحسب

أنه يجمع بين طياته كل الصفات الإيجابية والسلبية. ولهذا السبب فإن الإنسان مائل بفطرته إلى الخير والشر معاً. والإنسان كنتيجة لهذا مُكلف بتكميل جانبه الروحانى والتطهر من نزعاته وصفاته الوضيعة وذلك من خلال تزكية نفسه و تصفية قلبه، وهكذا يمكنه أن يكون انساناً متكاملاً. أما هذا فلا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق إرشاد الأنبياء والأولياء. والإنسان «واصل إلى الله»، أي أنه يمتلك القدرة التى يمكنه من خلالها أن يتجاوز حتى الملائكة متقدماً في طريقه للوصول إلى الله. ولهذا فإن مرتبة الإنسان تقع في مكان وسط بين درجات الملائكة العالية وبين مراتب الحيوانات المتدنية.

والإنسان الذى يستطيع أن يتجاوز حاجز النفس يُعد معجزة تظهر من خلالها الإبداعات الإلهية. إن خلاصة كتاب الكون وفاتحته يعد سر الخلق. ذلك لأنه كم من الحقائق والأنوار المقدسة وأسرار تجلّي الصفات الإلهية تتوارى خلف كينونة الإنسان المعنوية الكامنة وراء مظهره الخارجى الذى هو عبارة عن لحم وعظم.

وكما أن أي حبة قمح تحمل في داخلها كل خصائص جنس القمح، وكما أن جميع خصائص وسمات ذلك الجنس تكون متوفرة داخل كل أنواع البذور، فإن الإنسان أيضاً يعد كائناً منفرداً حيث يحتوى على حقائق كل شئ موجود في الكون. والإنسان كالبذرة يطوى الكون في داخله. مثلما عبَّر عن هذه الحقيقة الشيخ غالب بأبياته البسيطة حين قال:

«انظر لنفسك بعين القلب! فأنت جوهر المخلوقات، أنت آدم الذى هو حبة عين الكون»

ومعنى ذلك: أيها الإنسان انظر لنفسك ولكن بقلبك ستجد أنك أساس كل الموجودات.وأنت ابن آدم الذى يعتبر أساس الكون.

لقد خلق الله ﷻ عوالم كثيرة. توجد روايات مختلفة تقول بأن هذه العوالم يتراوح عددها مابين «ثمانية عشر ألفاً» و «ثلاثمائة وستين ألفاً». وهذه العوالم تم تناولها بصفة عامة في صنفين، وهما: «عالم الخلق» و «عالم الأمر».أما خلق الإنسان الذى يشكل أحد هذين العالمين، فهو ينتمى إلى عالم الخلق وعالم الأمر على حد سواء. مثلما ذُكر الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف، ٥٤)

يُقال عالم الخلق على ذلك العالم الذى له أبعاد مختلفة يمكن أن تُرى بالعين وتمسك باليد مثلما تفضل المولى ﷻ بالتعبير عنه في القرآن الكريم من خلال الفعل «خلق». إنه العالم الذى يتألف من الموجودات المخلوقة بوصفها مقيدة بالزمان والمكان. ويُطلق على هذا أيضاً عالم المُلك والشهادة. والأشياء التى نشعر

بها من خلال حواسنا الخمسة إنما هى من هذا العالم. هذا العالم المرئى كالماء، الهواء، والنار وغيرها يعد من عالم الخلق.

أما العالم الذى ينشأ من خلال أمر الله ﷻ: (كُنْ) ، دون النظر إلى المادة والزمن فيُقال له عالم الأمر. ويُقال عالم الروح أيضاً على ذلك العالم المعنوى الميتافيزيقى الذى يُعبَّر عنه في القرآن الكريم من خلال الآية:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء، ٨٥)

الحكمة والسبب الرئيسي من خلقنا:

١- إن المقصد الأساسى من خلق الإنسان مثلما تخبرنا الآية الكريمة إنما يتمثل في العبودية لله ﷻ ومعرفته. يقول تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، ٥٦)

وعلى هذا فإن «العبودية» التى ذُكرت في الآية الكريمة بوصفها الغاية من الخلق، إنما هى مرتبة جديرة بالتكريم والتشريف، ويتضح هذا جلياً من خلال كلمة الشهادة. مثلما هو الحال عندما جاءت كلمة «عبد» قبل وصف نبينا ﷺ بكلمة «رسول». وهذا إن دل فإنما يدل على أن العبودية تأتى في المقام الأول، أما الرسالة فيتضح أنها تقع ضمن حدود العبودية.

كما أن رسول الله ﷺ قد حذر أولئك الناس اللذين أفرطوا في تعظيمه بقوله:

"لا ترفعوني فوق حقي، فإن اللّٰه ﷻ اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً" (الهيثمى، مجموع الزوائد، جـ٩، ٢١)

وفي آية كريمة أخرى يخاطب الله ﷻ رسوله الكريم موضحاً له قيمة عبوديته والتوسل له فيقول:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ (الفرقان، ٧٧)

والعبودية تعنى كذلك (معرفة الله) أي التعرف إلى الله والدراية به. كما أن خلق الإنسان مرتبط تماماً بالهدف الرئيس المتمثل في تحقيق العبودية ومعرفة الله ﷻ. لأن كلمة ليعبدون (أي من أجل عبادتى) التى وردت في الآية الكريمة المذكوة آنفاً، إنما هى متعلقة بسبب خلقنا. ولقد فسر بعض المفسرين كلمة (لِيعبدون) بقولهم: (لِيعرفون) أي من أجل معرفة الله. (انظر: ابن كثير، التفسير، جـ٩، ٢٥٥)

٢- إن من أهم أسباب خلق الإنسان وأعظمها قيمة هى محبة الله ﷻ أن يُعرف (يعنى إرادته أن يُعرِّف نفسه)، مثلما ورد في الحديث القدسى:

"كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرَف، فخلقتُ الخلقَ لأُعرَف"[٦]

---

٦ انظر: ابو السعود، ارشاد العقل السليم، جـ ٢، ص ١٣٠ (آل عمران،١٩١)؛ الآلوسي، روح المعاني (الفاتحة، ٣)؛ العجلوني، كشف الخفاء، جـ ٢، ١٣٢.

كما يُفهم من هذا أيضاً أنه توجد علاقة محبة على نحو خاص فيما بين الله ﷻ وعباده. فالله يحب عباده كثيراً، ويتفضل عليهم بنعم لا تعد ولا تُحصى. وفي المقابل من هذا أراد منهم أن يحبوا ذاته الإلهية بأقصى قدر ممكن، كما أراد منهم ألا ينصرفوا عن المحبة التي يشعرون بها تجاه الكائنات الأخرى أيضاً.

٣- وأحد أهم المقاصد الإلهية أيضاً من خلق الإنسان تتمثل في إرادة الله ﷻ إظهار أقصى درجات الإبداع الإلهي التي تعد دليلاً على جماله وإبداع صنعه، مثلما ورد في الآيتين ٢٠،٢١ من سورة «الذاريات» في قوله تعالى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

حيث يبين الله ﷻ أنه توجد العديد من الأدلة التي تؤكد عظمة الله وقدرته سواء في خلق الله أم في أنفسهم وذلك من أجل المؤمنين إيماناً يقينيا.

هذا بالإضافة إلى أن الله ﷻ بعد أن أخبرنا في آية كريمة أخرى بمراحل خلق الإنسان عبَّر عن عظمته بقوله تعالى:

﴿فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون، ١٤)

٤- وهناك سبب آخر من أسباب خلق الإنسان الذي خُلق باعتباره أكرم المخلوقات يتمثل في أن الله ﷻ أراد أن يجعله خليفة في الأرض. حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة، ٣٠)

ويقول الله ﷻ بشأن هذه الخلافة: «سأمنحه بعض الصلاحيات المستمدة من إرادتي وقدرتي وصفاتي. سيمتلك بعض القدرات التي تعينه على السيطرة على مخلوقاتي نيابة عني. وليس ذلك نسباً أو أصلاً، وإنما بالوكالة عني. سيكون مأموراً بتطبيق إرادتي وأوامري وقوانيني بإرادته. وسيقوم كل من يأتي بعده بتنفيذ هذه المهمة كخليفة له.

وهكذا سيتضح سر الآية

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ...﴾ (الأنعام، ١٦٥) (المالي محمد حمدي يازير، حق ديني قرآن ديلي، أستانبول، ١٩٣٥، ١، ٢٩٩-٣٠٠)

وهناك أيضاً حكمة عظيمة أخرى من خلق الله ﷻ للإنسان وهي اظهار تجلي أسمائه الحسنى في أعلى مراتبها. ويشير الحديث الشريف أيضاً إلى هذا المعنى بقوله ﷺ:

"تَخَلَّقوا بِخُلُق اللَّه" (المناوي، التعاريف، ص ٥٦٤)

ذلك أنه يُلاحظ الأسماء والصفات الإلهية عند الإنسان بدرجة أعلى من سائر المخلوقات الأخرى. فالملائكة لا ترتكب المعاصى ولا يوجد عندها حاجة النفس، لذا ليس هناك تجلٍّ لأسماءٍ كالمُضِّل والمتكبّر. ولهذا تفضل الله على الإنسان بأن منحه الإستعداد لأن يكون واصلاً إلى الله و خليفة الله، متجاوزاً بذلك حاجز النفس. وبهذا الإستعداد نال الإنسان نصيباً من صفات الله ﷻ بما سيؤهله لأن يكون واصلاً إلى الله ﷻ.

خلق سيدنا آدم عليه السلام

أراد الله تعالى الذى هو مالك الكون وخالقه أن يخلق الإنسان بوصفه أكرم المخلوقات وذلك من أجل عبادته ومعرفة وجوده و طاعته، وكذلك لإعمار الأرض باعتباره خليفة الله في الأرض. ولقد بين الله تعالى تلك المشيئة الإلهية للملائكة التى خُلقت قبل ذلك والتى كلفها الله بالعبادة فقط بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٣٠)

عندئذٍ قالت الملائكة جميعاً منزهين الله تعالى عن كل صفات النقص ومسبحين بحمده رداً على ماتفضل الله تعالى بقوله:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة، ٣٢)

ويأتى سؤال الملائكة لله ﷻ ليعبر عن رغبتهم في معرفة الحكمة الكامنة وراء خلق الله خليفة له، ليس ذلك على سبيل الإعتراض والعصيان وإنما من أجل معرفة الحكمة من خلق الإنسان.

خَلْق الإنسان:

تفضل الله ﷻ في القرآن الكريم بتوضيح مراحل خلق آدم عليه السلام من التراب على النحو التالى:

١ – مرحلة التراب:

﴿...خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران، ٥٩)

٢– مرحلة الطين:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة، ٧)

٣– مرحلة الطين اللازب (اللزج):

﴿...إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ﴾ (الصافات، ١١)



٤- مرحلة الحمأ المسنون (الطين المُجفف في الهواء):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر، ٢٦)

٥- مرحلة الطين المُسَوَّى في النار:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن، ١٤)

أما قصة كل إنسان سيأتى من بعد آدم عليه السلام ومن صُلبه فتتلخص في هذه الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً[٧] فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

(المؤمنون، ١٢- ١٤)

ولم يتمكن علم الطب الحديث من التوصل إلى تلك المعلومات إلا في السنوات الأخيرة فقط. أما في القرآن الكريم فقد أخبر الله عز وجل بمراحل خلق الإنسان قبل مايزيد عن ألف وأربعمائة عام على نحو يتطابق مع الحقائق العلمية.

لقد ذكر الله عز وجل في الآيات الكريمة السابق ذكرها مراحل الخلق بصورة مليئة بالعبرة. فالطين الذى يشكل أول هذه المراحل، أي مرحلة التراب بالنسبة لخلق آدم إنما يعتبر مادة عديمة القيمة ولا يوجد بها أي مظهر جمالى من الناحية الشكلية.

أما المراحل التالية لهذه المرحلة فكانت عبارة عن ماء مُلقى لا قيمة له، مادة لزجة، تجلط دموى، مادة غير جذّابة تبدو وكأنها ممضوغة بالفم ولربما حتى مثيرة للإشمئزاز...

٧ التعبير بالمضغة: أي لحمة ممضوغة، في هذه الآية الكريمة هو معجزة قرآنية اكتُشِفت في عصرنا الحديث، إن المضغة التي تشكل المرحلة الثالثة من خلق الإنسان، ويكون الإنسان في فيها كأنه لحم ممضوغ تظهر عليه آثار الأسنان.

وبعد كل هذا يتكون الإنسان بهذه المعجزة الإبداعية التى شكلت هيئته الجميلة بما فيها من تجلى القدرة الإلهية. وفي النهاية يلاحظ تكرار هذا التطور ولكن بصورة عكسية، حيث يفسد هذا الجسد بعد أن وصل إلى قوته ونشاطه ويتعفن في الأرض التى جاء منها مرة أخرى. إلا أنه يوجد داخل هذا الجسد المتعفن جزء صغير كحبة الخردل يُقال له (عَجب الذَّنب) وهذا هو الذى يبقى بعد وفاة الإنسان وفناء جسده، ومنه يُعاد خلقه مرة أخرى إذا أراد الله بعث العباد، حيث ينبت كل فرد من عجب ذنبه كما تنبت النبته من بذرتها. ويدعو الله جل وعلا الإنسان من خلال تلك الآيات الكريمة إلى التفكر في إعجاز هذا العالم الواسع:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم، ٥٤)

وقوله أيضاً:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه، ٥٥)

وتوضح هذه الآيات الكريمة أن جسد الإنسان يمر بتغيرات متتالية خلال المراحل التى يعيشها. ولأن حياة الإنسان فانية، لذلك فإن القوة التى يمتلكها في حياته وكذلك سطوته ومواهبه ليست باقية أيضاً.

والإنسان يحمل خصائص الأرض لأنه خُلق من التراب. فالأرض تجف بمرور الزمن وتتشقق بفعل الحرارة، وتتلهف إلى الماء. تصبر على جفاء فصل الشتاء عندما يطول أحد الفصول. تنتعش من جديد بسبب أمطار الربيع الوفيرة. وتبسط تجليات القدرة الإلهية بكل مظاهر جمالها وألوانها ورائحتها وانسجامها.

ويتشابه الإنسان أيضاً في مصيره مع الأرض. فهو يدور مضطرباً في دوامات شهوة الحياة مثل عواصف الرمال التى في الصحراء. يُتعس نفسه تحت تحكم النفس. لكنه يصل إلى الكمال في حال تجاوزه لحاجز النفس. وينال تجليات الفيض والرحمة مثلما تجد الأرضُ الحياةَ في أمطار الربيع. وهكذا تتكرم على ما حولها بالنعم التى تأتى إليها مثل الأراضى الخصبة من أجل مرضاة الله بجمال بركة الربيع.

وحيث إن الجسد الفانى للإنسان خُلق من الأرض، لذلك فهو يتغذى من الأرض، وفي النهاية يموت ويدفن في الأرض. أي أنه يعود إلى أصله مرة أخرى. ويحتوى جسم الإنسان على جميع العناصر الموجودة في التربة سواء بنسب قليلة أم كثيرة. فجسم الإنسان في الواقع له نفس الشكل المتنوع للأرض. ونظراً لأن آدم عليه السلام قد خُلق من التراب لذا سُمى بـ ((آدم)).

ومرة أخرى فإن الإنسان مثل الأرض تماماً: فبعضهم جامد الطبع وبعضهم لين، وبعضهم مُثمر يعطى ما يتعلمه، والبعض الآخر قاحل لن يستطيع أن يقدم شيئاً. ولقد خُلقت ذرية آدم عليه السلام من التراب على اعتبار



الأصل. وكما أن التربة في مختلف أماكن الأرض تحمل خصائص مختلفة، لذلك فإن البشر أيضاً يمتلكون خصائص متفاوته سواء من الناحية الجسمانية أم من حيث الطباع الشخصية أم من حيث الحالة المزاجية. مثلما عبَّر رسول الله ﷺ في الحديث الشريف عن تلك الحقيقة بقوله:

"إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ: جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ «زَادَ فِي حَدِيثِ يَحْيَى» **وَبَيْنَ ذَلِكَ"** (أبو داود، السنة، ١٦)

وكما هو معلوم فإن الأرض تحتوى على العديد من العناصر: كالحديد، النحاس، الألومونيوم، الفسفور، الكالسيوم ، وغيرها. ويتضح نوع وخصائص التربة وفقاً لكمية المعادن والعناصر الموجودة فيها ونسب اختلاطها بها. تكتسب الأرض بعض الخصائص كالصلابة، الرَّخْوَة، تغيُّر اللون طبقاً لخصائص هذه العناصر والمعادن.

ومن أجل هذا تبدو بعض الأراضى خصبة وبعضها جدبة ، وبعضها تكون قاحلة غير مثمرة. وتوجد صلات بين الخصائص الظاهرية للإنسان الذى يعتبر كائناً مخلوقاً من التراب وبين الأرض، مع احتوائه على هذه العناصر لكن بنسب ومقادير متفاوتة. وتتحدد ألوان بشرة الناس وخَلقتهم وفقاً للون الأرض.

نفخ الروح:

بعد أن خلق الله ﷻ جسد الإنسان من التراب، نفخ فيه من روحه منعماً عليه بأعظم مرتبة بين المخلوقات. لكن الحياة في الإنسان المخلوق كجسد بدأت بنفخ الروح. ومن هذا المنطلق فإن الروح أعطت قيمة عظيمة إلى عبد الله قبل كل شئ ومنحته الحياة. ويقول الله ﷻ بشأن نفخه من روحه في الإنسان:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر، ٢٩)

إن نفخ الله ﷻ من روحه في آدم ﷺ قد أُستخدم بالمعنى المجازى. أي أن الله جل وعلا أعطى بعضاً من سماته إلى عبده، وفقاً لما تسمح به قدرة هذا العبد واستعداده. وبفضل هذه الروح التى نفخها الله في الانسان، فهو يعرف ربَّه بقدرة وبركة هذه الوديعة التى أخذها من الله. فيكون عبداً لله.

ويطلع جهد طاقته على أسرار العظمة الإلهية. أما مركز هذه الإحاطة والمعرفة فهو القلب. والقلب هنا ليس كعضواً فيزيائي، وإنما باعتباره مكاناً للتجلى بوصفه مركزاً للأحاسيس. ووفقاً لمفهوم التصوف، فإنه يوجد مركزان أساسيان لنزعات الخير والشر التى توجد عند البشر. هذان المركزان يرتبطان بشكل مباشر أيضاً بروح الإنسان. ويطلق على هذين المركزين: النفس السلطانية ، والنفس الحيوانية.

١- النفس السلطانية:

وتلك هى الروح التى نفخها الله ﷻ من روحه في الإنسان، وهذه هى أهم ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى. وتقوم هذه الروح التى هى من عالم الأمر بالتوحد مع البدن في الميل إلى الخير. ويتجه الإنسان إلى الأعمال الصالحة والطاعة والعبودية بتأثير هذه الروح الموجودة في بدنه. وهذه الروح لا تتأثر بفَنَاء الجسد وتعفنه. لكن سيطرتها على الجسد تنتهى بالموت.

٢- النفس الحيوانية:

هى قوة تتحكم في البناء البيولوجى للإنسان، وتعمل على استمرار حياته، ويُقال لها أيضاً «الروح» أو «النفس». وهى من عالم الخلق. وهذه النفس التى توفر الحيوية والرغبات النفسية تنتشر في كل أعضاء الجسم. وتكون سيطرتها الأساسية على الدم. كما أن هذه النفس التى تُشكل نقطة البداية للأفعال والحركات، يمكنها أن تؤدى لتوافر الرغبات السلبية عند الإنسان في حالة كونه غير مهذبة.

وهكذا فإن أفعال الإنسان تظهر في صورة خصال مشتركة فيما بين هذه النفس السلطانية وتلك النفس الحيوانية. وهكذا فإن النفس السلطانية كالفارس، أما النفس الحيوانية فهى كدابته أو حصانه. ينبغى أن يسيطر الفارس على فرسه بشكل جيد. وتغلب النفس السلطانية في حالة ما إذا كان يعرف دابته ويحكم السيطرة عليها.

وتُكلِّف النفس السلطانية الإنسانَ بثلاث مهام أساسة. وهى توفر للإنسان المقدرة والقوة اللازمة من أجل تحقيق تلك المهام. وتتمثل هذه المهام في:

١- أن يعرف الإنسان نفسه وحقيقته.

٢- أن يعرف ربَّه الذى خلقه (معرفة الله).

٣- أن يعرف حاجته وفقره إلى خالقه أي أنه سيصل إلى العدم.



مثلما رُوى أن «من عرف نفسَه، فقد عرف ربَّهُ» (كشف الخفاء، العجلونى،٢، ص٣٤٤).

وستحقق النفس السلطانية التى تعد خالدة ومتأصلة في الإنسان إما طريق الجنة أو النار. حيث يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«أعط جسمك القليل من المأكل والمشرب. فالذى ينشغل بإطعام جسده يقع أسيراً لرغباته النفسية ويُحقَّر في النهاية»

«امنح الروح الغذاء المعنوى. قدم الفكر الناضج، الفهم الدقيق، والغذاء الروحى، واذهب بقوة إلى المكان الذى ستذهب إليه(عالم الآخرة)»

إن أول موجود خُلق هو النور المحمدى. وكذلك فأول روح خُلقت إنما هى روحه. ولهذا السبب يُقال لسيدنا محمد ﷺ «أبو الأرواح».

ويروي أبو هريرة أن الصحابة ﷺ سألوا رسول اللّه ﷺ قائلين: "مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ"

فأجاب عليهم رسول اللّه ﷺ قائلا:

"**وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ**" (الترمذى، المناقب، ١، ٣٦٠٩)

وعلى هذا يكون هو الأول في النبوة أيضاً. وستتضح أسرار كونه الأول في النبوة في الجزء الخاص بسجود الملائكة لأدم عليه السلام بأمر الله.

المراحل الخمسة للروح:

١ - مرحلة العدم:

﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً**﴾ (الإنسان، ١)

٢ - مرحلة وجود عالم الأرواح (مرحلة ألست):

"**خُلقت الأرواحُ قبل الأجساد بألفي عام**" (الديلمى، المسند، جـ٢، ص ١٨٧ - ١٨٨)

٣- مرحلة نفخ الأرواح في الأجساد:

﴿**...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى**﴾ (الحجر، ٢٩)

٤ - مرحلة مفارقة الأرواح للأبدان:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ...﴾ (آل عمران، ١٨٥)

٥- مرحلة عودة الأرواح للأبدان مرة أخرى:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس، ٧٩)

ويخبر الله ﷻ في الآية السابعة من سورة التكوير: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ بأنه سبحانه وتعالى سيجعل الأرواح تعود للبدن وتتحد معه من جديد. أما فيما يتعلق بماهية الروح فليس لدينا معلومات كافية، مثلما أخبر الله ﷻ في القرآن الكريم بقوله لرسوله ﷺ:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء، ٨٥)

ويقول الله ﷻ في سورة البقرة آية ٣١:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

وعندئذٍ سبّحت الملائكة بحمد الله تعالى منزهين إياه عن كل صفات النقص، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة، ٣٣)

وكان المقصود بالأسماء التى عُلِّمت لآدم خصائص وماهية أسماء جميع الأشياء التى على وجه الأرض قاطبة. نحن لا نستطيع أن نعلم بقدر ماينبغى الإعجاز الإلهى، حقائق الأشياء، سر الخلق، اللوح المحفوظ، القضاء والقدر، وجميع الأسرار الإلهية التى في السماء والأرض. تتضح حقائق الأشياء وأسرارها من خلال الحدس القلبى. ومن ثم يمكن معرفة الله ﷻ من خلال الحياة القلبية فقط.

ولا يمكن الوصول إلى الحقيقة المطلقة إلا من خلال القلب. ذلك لأن إمكانيات العقل وكذلك الحواس الخمس محدودة. فإمكانيات العقل محدودة مثل محدودية مدى رؤية العين وكذلك قدرة الأذن على استقبال الصوت القادم إليها. وتستمر الرحلة بعد ذلك مع القلب الذى يمتلك القدرة على إدراك تجلى الصفات الإلهية، حكمة الخلق وأسراره. وفي هذا المعنى يقول الله ﷻ:

«سأهب الإنسان روحاً يمكنه من خلالها إدراك أسماء الأشياء، والحِكَم الدقيقة، ومظاهر الجمال والإبداع الإلهى». وهذه الحقائق يحيط بها الأنبياء، ثم يأتى من بعدهم أولياء الله الذين يسيرون على دربهم».

سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

أمر الله الملائكة بالسجود لآدم بعد أن خلقه. إلا أن الجان (الشيطان) الذى أُشْتُهِرَ بكثرة عبادته والذى كان معروفاً باسم «عزازيل» لم يطع هذا الأمر. يقول الله ﷻ في هذا الشأن:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة، ٣٤)

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف، ١٢)

إن أمر الله ﷻ للملائكة بقوله: «اسجدوا لآدم» ليس معناه عبادة آدم، إنما كان الهدف منه تعظيم لنور سيدنا محمد ﷺ لكونه متضمناً في آدم ﵇، أي أن هذا كان تمجيداً لنور سيدنا محمد ﷺ لكونه أول الأرواح التى خلقها الله.

وفي تفسير آخر أيضاً فإن هذا الأمر معناه «نفذوا أمر الله»، ذلك لأن هذه السجدة رغم أنها كانت لآدم ﵇، إلا أنها كانت في الحقيقة طاعة وعبادة لله. ففي الأمر بهذه السجدة كان آدم مجرد قِبْلة فيها، مثلما أن الإنسان حينما يتجه نحو الكعبة ويخر ساجداً فهذا لا يعنى عبادته للكعبة. فالكعبة ما هى إلا مكان يرمز إلى الله ﷻ وعندها تنتظم عبادة الخلق، وتتجلى فيها رحمة الله.

إن عدم سجود إبليس لآدم ﵇ يتكرر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، لكن في كل واحد من هذه التكرارات يتضح سبب مختلف لعدم سجود إبليس. ففي الآيتين (١١) و(١٢) من سورة «الأعراف» مثلاً، يُذكر أن الشيطان الذى حاز الكثير من النعم، وكان موجوداً بين الملائكة قبل ذلك قد جَحَدَ هذه النعم بدلاً من أن يشكر الله عليها، واعترض على أمر الله مستكبراً ، ولم يسجد لآدم لهذا السبب.

وفي الآية رقم (١١٦) من سورة «طه» يتضح لنا أن الشيطان الذى كان عدواً لأبوينا آدم وحواء قد أصبح أيضاً عدواً للمؤمنين. كما أن آدم ﵇ أُهبط إلى الأرض التى كانت موطناً للمشقة والعناء، محروماً بذلك من الجنة ونعيمها وذلك بسبب إطاعته للشيطان. وبنفس الكيفية أيضاً تتضمن الآية تحذيراً لكل من يتبعون الشيطان في الحياة الدنيا، وما سيلاقونه من أذى وندم شديد بسبب ذلك، وفي الآية أيضاً تحذير لكل بنى آدم حتى لا يقعوا في نفس هذا الخطأ.

أما الآية رقم (٦١) في سورة «الإسراء» فتبين ازدياد كفر الشيطان وتمرده وذلك من خلال حادثة إختباره من قِبل الله ﷻ بالسجود لآدم ﵇. حيث إن عناد الشيطان وكفره وعصيانه بتحديه لله ﷻ كان سبباً في إغلاق باب التوبة أمامه، في حين أن آدم ﵇ سرعان توجه إلى باب التوبه معترفاً بالذنب الذى اقترفه وذلك بعد أن طُرِد من الجنة، فكان ذلك سبباً في الصفح عنه.

وفي الآية رقم (٥٠) في سورة «الكهف»، يضع المولى ﷻ أمام الإنسان إختيارين: أولهما طريق الملائكة التى تطيع ربها، أما الثانى فهو طريق الشيطان الذى يعد مخلوقاً من الجن وعصى الله هو وذريته التى جاءت من بعده. ويريد الله ﷻ منا أن نختار طريق الصديق (الخير) ، وذلك بعد أن فرق لنا سبحانه وتعالى بين طريق العدو وطريق الصديق.

أما الآية (٣٤) في سورة «البقرة» فتوضح كيف أن الله سبحانه وتعالى يعلم تماماً بحقيقة كل شئ، ومدى غرور إبليس الذى أوقعه في مستنقع العناد والجهل والإنكار.

وكان الغرور والكبر المختبئ في شخص الشيطان هو السبب الذى دفعه لعدم السجود لآدم ﷺ، ذلك لأنه ظل لفترة من الزمن صاحب علم واسع وكان من أشد الملائكة إجتهاداً وأكثرهم علماً، ولهذا تبوأ مكانة رفيعة. وكان قد تكبر بسبب هذا العلم الذى حازه، ولم يسجد لآدم. ويتبين من ذلك أن العلم والجاه يؤديان في بعض الأحيان إلى الخسران المبين، وذلك حينما يحرضان الإنسان على مشاعر الأنانية. كما يتضح أيضاً أن العلم وحده لن يكون كافياً من أجل طاعة الله.

والشيطان من طائفة الجن التى خُلقت من مارج من نار(نار ملتهبة بلا دخان)، ولهذا فقد أجرى قياساً بحسب تفكيره مُدعياً أن النار الملتهبة التى خُلق منها إنما هى أعظم قيمة من التراب الذى خُلق منه آدم ﷺ. لأنه كان يظن هذا شرفاً عظيماً وقيمة كبيره له. وهذا الموقف يشير إلى أن العقل وحده لن يكون كافياً من أجل الوصول إلى الحقيقة.

وبناء على هذا فكر الشيطان بحمق وجهل قائلاً لله ﷻ:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (انظر: الأعراف، ١٢، الحجر، ٣٣، ص ٧٦)

وقد نظر الشيطان إلى آدم من ناحية الطين الذى خُلق منه، أما عظمته فلم يرها. شاهد الطين المرتبط بهذه الدنيا، لكنه عَمى عن المعنويات المرتبطة بالعالم الآخر. أما الجانب الذى لم يعلمه الشيطان فهو أن الإنسان خليفة الله. لأنه كان قد قيَّم آدم بعين النفس.

وهكذا لم يستطع إدراكه أن يتجاوز مسألة المادة التى خُلق منها سيدنا آدم. استمد معياره من نفسه، ولم يستمده من «الحق». ومن أجل هذا تحيَّر وتحرك بعاطفته. لم يستطع أن يدرك عظمة أدم ﷺ لكونه يحمل روحاً من الله ولأنه خليفة الله. لم يستطع إبليس أن يدرك حكمة الله من هذا الإختبار والتكليف الذى كان ثقيلاً على نفسه والذى تمثل في «السجود لآدم». اختنق بين دوامات النفس وعصى الله بشكل قبيح. وشاهد الملائكةُ و الجنُ اللذين أطاعوا أمر الله في السجود لآدم إبليسَ الذى رفض السجود بهذه الصورة المزرية، فخرُّوا جميعاً ساجدين مرة أخرى شكراً لنعمة «إطاعتهم لأمر الله».

انقاد إبليس لنفسه المتفلتة المتملصة من السجود لآدم ﷺ بسبب خوفه من فقدان كبريائِه. لكنه بهذا التصرف أوقع نفسه في حالة أسوء من ذلك الخوف. طُرِد من رحمة الله بشكل أليم. حُقِّر وسقط في هاوية سوء الحظ مطروداً من جانب الملائكة بعد أن كان يحتل مكانة كبيرة بينهم لفترات من الزمن. مثلما يقول المولى ﷻ بشأن عصيان إبليس:

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحجر، ٣٤-٣٥)

وهكذا فحينما استعلى إبليس على السجود لآدم فإنه فَقَدَ مكانته أيضاً بين الملائكة. توسل إلى الله منزعجاً على مصير حياته قائلاً لله ﷻ: ﴿**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ (الحجر، ٣٦)

فحقق له الله ﷻ مراده قائلا: ﴿**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**﴾ (الحجر، ٣٧-٣٨)

ونظراً لأن جميع الناس سيولدون من صلب آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ، لذا فلكل واحد منهم نصيب مما حظي به من تكريم. وكما أن الله ﷻ طالب آدم عليه السلام بمعاداته للشيطان، فإن الناس جميعاً مأمورون أيضاً بمعاداة الشيطان. فهناك ضرورة إلى وجود مُحرِّض مثل الشيطان لكى تظهر كل الرغبات المتعلقة بالنفس (الشهوات) وذلك لكى يتم اختبار العبد.

إن واقعة الفاكهة المحرمة المعروفة التى كانت سبباً في إخراج آدم عيه السلام من الجنة كانت ضرورية من أجل إظهار النزعات النفسية الموجودة بداخل الإنسان. فإبليس الذى كان مأموراً بإغواء الإنسان يُمثل عائقاً يحول دون إرتقائه الروحانى بتحريضه المستمر وإيقاظه للرغبات النفسية البشرية.

وبسبب هذه الحِكم فقد أمهل اللهُ ﷻ الشيطانَ إلى يوم القيامة. وفي مقابل ذلك أبقى الله ﷻ باب العفو مفتوحاً أمام الإنسان حتى الموت. لكن إبليس الذى همَّ بإسناد سبب عصيانه إلى الله ﷻ شعر ببعض الأمن في داخله بعد هذه المُهْلة التى منحه الله إياها فقال:

﴿**قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ (الأعراف، ١٦-١٧)

ثم يخبر الشيطان بأنه سيزين للناس الشر والذنوب حتى يتمادوا في فعلها فيقول:

﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ (الحجر، ٣٩-٤٠)

ويُخبر المولى ﷻ من خلال هاتين الآيتين الكريمتين كيف أنه سيحمى عباده المُخْلَصين من إفساد الشيطان وشره، فهؤلاء ليس للشيطان عليهم تأثير، إلا من اتَّبع طريق الشيطان بإرادته، فيقول سبحانه:

﴿**قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ (الحجر، ٤١-٤٢)

خَلْقُ أُمِّنا حَوَّاء وتزَوّجها بآدم عليه السلام:

ويخبرنا ربنا ﷻ فيما يتعلق بخلق حواء من آدم عليه السلام فيقول:

﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...**﴾ (الأعراف، ١٨٩)

كان الله ﷻ موجوداً وحده في الأزل مثلما سبق أن أوضحنا في البداية. ولقد خلق الله ﷻ المخلوقات بسبب مَحَبَّته في أن يُعرِّف نفسَه، كما أوجد هذا العالَم الذى يُقال له «عالم الكثرة». ولهذا فإن السبب في خلق كل كائن إنما يعود إلى تلك المحبة الإلهية.

وهذه الكيفية هى المُشار إليها أيضاً بخصوص آدم عليه السلام. إن الهدف الكامل لهذه المحبة والإشتياق هو رغبة الإنسان في الرجوع إلى أصله (ربِّه). وهناك أيضاً ضرورة إلى «مرحلة الإعداد» من أجل التمكن من الوصول إلى هذا الهدف.

ولأن الله سبحانه وتعالى قد اختص نفسه دون غيره بالوحدانية، لذا فقد خلق كل كائن مع الجنس المقابل له كزوجين، وجعلهما ينجذبان إلى بعضهما البعض. وينطبق الحال نفسه على كل الذرات الموجودة في الكون، الحبَّات، الخلايا، النباتات، الحيوانات، الإنسان، المواد، حتى العناصر الخفية الغامضة مثل الإلكترون والبروتون الموجود بداخل الذرة، فالجميع يخضع لقانون «إزدواجية الخلق» كل بما يتناسب مع طبيعته. يقول الله ﷻ:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات، ٤٩)

ومثل هذه الحالة تعد إما نزعة طبيعية أواضطرارية من أجل الرجوع إلى الله ﷻ من العالم الذى كان عالم الكثرة. ولهذا فإن ميل الأجناس المختلفة إلى التوحد فيما بينها عندما كانت في عالم الكثرة إنما يعد فطرياً من أجل إقامة جسر إلى تلك الوحدانية. وفي الوقت نفسه، فإن الله ﷻ قد جعل هذا الميل فيما بين الأجناس المختلفة وسيلةً لاستمرار الذرِّيات.

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان الذى جاء من روح الله يعد في غربة لبقائه بعيداً عنه. والغربة تعنى الوحدة، العجز، الحزن، والكدر. وكل من هو في غربة –فيما عدا الله ﷻ– يشعر بحاجته إلى أحد لكى يُسرِّى عنه ويسليه. وكل هذه الخصائص الفطرية دفعت آدم عليه السلام الذى كان موجوداً في الجنة في نِعم لا حصر لها إلى طلبه لزوجة من جنسه.

وهكذا فلهذه الأسباب طلب آدم عليه السلام من المولى ﷻ زوجة.

وبناء على هذا فقد خلق الله ﷻ حواء من جنسه من الضلع الأيسر لآدم. وطبقاً للرواية التى وردت عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما أنه بعد أن أُخرِج إبليس من الجنة وأُسكن فيها آدم مشى فيها مستوحشاً دون زوجة يسكن إليها، وعندما استيقظ من نومه ذات يوم رأي عند رأسه إنساناً مخلوقاً من ضلعه القصرى من شقه الأيسر فسألها قائلاً:

- من أنتِ ؟ قالت: إمرأة.

وعندما أراد آدم معرفة سبب خلقها قالت: – خلقنى الله لتسكن إلَيَّ وتأنس بى.

وطبقاً للحديث الشريف الذى رواه البخارى عن رسول الله ﷺ:

"اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ" (البخاري، الأنبياء، ١، ٣٣٣١)

خلق الله ﷻ المرأة أكثر ثراءً من حيث المشاعر قياساً إلى الرجل. فحينما يبين الله ﷻ بداية خلق الإنسان يقول سبحانه وتعالى: ﴿**خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾ (الطارق، ٦-٧)



ففي هاتين الآيتين يخبرنا الله ﷻ أن هذا الماء الدافق (المَنيّ) يخرج دفقاً من الرجل والمرأة. وبالنسبة للرجل فإن هذا الماء يخرج من صلبه (والصلب هو تلك المنطقة القريبة من العمود الفقرى) ، أما الجزء الذى يخرج منه ماء المرأة فهو «الترائب» (والترائب هى عظام الصدر) ومنطقة الصدر هى مركز الإحساس وتوجد بالقرب من القلب. وهذا يشير إلى أن المرأة تمتلك إحساسا ثرياً تجاه عالمها.

إن الله ﷻ قد أعطى المرأة هذه المشاعر والأحاسيس الثرية لكون هذا أمراً يتعلق بالتربية والمحافظة على النسل. ولهذا السبب ينبغى معاملة النساء معاملة حسنة. فالأب لا يستطيع أن يقوم بخدمة الإبن مثل الأم، ولا يرعاه كرعايتها، فلا يستطيع أن يترك نومه من أجله. وفي الوقت الذى تفدى فيه المرأةُ الولدَ بنفسها إذا ما أصيب بمرض، فإن الرجل لا يستطيع فعل ذلك.

فالأم تعيش دوماً في محبة الأبناء وتحمل همومهم ومِحنهم. فهى تحملهم في بطنها تسعة أشهر، وفي حضنها لمدة عامين و تحملهم في قلبها طول العمر. فإذا لم يأكل الإبن أو لم يشرب فإن الراحة تفارق الأم. وإذا بكى تبكي الأم أيضاً. ومن أجل كل هذا فلا يمكن الوفاء بحق الأم.

وبعد أن تفضل الله ﷻ بعقد نكاح آدم وحواء بنفسه في حضور الملائكة قال تعالى:

﴿**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (الأعراف، ١٩)

إخراج آدم عليه السلام وحواء من الجنة:

إن اختبار الله ﷻ لعباده إنما بدأ باختبار آدم. في البداية أُختبر الملائكة بأمر السجود لآدم عليه السلام. إجتاز جميع الملائكة هذا الإختبار. لأنه لا توجد فيهم الميول النفسية. أما الشيطان فقد أخفق في الإمتحان بعصيانه لأمر

السجود. ذلك لأنه من طائفة الجن التى توجد «النفس» (الشهوة) في داخلها. وقد وضع الله ﷻ آدم عليه السلام و زوجته حواء مع إبليس في اختبار. أعطى إبليس الفرصة أيضاً من أجل تنفيذ الإختبار.

كان الله ﷻ قد حرّم على آدم عليه السلام وحواء الإقتراب من ثمار إحدى الأشجار الموجودة في الجنة. إن نفس الإنسان التى تسعى إلى الحيلولة دون تنفيذ أمر الله إنما بدأت في الجنة من خلال وسوسة الشيطان في أول معركة معنوية مع الإنسان. وكانت رغبة الشيطان أن يجعل آدم عليه السلام يقبل هذا بواسطة حواء. أما الشيطان فكان يقوم بعمل جميع الحِيَل لكى يتمكن من خداع الإثنين معاً بمقتضى وظيفته. يقول الله ﷻ في هذا الشأن:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف، ٢٠)

ويقول الله ﷻ أيضاً: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف، ٢١)

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ[٨] وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف، ٢٢)

إن اقتراب آدم عليه السلام وحواء من الشجرة المحرمة، كان سبباً في مواجهتها لاختبار نفسيهما. إن آدم عليه السلام وزوجته حواء اللذين خُدعا بالحيلة التى فعلها الشيطان بهما لكى يثأر منهما، تركا إبليس في الحال بعد هذه الخديعة شاعرين بندم عظيم، وتابا إلى الله ﷻ مُفضلين طريق الملائكة:

﴿...رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، ٢٣)

وهكذا فبسبب توبتهما بيَّنَ الله ﷻ لهما ولمن جاء بعدهما من ذريتهما طريق الخلاص:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون. يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا...﴾ (الأعراف، ٢٦-٢٧)

٨- التستر: هي كيفية تخص الإنسان وحده من بين سائر المخلوقات الأخرى. فالإنسان يجد نفسه مجبراً لأن يستر نفسه حتى يمكنه أن يحمي صفة الإنسانية والوقار و الحياء و الجدية التي أنعم بها الله ﷻ عليه. و يفقد الإنسان تلك الصفات بفقدانه صفة التستر. و يسقط حينها إلى مستوى ما دونه من المخلوقات الأخرى. و ضياع الحياء من بين الناس احدى علامات قيام الساعة المعروفة. فقد جاء في الحديث الشريف:

"**الحياء من الإيمان**" (البخاري، الإيمان، ٣). و على الرغم أنه لم يكن ثمة أناس آخرون في الجنة سوى سيدنا آدم و زوجته حواء، إلاّ أن كل منهما كان يخجل من الآخر و من المخلوقات الأخرى. فحاولا جهديهما أن يسترا عورتيهما بأوراق الأشجار المتاحة. و هذا يشير إلى أن الغطاء المادي و ما يرتبط به من غطاء معنوي آخر متمثل في الأدب و الحياء، هو واحد من أفضل ما يميز بني آدم.

وفي هذه الآيات إشارة إلى ضرورة التوشُّح بـ «لباس التقوى» الذى يعد اللباس الأساسى الذى يجعل العبد يدرك مسؤليته تجاه الله، ويحمى قلبه من الأفكار والمشاعر الشريرة، نظراً لعدم كفاية الملابس المعروفة في تغطية عيوب الإنسان وعوراته.

لقد خلق الله ﷻ أدم ﷺ في الجنة، وجعله أكرم المخلوقات. إلا أنه أُخْرِج من الجنة وأُهبط إلى الأرض بسبب الزَّلّة التى ارتكبها. وتلك هى بعض الحِكَم الكامنة وراء ذلك:

* أراد الله ﷻ بإنزاله آدم ﷺ وأُمّنا حواء إلى الأرض لتتكاثر ذرية الإنسان هناك، واستمرار هذه الذرية إلى يوم القيامة.

* أراد الله ﷻ منهما أن يهرعا إلى الأعمال الصالحة في الدنيا التى كانت مكاناً للإختبار،على أمل معرفة قيمة نِعَمْ الجنة التى خُلِقا فيها والوصول إلى تلك النِّعم مرة أخرة.

* نظراً لوجود أشخاص في ذرية آدم ممن لا يستحقون دخول الجنة وإنما يستحقون النار، لذا فكان لابد من التفرقة بين هؤلاء وبين الصالحين.

* أراد الله ﷻ أن يجعل الإنسان خليفة مكلفاً بتطبيق مشيئة الله وأحكامه على الأرض وإعمارها.

* إن الشرف الذى تفضل الله تعالى به على آدم ﷺ وذريته ليس تفضلاً بأن أوجده في الجنة فحسب، لكنه في الوقت نفسه رغبة من الله تعالى في مكافأته. ولكى يتحقق هذا المراد الإلهى إرتكب آدم ﷺ الزلة المعروفة، فأُخرج من الجنة التى كانت موطنه الأصلى بهذا السبب الظاهرى، وأُرسِل الى الدنيا التى كانت عالماً للإختبار.

وعلى الرغم من هذه الحِكَم التى ذُكرت، إلا أن إخراج آدم ﷺ من الجنة وإرساله إلى الأرض يبقى سراً قدرياً لن يستطيع عقل الإنسان التوصل إلى ماهيته.

توجه الإنسان إلى ربه والتخلص من ضعفه:

سيرتبط الإنسان حتماً وسيميل إلى أشياء بمقتضى طبيعته سيصير عبداً إما لنفسه (شهواته) وإما إلى ربه. بالرغم من كل هذا القدر من ضعف الإنسان، إلا أنه مع ذلك يستطيع أن يتحول إلى معجزة رائعة، ويتمكن من الوصول إلى السعادة الأبدية مرحلة تذكية نفسه وشهواته. ولهذا فإن توجه الإنسان إلى ربه وتخلصه من ضعفه الذى تحدثنا عنه يعتبر أمراً ضرورياً لكى يتجاوز حاجز النفس الذى بداخله حتى يستحق أن يكون عبداً لله عن جدارة. وبهذا يصدق الإنسان في عهده مع الله حينما سأله المولى قائلاً: «ألستُ بِرَبّكم؟ »، فعندئذٍ أجاب الإنسان قائلاً: «بلى أنت ربنا».

وحينما قطعت الروح هذا العهد مع الله ﷻ كان كل شئ حينها واضحاً. ترى الملائكة وتشاهد عظمة الله. فالروح ـ كما رُوى في الحديث الشريف ـ يتم نفخها في بطن الأم بواسطة جبريل ﷺ، في اليوم العشرين بعد

المائة. لكن الروح التى تعمل على استمرار الحياة في البدن بعد الولادة تتصادم مع حاجز النفس حينما تقع تحت أسر الحواس الخمسة. تُحجب وتتغطى من النضارة إلى الكثافة.

وإذا قام الإنسان بتزكية تلك الحواس الخمس في الإتجاه الذى يريده الله من خلال الإمكانات المعنوية التى منحه الله إياها، فعندئذ يمكنه بذلك أن يتخطى حاجز النفس. كما أن دخول الحواس الخمس في نفس الإتجاه الذى يبتغيه الله يتحقق كذلك من خلال تصفية القلب وتزكية النفس. وفي النهاية تتناقص الكثافة، وتزداد النضارة واللطافة، ويتحول القلب إلى مرحلة كشف الحقائق.

إن الروح التى ذكرت في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر، ٢٩)

هي النفس السلطانية التى جاءت من عالم الأمر. كانت قد دخلت إلى الجسد الفاني. ويعطي «مولانا» ذلك المثال لتحكم النفس السلطانية في الجسد وعدم تحولها إلى حالة ضعف في مقابل قوى البدن:

«مثل السَّمن البلدي الموجود داخل اللَّبن يبقّ مختفياً ولا يُرى وكذلك الروح في الجسد، فلا بد أن يُضرب اللّبن ويتم خضّه وتحريكه جيداً حتى يخرج ويظهر الدهن الموجود داخل اللّبن». ومثل هذا أيضاً ينبغي أن تسيطر النفس السلطانية على الجسد، ولكي يتحقق هذا فلابد من المجاهدة الروحية، الرياضة النفسية، والصبر على كثير من المحرمات. ويبين المولى ﷻ في هذه الآيات أن الخلاص والوصول إلى الفلاح لن يكون أمراً ممكناً دون تزكية النفس:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى، ١٤، ١٥)

ويقول المولى ﷻ أيضاً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٩-١٠)

إن الدين يهدف إلى تهذيب الإنسان الذى هو عمق الفكرة والجمال. ويمكن أن يتحقق ذلك بفضل العبودية لله على أفضل وجه. وهذا النضج يمكن أن يتحقق إذا ما أمكن الوصول إلى المراتب السامية من خلال التأمل والتدبر. مثلما يصف المولى ﷻ أصحاب الإيمان الكامل بقوله تعالى:



﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال، ٢)

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ...﴾ (الحج، ٣٥)

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾

(الأعراف، ٢٠٥)

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (المزمل، ٨)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢)

حينما تمتلئ القلوب بحب الله يكون رضاء الله في بداية كل عمل ونهايته. وهكذا فإن الإنسان يبدأ في استبطان الحِكم الكامنة وراء خلقه، وكذلك يسلك الطريق إلى إدراك حقيقة الكون والقرآن الكريم. أما العباد أصحاب القلوب المريضة الغافلة الذين لا يستطيعون إحراز مثل هذه الدقة والعمق فهؤلاء لا يحبهم الله تعالى، مثلما يقول الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر، ٢٢)

ففي هذه الآية يخبر الله ﷻ أن الإنسان الذى يبتعد عن ذكر الله لن يصل إلى شرف الإنسانية أي إلى صفة كونه «في أحسن تقويم».

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ (الفرقان، ٤٣)

والنفس الإنسانية تسعى إلى امتلاك كل ملذات الدنيا طامحة إليها. لكن من الممكن التخلص من تلك الحالة بـ» تزكية النفس»، وهكذا تخرج محبة الدنيا من القلب. ولكى يتحقق ذلك فلابد من ذكر الله دوماً ومرافقة الصالحين وبالرياضة الروحية. والقلب أيضاً يعتبر مركز الذِّكر مثلما أنه يُعد محل جوهر الإيمان. وبذلك يتخذ الإنسان سبيله لتجاوز حاجز النفس. ومن نتائج ديمومة الذكر هى أن تتجلى فوائد الذكر ومنافعه في جميع تصرفات الذاكرين (الذين يذكرون الله). ويظل العبد متعلقاً بربه حينما يطرح من قلبه كل شئ فيما عدا الله. وهكذا يداوم العبد على الطاعة والعبودية واصلاً إلى مشاعر الإحسان وكأنه يرى ربه.

إنزال آدم عليه السلام وحواء إلى الأرض:

أُهبِطَ آدم عليه السلام وأمنا حواء وأُخرِجا من الجنة بعد مخالفتهما لأمر الله ﷻ بخديعة الشيطان لهما. كان آدم عليه السلام قد أُنزِل_ من قِبل الملائكة_ إلى جزيرة سيلان التى تقع جنوب بلاد الهند، أما أمنا حواء فقد تُركت في المنطقة

التى توجد بها مدينة جدة الواقعة على البحر الأحمر. ظل كلاهما بعيداً عن الآخر لفترة طويلة من الزمن. لم ينقطع آدم ﷺ وأمنا حواء عن التوبة والإستغفار، لكنهما لم ينالا العفو لفترة من الزمن. وفي النهاية فازا بعفو الله ﷻ بعد أن استنجدا بروح رسول الله ﷺ فعندئذٍ نالا المغفرة ببركته. و قد ورد في الحديث الشريف ذكر ذلك على النحو التالي:

"لما اقترف آدم الخطيئة، قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله ﷻ يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه[٩]؟ قال لأنك يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من رُوحك رفعتُ رأسي فرأيتُ على قوائم العرش مكتوبًا لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، فعلِمتُ أنك لم تُضِفْ إلى اسمك إلا أحبَّ الخلق إليك، فقال الله ﷻ صدقت يا آدمُ، إنهُ لأحبُّ الخلق إليَّ، وإذْ سألتني بحقه فقد غفرتُ لك، ولولا محمد ما خلقتُك" (الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٧٢).

إن آدم ﷺ الذى ذكر هذه الواقعة فكر في قيمة سيدنا محمد ﷺ ومكانته الشريفة عند الله ﷻ، فطلب من الله العفو والمغفرة بحرمة ماء وجهه الكريم. وبعد أن استجاب الله لدعوة أدم ﷺ كلَّف سبحانه وتعالى ملكاً لكى يرشده إلى اتجاه «مكة». كما أن أمنا حواء التى كانت قد عاشت في جدة شدت رحالها في اتجاه آدم ﷺ بإرشاد ملك آخر. عندئذٍ تقابل الإثنان عند جبل عرفات وقت العصر في يوم عرفة، واستغفرا الله ﷻ وتابا إليه ذارفين دموعهما.



٩- أراد الله ﷻ الذي لم يكن هنا موجود غيره في الأزل، أراد يُعرف على مستوى إدراك الإنس والجن فخلق كل ماسوى ذلك من مخلوقات. وكان «النور المحمدي» هو أول ما خلق الله تعالى. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قَالَ: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ» (الترمذي، المناقب، ١). وهذا يعنى أن النور المحمدي -عليه الصلاة والسلام- هو جوهرة الأنبياء جميعهم، وهو مقابل كونه أول من خلق الله، سيكون خاتم الأنبياء والمرسلين. ونحن لا نقصد التعبير "النور المحمدي" بمعناها الحرفي بل "الذات محمد" المبعوث بصفاته البشرية.

ومثلما أجاب الله تعالى دعوتهما وغفر لهما حيث لاتوجد نهاية لكرمه وإحسانه، لذا فقد غفر الله تعالى أيضاً لكل من طلب العفو من ذرية آدم إلى يوم القيامة إذا ما ذهبوا إلى عرفات في الساعة نفسها وفي اليوم نفسه من كل عام. وهذه هى الحكمة من خروج الحجاج إلى جبل عرفات وإكثارهم من الاستغفار هناك.

استوطن آدم عليه السلام وأمنا حواء- بعد التقائهما- المكان الذى توجد فيه مدينة مكة حالياً. ولهذا السبب أُطلق على مدينة مكة أيضاً اسم «أم القرى» أي أم مناطق الإقامة وأساسها.فهناك بدأ البشر يتزايدون. كانت أمنا حواء تلد أطفالاً كثيرين في بطن واحدة. كان الأطفال المولودون في البطن الواحدة أخوة. كان زواجهم من بعضهم البعض محرماً. لكن كان في استطاعتهم أن يتزوجوا بمن وُلدوا في بطن أخرى.

أول جريمة أُرتكبت على وجه الأرض:

أراد قابيل الذى كان من أبناء آدم أن يتزوج من أخته التى وُلدت معه في البطن نفسها. في حين نبهه أخوه هابيل إلى ضرورة تزوجه من إحدى الأخوات اللاتى وُلدن في وقت آخر ومن بطن أخرى لكون هذا لا يتلائم مع الشريعة. لم يبالِ مدعياً أن الفعل الذى قام به صحيحٌ ولم يُلْقِ بالاً لهذا التحذير.

عرض هابيل على أخيه أن يقدم كل منهما قرباناً إلى الله لكى يتضح أياً منهما على صواب. كان القربان في ذلك الوقت يُقدم من ما يملكه الشخص في مهنته التى يشتغلها.كانت الأشياء المُقدمة على سبيل القربان تُوضع على قمة جبل، وبعد فترة يتم الذهاب إلى هناك. كان القربان الذى يختفي بعد أن تأكله النار التى تنزل من السماء هو القربان المقبول من قِبَل الله جل جلاله.

كان يوجد لهابيل قطيع من الغنم، اختار من بينهم كبشاً كان أكبرهم و أسمنهم لكى يقدمه قرباناً. أما قابيل فكان يشتغل بالزراعة. قرب قابيل حزمة من ردئ زرعه. ذهب قابيل وهابيل بعد ذلك ليتفقدا القرابين التى تركاها. تُقُبِّل الكبش الذى تقرب به هابيل، أما حزمة القمح الهزيلة التى تقرَّب بها قابيل فكانت لا تزال موجودة كما هى، الأمر الذى أغضبه كثيراً، مما دفعه إلى قتل أخيه هابيل. مثلما عبر القرآن الكريم عن ذلك:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة، ٢٧- ٣١)

الدروس المستفادة من قصة قابيل وهابيل:

أُجريتْ في قصة قابيل وهابيل مقارنة ما بين عقل غير متحرر من سلطة النفس، وعقل مضاء بنور الوحى، وقد عُرضتْ النتائجُ التى مهدت لها هذه المعركةُ المعنوية السبيلَ من خلال نماذج حية. إن أي عقل يخدم الوحى ويتخذه دليلاً ومرشداً يكون مطلعاً على الحِكَم. أما العقل الذى يُحرم من إرشاد الوحى فإنه لا يستطيع حماية الإنسان من أضرار النفس. فالعقل مثل السكين الحادة التى من الممكن استخدامها في غايات مختلفة، فهناك من يستخدمها في تقطيع الخبز، وهناك أيضاً من يستخدمها في الأذى والجرح. ولأن قابيل قد خالف المعرفة المستندة إلى الوحى، لذا فقد ضل وانحرف عن الصواب، وضيَّع آخرته أيضاً.

إن عقل الأشخاص الذين يفتقدون التقوى والإخلاص يتسبب في إزدياد ظلم هؤلاء سواء لأنفسهم أم للآخرين. كما هو الحال مع قابيل الذى وصل إلى مرحلةٍ قتل فيها أخاه. أما هابيل فكان قد قدم له النصح مستخدماً نعمة العقلِ في الإتجاه الذى أراده الوحى، ولأنه كان عبداً مخلصاً، لذا فقد تصرف انطلاقاً من خوفه من الله.

أن المصابين بمرض الحقد والغيرة لا يرون النعم التى هم فيها، وإنما تمتد عيونهم دائماً إلى تلك النعم التى في أيدى الآخرين. فالحسد والحقد اللذان يعتبران من أسوء صفات النفس إذا ما سيطرا على أي شخص فإنهما يصيبانه بكل أنواع الشرور، حتى إن هذا الشخص لا يتورع حتى عن قتل أخيه.

والأشخاص الحقودون الحسودون لا يرضون بقضاء الله وقدره، ونتيجة لذلك فإنهم يعيشون في الدنيا محتقرين شاعرين بالندم الشديد وعذاب الضمير، هذا بخلاف ماينتظرهم في الآخرة من عذاب أليم. ويمكن التخلص من هذا المرض عن طريق إعادة تزكية وتهذيب النفس والتخلص من النفس الأمَّارة والوصول إلى النفس المُطمَئِنَّة، وأيضاً الرضاء بما قسمه الله ﷻ (أي الوصول إلى مقام الرضاء).

وفي شخصيتى قابيل وهابيل يوجد تكتل يذكرنا بالتناقض الذى بين الملائكة والشيطان. فقابيل مثل الشيطان حينما كان يبحث عن نقصانه في خطابه، أما هابيل فكأنه مَلَك حيث لم ينغمس في شهواته، ولم يخف من فقدان عزته وكرامته. كان يتصرف من منطلق خوفه من الله فحسب. أي أن أحدهما أصر على ذنبه مثل الشيطان، أما الآخر فتوجه إلى الله ﷻ.



يقول رسول الله ﷺ بشأن حادثة القتل وإراقة الدم التى ارتكبها قابيل لأول مرة في تاريخ البشرية:

"لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ" (البخاري، الأنبياء، ١)

أي أن أي إنسان يُقتَل يذهب جزء من دمه على قابيل لأنه كان أول من سَنَّ القتل. وفي موضع آخر يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

"مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ" (مسلم، الزكاة، ٦٩؛ النسائي، الزكاة، ٦٤)

ويوضح هذا الحديث أن من بدأ عملاً يعود على الإسلام بالخير فإنه سوف ينال نصيباً من الثواب الذى سيفعله الناس الذين يأتون من بعده، ومن تسبب في عمل يعود على الإسلام بالشر سينال بالطبع نصيباً من ذلك الشر الذى سيفعله من سيأتي بعد.

العبر المُستقاة من قصة آدم عليه السلام

١- يجب أن نكون منتبهين يقظين إلى أبعد الحدود لحيل الشيطان، فهو عدو الإنسان اللدود والمحرض الدائم له على السوء.

٢- يجب أن نولي الإهتمام بتزكية النفس و تصفية القلب حتى نتخلص من الصفات المذمومة مثل الكِبر و الحسد و الحرص و العجلة و هي صفات تسوق بصاحبها إلى الخسران الأبدي.

٣- يجب على الإنسان أن يقتدي بسيدنا آدم عليه السلام في أن يُسرع بالاستغفار لدي ارتكابه الإثم.

٤- يجب علينا أن نتوجه إلى الله بالإستغفار حتى إن لم نكن قد ارتكبنا إثماً معترفين بعجزنا عن تأدية شكر نعمائه علينا.

٥- يمكننا أن نستقي من حادثة اقتراب سيدنا آدم عليه السلام و أمنا حواء من الشجرة التي حرمها الله، أنه يمكن لروحانيات العباد التي تلاشت بعد ارتكابهم الذنوب، يمكنها أن تعود مرةً أخري إذا هم لزموا الاستغفار.

٦- يجب علينا أن نتوسل في دعائنا بسيدنا رسول الله ﷺ كما فعل سيدنا آدم عليه السلام، و ألا نكف الصلاة عليه في وقت ضيقنا و راحتنا.

٧- يجب علينا نبذل جهدنا حتى ندرك سر "أحسن تقويم" ونجعل الروح السلطانية غالبةً على حياتنا النفسية.

٨- يجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه إذا دل أحد على خير، فله حصة من ذلك الخير الذي سيستمر من بعده؛ و إذا تسبب أحد في وقوع شر فله نصيب كذلك من ذلك الشر الذي سيستمر من بعده. و بذلك يكون هابيل قد سنَّ سُنة في الخير، أما قابيل فسنَّ سُنةً في الشر.

نخلُص من هذا كله إلى أن سيدنا آدم عليه السلام:



- أول مخلوق وأول نبي
- هو الشخص الذي عاش في الجنة وعاش في الدنيا
- أول إنسان يرتكب الذنب وأول إنسان يتوب.

.... عليه السلام!

التوبة والإستغفار:

لأن الحياة الدنيا مكان امتحان واختبار فقد خُير الناس إما لفعل الخيرأو لفعل الشر. فإن استقوت أي من قدرات الإنسان على الاخرى، حيئذ تكتسب شخصية الإنسان هويتها.

فعندما يقدم شخص ما إلى صديق له كوباً من الماء بكامل إختياره ، فعندئذٍ يجب شكر ذلك الشخص. إذاً فبناءً على ذلك يتم قبول القضية الإنسانية والوجدانية. وهذا الموقف هو في الحقيقة يذكرنا بأنه يجب علينا شكر وحمد المولى عزّ وجلّ على نعمه التي لا تحصى.

وعلى ذلك فإن خضوع الإنسان لأهواء ورغبات النفس الخداعة الزائفة مثل الجهل، والشهوة والكبر والجشع والبخل والحسد والإسراف والغضب وكذلك أيضًا كفره بالنعم الإلهية إنما هو اغترار وانخداع عظيم لم يعد له أثر على عزة وكرامة الإنسان اللتين فُطر عليهما.

وهذا الإعتزاز جاء نتيجة المعاصي التي اُرتكبت بسبب إغفال وإهمال النعم، الأمر الذي من شأنه أن يقلل من كرامة العبد وشرفه، ليس هذا فحسب بل و تدنيس النفس بارتكاب المعاصى.

إن الإنسان يُقدِمُ على ارتكاب المعاصي عندما يضعف أمام أهوائه ورغباته الذاتية ويفقد حلاوة الإيمان. وعندما تضعف القيمة الأخلاقية في الوجدان يتم فقد التفكير الدقيق والتعمقات الروحانية.

وهذا ضعف خطير لدى الشخص المستقيم. ولذلك فإن الذنوب والمعاصى تأتى على النفوس مثل موسيقى عذبة، وقد تُرتكب دون الشعور بثقل هذا العمل.

إلا أن الإنسان عندما يُولد يأتى إلى هذه الدنيا طاهرًا نقيّ النفس ومن نعم الله ﷻ واللتين وجود الرحمة والمغفرة اللتين ينعم بها الإنسان للحفاظ على هذه الطهارة الفطرية. ولهذا السبب فإذا تمكن العبد من أن يفرّج حواجب الغفلة بفضل هاتين النعمتين فسوف يشعر بالندم الشديد على ثقل الذنب الذى ارتكبه، وستحيا لديه المشاعر العظيمة المختفية في عالمه الداخلى، وسيندم ندمًا شديدًا ويتوجه قلبه للمولى ﷻ بدموع منهمرة. وبهذا الندم تكون التوبة، أما الإستغفار فهو التضرع النابع من القلب برفع العبد يديه إلى الله سبحانه وتعالى ليعفو عنه.

إن معرفة العبد بالذنب والخطيئة التى ارتكبها وغفلته إنما هو واجب ديني أما طلب المغفرة من الله فهو واجب وجداني.

كما إن عدم علم الشخص بالذنب والخطيئة التى ارتكبها وكذلك عدم إدراكه بوجوب الإقلاع عنه، لهو دلالة على حمق وفساد القلب، وطريق للدخول إلى جهنم.

و قد ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال:

"...**والتائب من الذنب كمن لا ذنب له**" (بن ماجة، الزهد، ٣٠)

إن قول «أستغفر الله» ليس كافيًا وحده لقبول التوبة، بل لابد من ارتجاف وارتعاد القلب والعزم على عدم تكرار نفس ذلك الذنب.

يتحدث مولانا جلال الدين الرومي عن التوبة على النحو التالي:

«تب إلى الله بقلب مملوء بالندم الشديد وبعيون دامعة ، لأن الزهور لا تتفتح إلا في الأماكن المشمسة المبتلة بالماء....»

إن التوبة والإستغفار تأخذ الأفراد والشعوب إلى طريق النجاة كما تزيل أيضًا المصائب والبلايا التى ستحل بهم.

فإذا قيل «سيدخل شخص ما جهنم «فيرد المؤمن في خوف «أنا؟»

وإذا قيل «سيدخل شخص ما الجنة «فيرد المؤمن متمنيًا ذلك قائلاً «هل أنا ؟».

ولم يُعصم من الخطأ سوى الأنبياء فقط ، وقد كانوا دائمًا يتوبون ويستغفرون الله من خلال ندمهم وتألمهم وتذوقوا العجز البشري وذلك لأن السيادة المطلقة لله ﷻ. فهو منزه ومستثنى عن أي عجز أو ضعف.

وكان أول من يتوب على وجه الأرض هو سيدنا «آدم عليه السلام «وهذه التوبة التى قام بها آدم عليه السلام مع أمنا حواء تُعرف في قوله تعالى:

﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (الأعراف،٢٣)

وهذا الدعاء هو نموذج للإستغفار الذى يتخذه أولادهم من بعدهم وحتى قيام الساعة.

وهذه بعض الآيات التى وردت في القرآن الكريم و يحث المولى ﷻ فيها عباده و يدعوهم إلى التوبة:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان ٧٠-٧١)

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء، ٢٧)

إلا أن التوبة يجب أن تكون خالصة من القلب حيث يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (التحريم، ٨)

و لا يستغنى العبد عن التوبة حتى و إن ابتعد تماماً عن ارتكاب الذنوب التى توقعه في مخالفة أمر الله تعالى، لأن ليس في إمكان بش أن يؤدي شكر الله تعالى على نعمائه كما يجب، لأن هذا العجز صفة من صفات البشر و حتى إن وُفق الإنسان على شكر النعم كما يجب فهذا التوفيق هو في ذاته نعمة تقتضي شكر الله تعالى عليها أيضاً. و بذلك يكون الشكر بمثابة الدين ينبغي على الإنسان تأديته إلى الأبد.

في الواقع (الحقيقة) إن نعم الله كثيرة جدًا لايمكن إحصائها وشكره عليها. يقول الله تعالى:

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم، ٣٤)

ويتحدث عطاء بن أبي رباح أحد أشهر علماء التابعين رحمة اللَّه عليه عن شكر واستغفار نبينا ﷺ فيقول: دخلت انا وعبيد بن عمير على عائشة ﵂ فقال لها عبيد بن عمير:

"حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول اللَّه ﷺ ؟!"

فبكت عائشة ﵂ ثم قالت:

"قام رسول اللَّه ﷺ ليلة من الليالي فقال:

"يا عائشة ذريني أتعبد لربي" قالت: فقلت:

"واللَّه اني لَأحب قربك وأُحِب ما يسرُّكَ"

قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بل الارض وجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال:

"يا رسول اللَّه تبكي وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟"

فقال ﷺ:

"أفلا أكون عبداً شكوراً؟! لقد نزلت عليّ الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"

وقرأ هذه الآية:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران،١٩٠-١٩١) (ابن حبان، ٢، ٣٨٦)

إن توبة واستغفار النبى ﷺ في الاغلب لم تكن بسبب أنه مخطئ او مذنب ، بل للتقرب أكثر إلى الله تعالى وشكره ولكي يرضى عنه. إضافة إلى ذلك فإن توافر الترقيات المعنوية لدى النبى في كل وقت ، فانه كان يستغفر الله على أحواله وأوضاعه السابقة والتى تكون على مرتبة أقل من أحواله وأوضاعه اللاحقة.

إن أفضل الأوقات للتوبة والإستغفار هو وقت السحر. وإذا وقت الفجر بعد وقت السحر وذهب الظلام فان الإستغفار في ذلك الوقت يهئ مناخ الرحمة المناسب للتخلص من ظلمات ارتكاب الذنوب والمعاصى ووصولنا إلى المغفرة.

فاللهم اجعل قلوبنا يقظة وارزقنا السعادة بعفوك ومغفرتك.

أسئلة للتقييم

أ- أجب عن الأسئلة الآتية

١- وردت حياة الأنبياء في القرءان الكريم في شكل القصص. وضح سبب ذلك و الحكمة منه؟

٢- اشرح ما المقصود بـ **"معرفة الله و محبة الله"** التى هما الغرض من خلق الإنسان؟

٣- وضح مراحل خلق الإنسان في ضوء آيات القرآن الكريم؟

٤- ما هي أسباب إمتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام؟

٥- وضح كيف سجدت الملائكة و الجن لسيدنا آدم؟

٦- وضح العلاقة بين الإستغفار و الشكر في ضوء قول النبي ﷺ لأمنا السيدة عائشة **"أفلا أكون عبداً شكوراً؟!"** عندما قالت له :"يا رسول الله لا تجهد نفسك كل هذا القدر لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر" ؟

٧- لما لم يُتقبل قربان قابيل في حيت تقبل الله تعالي قربان هابيل؟

٨- أي الطرق التي يجب على الإنسان الذي تميل نفسه لفعل الخير و فعل الشر، حتى يحقق الكمال؟

٩- رتب درجات الروح الخمسه؟

١٠- عاهدت أرواح الإنس علي إخلاص العبودية لله في " يوم ألَسْتُ " و قالت لربها "بلى" (بلى، أنت ربنا) . ما هي الأسباب التى جعلت بني البشر ينسون هذا العهد في الحياة الدنيا؟

ب- أكمل مكان النقاط فيما يلي

١- هناك ثلاثة مواضع تتجلى فيها كل الصفات الإلهية ما عرفناه منها و ما لم نعرفه بشكل كامل. يأتى .... على رأس هذه المواضع.

٢- على الرغم من أن " آدم عليه السلام" هو أول مخلوق يُخلق كجسد، فإن محمداً ﷺ هو أول مخلوق يُخلق كروح . من أجل ذلك يُطلق على "سيدنا محمد ﷺ ....

٣- يُطلق .... على حُرقة القلب و الندم نتيجة إقتراف الإنسان لأي ذنب، و يطلق .... على التضرع و التوسل الذي يفيض من قلب الإنسان طلباً لعفو به.

٤- يُطلق .... على العلم الذى يهبه الله للفرد ولا يستطيع الفرد تحصيله من خلال العمل فقط ،بل يمكن أن يتوصل إليه كل من لديه استعداد للتعليم الروحانى.

٥- لا يستطيع الإنسان أن يؤدي شكر نعم الله ﷻ حتى و إن ظل بعيداً عن إقتراف الذنوب. لهذا السبب لا يمكن الإستغناء عن الإستغفار. و .... من أفضل أوقات التوبة و الإستغفار.

ج- ضع إشارةً علي الإجابات الصحيحة للأسئلة الآتية

١- أي مما يلي ليس واحداً من خصائص قصص الأنبياء؟

أ- تُحكى الحوادث دون خوض في التفاصيل بهدف العبرة والعظة.

ب- لا يتم الإهتمام في القصص المنقولة بتسلسل الأحداث والتاريخ.

ج- لا يخفي على المُخاطب أي من جوانب الحوادث التي تمر في القصص.

د- تم ذكر الإرشادات والدروس والعبر بين الأحداث الواردة في القصة والتى تُطمئن القلوب والتى بإمكان المُخاطبين والمستمعين فهمها.

٢- هناك ثلاثة أماكن تتجلى فيهما الذات الإلهية بشكل كامل. يشكل الإنسان أساس هذه الأماكن. أيٌّ مما يلى ليس من أسباب كون الإنسان أساس الكمال والتجلي للذات الإلهية؟

أ- كون الإنسان مكان لإظهار القدرات الإلهية وأنه مخلوق عظيم.

ب- كون الإنسان أحد أسرار الكون وجوهره.

ج- كون الإنسان مخلوق من طين.

د- كون الإنسان صاحب عقل وروح.

٣- يقول الله تعالى مخاطباً الملائكة{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} سورة البقرة، الآية ٣٠. **أي مما يلي يحتوي على معنوي لفظ " خليفة"؟**

أ- أن الإنسان بمادته التى خلق منها هو أفضل من الجن والملائكة على اعتبار.

ب- أن الإنسان مكان لتجلّى الصفات الإلهية، وأنه يمثل قدرة وإرادة الله على الأرض.

ج- أن جميع الخلق سيعبدون الله ﷻ.

د- أن كل إنسان يعرف الله ﷻ.

٤- أى مما يلي يحتوي على صفة مشتركة بين " الروح السلطانية" و " الروح الحيوانية "؟

أ- أن كلاً منهما من عالم الأمر.

ب- أن كل منهما يعمل على استمرار وجوده فوق الجسد.

ج- أن كل منهما ينتهي بموت الإنسان.

د- أنهما يحددان أفعال الإنسان و رغباته.

٥- قال الله تعالي { وَإِذ قُلْنا للمَلائِكةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا } سورة البقرة الآية ٣٠. اى مما يلي لا يحتوي علي معنى الأمر " اسْجُدوا " الوارد في الآية الكريمة؟

أ- أن المخلوقات قبلت بآدم على انه الأفضل بينها

ب- تكريم للنور المحمدى الذى حملته الروح التى خُلق منها آدم .

ج- أنه كان يجب السجود لآدم عليه السلام و الخضوع بالعبودية لله عز و جل الذي خلقه .

د- يجب السجود لآدم و الشكر على خلقه

٦- أى معنى يلي اُستخدم لفظ " جامع الأضداد " بشكل سليم من أجل أى من الموجودات؟

أ- من أجل الشيطان: بمعنى الذي يستحوذ بداخله على كل الشرور.

ب- من أجل الإنسان: أي الذي يحمل بداخله الصفات الإيجابية و السلبية.

ج- من أجل الملائكة: بمعنى من يقوم بتسيير وتدبير الطبيعة والحياة

د- من أجل الإنسان: أى الذي يستحوذ بداخله على الشرور

٧- ما هي أكثر الطرق تأثيراً في بقاء الأرواح علي عهدها لربها متذكرة علي الدوام ما قطعته علي نفسها؟

أ- أن نعمل على تذكر ما عاهدنا الله به، و ان كرر ذلك باستمرار.

ب- أن نعمل علي التخلص من الروح الحيوانية الكائنة في أجسادنا.

ج- أن نتخطي عقبة النفس بالعمل علي تزكية الأحاسيس النفسية و تصفية القلب.

د- أن نتعمق في علوم الفقة بالدراسة حتى نزيح ستائر الأسرار الإلهيه.

٨- أى مما يلى ليس واحداً ممن يجب القيام به من اجل تزكية النفس ؟

أ- الجلوس مع الصالحين فى مجالس السمر .

ب- الإكثار من زكر الله باللسان والقلب .

ج- الإستمرار على مواصلة وممارسة الرياضات الروحية المختلفة .

د- التعمق فى العلم اللادونّي .

٩- فى أي من الخيارات التالية ذَكرت حقيقة العلاقة بين " العقل " و "الوحي " من حيث العبودية لله عز وجلّ ؟

أ- العقل دائما أفضل من الوحي لأن العقل أحد تجلى صفات الذات الإلهية فى العالِم .

ب- الوحي دائما يأتى أولا لأن العقل ليس لديه أى فاعلية بدون الوحي.

ج- العقل والوحي متكافئان مع بعضهما البعض وليس هناك جانب أفضل من الآخر .

د- العقل له قيمة لدى الوحي فالوحي دليل يوجه العقل والعقل في حاجة إليه.

١٠- أى من الشعارات المتعلقة بالتوبة والإستغفار لا يمكن إستنباطها وإستنتاجها من قوله تعالى {قَالا رَبُّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِن لَّمْ تَغفِرْ لَنّا وتَرْحَمْنا لَنَكونَنَّ مِن الْقَومِ الخَاسرينَ} (سورة الأعراف الآية ٢٣) **والتى تدل على توبة سيدنا آدم وأمنا حواء عليهما السلام ؟**

أ- يجب أن يعلم العبد بنفسه الذنب الذى يقترفه .

ب- اقتراف الذنب يعنى ظلم الشخص نفسه بنفسه .

ج- التوبة والإستغفار لا تُقبل فى الحال حيث يتوب الله عليه بعد أن يعاقبه برهة من الزمن .

د- الإنسان مهما كان مذنباً ليس لديه حل آخر سوى اللجوء إلى رحمة الله ومغفرته .



حضرة إدريس عليه السلام

و

حضرة نوح عليه السلام

حامل أسرار العجائب السماوية

حضرة سيدنا ادريس

عليه السلام

و

الذي تطهرت الدنيا من الكفر بطوفانه

حضرة سيدنا نوح

عليه السلام

إدريس عليه السلام

روي أنه ولد نواحي بابل. وبابل هي مستوطنة قديمة تقع في منطقة Mezopotomya بين نهري دجلة والفرات. وسيدنا إدريس هو حفيد سيدنا آدم من الجيل السادس. وهو نبي ينحدر نسبه من نسل شيث عليه السلام. وقد تحدث عنه القرآن الكريم في ثلاث آيات.

و قد عكف إدريس عليه السلام هو وعدد آخر من الصالحين، على التعبد قبل أن يُبعث نبيًّا. وكان إدريس عليه السلام يقتات من عمل يده.

عاش بين جماعة انحدرت من نسل قابيل. وقد أفسدت هذه الجماعة - التي انفصلت عن الطريق الذي أرشدهم إياه شيث عليه السلام دنياها وآخرتها، ونسوا أنهم كُلفوا بعبادة الله، وتمادوا في ظلمهم حتى أنهم كانوا يرتكبون الإثم ويستحلون المعصية؛ فأرسل الحق سبحانه إدريس عليه السلام نبيًا؛ ليرشد هؤلاء القوم الذين حادوا عن طريق الحق إلى الهداية، وأنزل الله عليه تعاليم في ثلاثين صحيفة؛ بيَّن له فيها أوامره ونواهيه. وقد بلّغ إدريس قومه بما أُنزِل عليه.

و يُروى أن قرابة ألف شخص هم من آمنوا به. وكان الملائكة يأتون لزيارته عليه السلام في شكل جماعات، ويتبادلون الحديث معه.

و فيما يلي بعضٌ من النصائح والكلمات الحكيمة التي قالها إدريس عليه السلام مرشدًا قومه:

"كلما ازدادت مرتبة العاقل سُمُوّاً ازداد معها تواضعًا".

"العاقل هو من لا ينظر إلى عيوب الآخرين، ولا يعدها لهم! وهو الذي إذا زاد ماله لا يغتر، ولا يفسد خُلُقُه".

" من لم يُطَهِّر نفسه، فلا عقل له".

" لا يجتمع أبدًا حب الآخرة وحب الدنيا في مكان واحد".

"إذا أردت أن تدعو الله؛ فلتخلص النية في الدعاء".

و لما قارب عمر إدريس عليه السلام على الإنتهاء رفعه الحق جل جلاله إلى السماء. وقد تحدثت الآية ٥٧ من سورة مريم في هذا الخصوص: ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾

والقصد من هذا المكان هو مرتبة رفيعة على مقربة من اللّٰه جل جلاله أو الجنة، أو رفع إلى السماء الرابعة. علماً أن الحديث النبوي الشريف يقول في هذا السياق:

«...فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ مُحَمَّدٌ، قِيلَ:

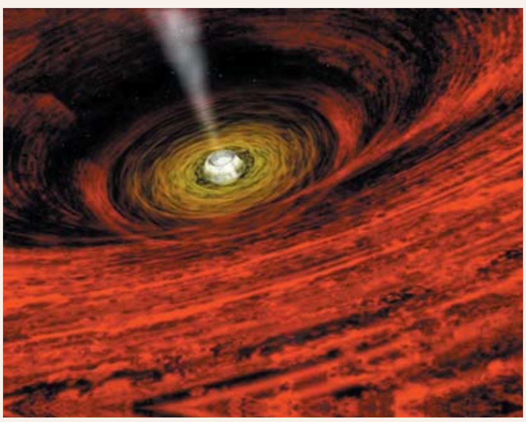
وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قِيلَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ

جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا

بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ،» (البخاري، بدء الخلق، ٦؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٩ -٢٦٤)

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم، ٥٦)

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء، ٨٥-٨٦)



لقد جاءت كلمات "الصلاح والصدق والصبر" مقترنةً بالأنبياء الذين سبق ذكرهم لمدح هؤلاء الأنبياء وبيان فضلهم.

و يصور مولانا جلال الدين الرومي أحوال سيدنا إدريس عليه السلام التي تشابهت مع سيدنا عيسى عليه السلام على النحو الآتي: "لقد أصبح إدريس وعيسى -عليهما السلام - نتيجة لزهدهما الزائد ومجاهداتهما، لقد صار كلّ منهما

مثل ملكين. تحولا إلى أشخاص لا يأكلون ولا يشربون تقريبًا. غالبًا أنهما قد رُفِعوا إلى السماء لكونهم من نفس جنس الملائكة..".

يريد مولانا بهذا المثال أن يقول إن سيدنا إدريس وسيدنا عيسى قد انسلخا بزهدهما ومجاهداتهما عن الخصال الجسدية، وأنهما ارتفعا إلى السماء مثل الملائكة بما أحدثه ذلك فيهما من بهاء. وهذا يرشدنا - نحن كذلك وسائر العباد الآخرين - إلى أن تزكية النفس وتصفية القلب يمكن أن يكونا الطريق الوحيدة لبلوغ المراتب السامية.

وكما كان الأنبياء فوق قمة الكمال المعنوي طوال تاريخ الإنسانية، فقد كانت لهم الريادة بين حين وآخر في الكمال المادي كذلك. فقد برع سيدنا آدم في حرفة الزراعة، أما سيدنا إدريس فقد اتخذ الحياكة حرفةً له وأصبح حاذقًا فيها.

وبفضل جهود سيدنا إدريس تطورت الكتابة في عصره، وهي التي بدأت مع أول إنسان على الأرض. يضاف إلى هذا أنه هو أيضًا من أنار الطريق للإنسانية بما حاز من معلومات أولية وأساسية في علمي الفيزياء والكيمياء اليوم.

لقد كان سيدنا إدريس نبيًّا نُزِّلت عليه الصحف، ومدح الله سبحانه وتعالى إخلاصه وصدقه وفضله في القرآن الكريم، ورُفع -وهو مازال في الدنيا- مكانًا عليًا، وصار بصبره نموذجًا ومثلاً يُحتذي لقومه وللأجيال القادمه بعده، ولكونه عبدًا صالحًا، استحق الرحمة الإلهية.



نوح عليه السلام

من أولي العزم من الرسل . ذُكر اسمه في القرآن الكريم ٤٣ مرة. وقد اُخبر أن اسمه الأصلي هو يشكُر أو ساكن أو عبد الغفار. أما لقبه، فهو "نَجِيُّ الله" و"شيخ الأنبياء". عاش سيدنا نوح قرابة ألف عام.

لقد حاد الناس بعد إدريس عليه السلام عن طريق الحق وبدؤا في عبادة الأصنام والأوثان. غير أن وَدًّا وسُوَاعًا ويَغوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا - وهم ممن اتبعوا سيدنا إدريس - عاشوا وبلّغوا شريعته. ولما توفي آخر أصحاب إدريس عليه السلام الأوفياء، قام من تلاهم من الأجيال بتشجيع من المنافقين ببناء تماثيل لأصحاب إدريس عليه السلام بحجة أن يظلوا متذكرين إياهم. فأضفوا قدراتٍ إلهيةً على هذه الهياكل وصاروا لها عابدين. وكان لكل قبيلة صنمها الخاص الذي تعبده، ولكل صنم خُدَّامه.

وكان هناك رجل ظالم على رأس القبيلة التي يعيش بها نوح عليه السلام نواحي الكوفةِ يقال له درمشيل ينحدر نسبه إلى قابيل. وكانت هناك طائفة لا زالت متمسكة بعقيدة التوحيد بعيدة عن عبادة الأصنام بين قوم يعبد أغلبهم هذه الأوثان. وكان سيدنا نوح عليه السلام من هذه الطائفة. عمل سيدنا نوح بالرعي لتأمين معيشته، كما عمل بعض الوقت بالتجارة أيضًا.



و كان سيدنا نوح ﷺ يسخر من عبادة الناس للأصنام. وكان يحزنه لأبعد الحدود حالة الفجور والوثنية التي سقطوا فيها. ولما بُعث نبيًّا لم يؤمن به من قومه إلا عددٌ قليل للغاية، ومن أبنائه سوى سام وحام ويافث. أما ابنه كنعان فكان من الكافرين به.

لقد تعرض سيدنا نوح ﷺ طيلة فترة نبوته للامتهان والعذاب. فصبر على أفعالهم ٩٥٠ سنةً وتحمل بأمل. ولما تلاشى أمله هذا، ولكنه لم يعد لديه طاقة على تحمل أذاهم؛

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (القمر، ١٠)

" فتضرع قائلاً: (يا رب) أني قد غُلبت؛ فمُدَّ لي يد العون! "

فاستجاب الله جل جلاله لدعاء نوح ﷺ وأمره بصنع سفينة؛ فصنع نوح ﷺ سفينة مكونة من ثلاثة طوابق، وركب معه السفينة ثمانون مؤمنًا، وركب معه كذلك من كل نوع من الحيوانات زوجان اثنان، وامتلأت الأرض بالمياه التي تفجرت منها وبمياه الأمطار التي هطلت من السماء. وسارت السفينة فوق الماء مدة ستة أشهر. ولما جاء أمر الله انسحب الماء واستقرت السفينة فوق جبل الجودي.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي...﴾ (هود، ٤٤)

ويُرْوَى أن ذرية نوح ﷺ قد كثر عددها وانتشرت في الأرض فجاء العرب والفرس من ابنه سام، وجاء الهنود والحبش وشعوب أفريقيا من حام. أما أهل آسيا وأهل أمريكا المحليون - الذين يُخَمَّن أنهم عبروا من مضيق بيرنج Bering - فجاءوا من نسل يافث.

وصف قوم نوح ﷺ

١ - اتخذوا الأصنام آلهة.

لقد تحولت الهياكل التي بنيت في الأساس لإظهار الاحترام لأصحابها وتخليد ذكراهم، إلى أصنام عكفوا على عبادتها. لم يؤدِّ الاعتقاد بالوثنية على مر التاريخ إلا إلى إبعاد الناس عن الطريق القويم والزج بهم إلى الضلال. وقوم نوح - هم أيضًا - قالوا:

﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (نوح، ٢٣)

و قد أخذ وَدٌّ شكلَ رجلٍ وسُوَاعٌ شكلَ امرأةٍ ويَغوثُ شكلَ أسدٍ ويَعُوقُ شكلَ حصانٍ ونَسْرٌ شكلَ نَسْرٍ.

(ألمه ليلي، حمدي يازير، ٨/ ٥٣٧٨)

توجه الأديان التي تدعو إلى عقيدة التوحيد، إلى الابتعاد عن التصور الشكلي للخالق وإدراك ما هو مجرد. وتعمل على حث الناس على إدراك الحقائق المعنوية الروحية الكائنة خلف المادة. بيد أن ذهن الإنسان يميل

بطبعه إلى إدراك الخالق في صورة جسم له شكل. ويُنشِّط الإنسان ذلك في ذهنه داخل الأبعاد التي يمكنه هو بنفسه إدراكها، أو يقوم بعمل مشابهة بين ذلك وبعض الموجودات التي يعتقد في داخله أنها قدرة إلهيه. وهذا التفكير الذي هو نوع من أنواع الشرك ينقل الإنسان إلى الوثنية كذلك.

لهذا السبب حرَّم الإسلامُ صنعَ التماثيل والصور؛ حتى يبعد ذهن الإنسان عن تصور شكل مادي لله. لأن من صفات الله جل جلاله وجَماله "مخالفة الحوادث" أي أن الله جل جلاله لا يمكن أن يشبه أي مخلوق. فهو غير كل بُعد أو شكل أو تصور يتصوره الإنسان.

و قد تحدث في هذا الخصوص الشيخ شبلي على هذا النحو:

"في اللحظة التي تدركونه بفكركم، وتظنون أنكم فهمتم تمامًا، فإن هذه الأفكار سرعان ما تُرد عليكم. لأن هذا النوع من الأفكار، هو معادل لأشياء أنتم من صنعها داخل أذهانكم، أشياء مُحدثة مثلكم تمامًا..".

يوضح الشيخ شبلي هنا ضرورة التفريق بشكل قاطع بين ما هو مُحدث وما هو قديم. ويقول إنه لا يوجد طريق آخر أمام الإنسان لمعرفة خالقة غير الأوصاف والأساليب التي ذكرها الله - جل جلاله - عن ذلك. خلافًا لذلك، فالاجتهاد في تشخيص الخالق ووضع تصور له سيجر الإنسان بكل تأكيد إلى نتائج محزنة ووضيعة.

أما في يومنا الحاضر فهناك أمر آخر له خطره في إيقاع الإنسان في الشرك. وهذا الأمر هو الدعاء والتضرع الذي يقوم به أشخاص على شواهد قبور أناس يُظن أنهم وصلوا إلى درجات عليا في معية الله.

إن ما يطلبه هؤلاء في تلك الأدعية، يجب ألا يُطلب إلا من الله. لأن طلب العبد لشيء من عبد آخر بهذا المعنى، سيجر هذا الشخص إلى الشرك. وقد وقع قوم نوح عليه السلام أيضًا في الخطأ نفسه.

٢- تمادَوا في الظلم والبغي:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ (النجم، ٥٢)

٣- لم يتورعوا عن ارتكاب أي معصية:

﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الذاريات، ٤٦)

٤- أتوا على كل خصال الخير لديهم، واتخذوا السوء شعارًا لهم:

﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ...﴾ (الأنبياء، ٧٧)

٥- نزلوا بأنفسهم بما اقترفوه من انحراف، وعَمِيَ عندهم الحِسُّ الوجداني:

﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ (الأعراف، ٦٤) أي عموا عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون إليه.

سنوات التبليغ الطويلة

جاء جبريل نوحًا -عليهما السلام- وهو في سن الخمسين وأخبره بنبأ النبوة. وقال له "اذهب إلى درمسيل وقومه، وبلِّغهم عقيدة التوحيد!..".

فأعطاه سيدنا نوح ﷺ موثقًا بأنه سيظل مبلغًا لعقيدة التوحيد حتى ينتهي عمره. وقد ذُكر هذا الأمر في آيات مختلفة في القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب، ٧)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَن لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

(هود، ٢٥ -٢٦)

عمل نوح ﷺ على الدعوة سرًّا في بادئ الأمر، بعد ذلك جاهر بها. وعلى الرغم من أنه حاز حب الجميع في فترة شبابه، فإنه لم يؤمن به بعد توليه مهمة تبليغ الأوامر الإلهية سوى عدد قليل للغاية من قومه.

و لما وصل وبلغ إلى علم درمسيل ملك القوم خبر تبليغ نوح ﷺ لرسالة ربه، خاطب مقربيه على هذا النحو: قال: "ومن هذا أيضًا؟"

فردوا هم أيضا: " هو نوح بن لَامَك، وعلى الرغم من أنه من قومنا إلا أنه لم يكن وفيًّا لنا. فقد اُتصف برجاحة العقل في البداية، إلا أنه ما لبث أن فقد عقله. فيدعي أنه صار نبيًّا..".

و بعد فترة: درمسيل يستدعي سيدنا نوحًا بعدما علم بموقفه المعارض للأصنام. عنّف درمشيل نوحا ﷺ قائلاً: "ويحك! هل تنكر آلهتنا؟"،

وأخذ درمسيل وغير المؤمنين يسخرون من نوح لكون الفقراء هم من آمنوا به.

فكانوا يخاطبون نوحًا ﷺ قائلين:

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء، ١١١)

لقد استخف هؤلاء القوم الجاهلون الظالمون بالفقراء ومن لا يملكون شيئًا. غير أن سيدنا نوحاً ﷺ كان يدافع دائمًا عن كل من اعتنق دعوته قدر دفاعه عن دعوته نفسها. وكان يرد على منكري دعوته قائلاً:

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء، ١١٤)

﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود، ٢٩-٣٠)

ولما توفي درمشيل، جاء خلفًا له ابنه نفلين. وكان أشد من أبيه ظلمًا. واستمر نوح عليه السلام يبلغ رسالته بنفس الشكل في عهد نفلين.

وكان قومه يسخرون منه ويسبونه ويلقون فوقه التراب. ولكنه كان يصبر صبرًا عظيمًا إزاء ذلك. وتلطفا من الله -جل جلاله- كان جبريل عليه السلام يأتي بين الحين والآخر لمداواته.

وكانوا يقولون له:

وا أسفاه عليك يا نوح! ألا زلت مصرًّا على تبليغ دعوتك على الرغم مما تتعرض له من ضرب واحتقار؟!

أما نوح عليه السلام فكان ينصحهم قائلاً:

"أنا لست مجنونًا، إن آباءكم الآن في النار يُعذبون! عودوا إلى رشدكم!"

ويستمر نوح عليه السلام في حديثه معبرًا عن عدم خشيته منهم بقوله:

لو أنكم أعرضتم عن دعوتي، فلن تضروني شيئًا! فأنا لا أخشى إيذاءكم لي! إني أتوكل على الله!... لا أريد منكم أجرًا!.... وتشير الآية الكريمة إلى هذا على النحو الآتي:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء، ١٠٩-١١٠)

الحرمان من الهداية:

يمكن فيما يلي توضيح الأسباب التي من أجلها حُرِمَت بعض المجتمعات طوال فترات التاريخ من الهداية بدلاً من أن يقبلوا بعقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء:

أ) **التفلُّت والأهواء**: يعتمد كل دين حق عقيدة "الحياة الآخرة" التي يُكافأُ فيها الإنسان أو يُعاقب على ما اقترف من أعمال في الدنيا من قبيل الثواب والعقاب.

وكما يتحكم الدين في حرية الفعل لأي شيء يرغب الإنسان في القيام به، فإنه يجعل من توجيهه وتنظيمه لحياة الناس أمرًا ضروريًا.

أما المجتمعات الوثنية التي لا تؤمن بعقيدة التوحيد فقد ظلت طوال التاريخ مجتمعات يستعبد فيها الأقوياءُ الضعفاءَ ويسحقونهم وفق أهوائهم الشخصية.

وهم يعتقدون أنهم لن يدفعوا في الآخرة ثمنًا لما اقترفوه من أفعال لأن كل المنافع كانت تخص الأقوياء وحدهم في هذه المجتمعات. لهذا السبب لم يقبلوا بعقيدة الآخرة التي أتت بها الأديان الحقيقية.

وبالشكل نفسه كان أول ما أقلق عبدة الأصنام بعد ظهور الإسلام، أنه جاء بخبر وجود حياة أخروية. وبناءً على هذا أطلق المشركون على هذا النبأ اسم "النبأ العظيم". ويصور القرآن الكريم مدى ما شعروا به من قلق على هذا النحو:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (النبأ، ١-٣)

ب) **فقدان المنفعة**: رأى الوثنيون أن حياة العبادة المنضبطة المنتظمة في أي دين حق أمر شاق بالنسبة إليهم، وهم الذين استخدموا ما يعبدون لخدمة منافعهم وأهوائهم الشخصية.

ج) **الحرمان من وجود شخص يتخذون منه قدوةً لهم**: في كل دين حق يوجد ضرورة في أن يتخذ كل قوم نبيهم قدوة لهم. أما في الوثنية فلا يوجد نموذجٌ يمكن اتخاذه قدوة، ولا إجبار على هذا. ويتصرف كل شخص وفق أهوائه الخاصة.

د) **الغرور – الكبر**: كان الأقوياء والأغنياء من عبدة الأصنام يحتقرون ويستخفون بالأنبياء، الذين كانوا يعيشون حياةً بسيطةً في المجتمع، هم وأصحابهم، الذين يوافقونهم العقيدة؛ لأنهم يعتقدون أن اجتماع المؤمنين والفقراء والضعفاء معا سيُفقدهم جميعًا القيمة في المجتمع.

هـ) **التعلق بالحياة الدنيا**: أحد الأسباب التي تمنع الوثنيين من الهداية، أنهم يتعلقون بالحياة الدنيا (المال، المُلك، الولد، الخ) فتُسقطهم في الغفلة وتصبح كستار أو غشاوة تغطي بصيرتهم عن الحقيقة.

تتحدث الآية الكريمة عن ذلك على هذا النحو:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران، ١٤)

و توضح الآية رقم ٧١ في سورة يونس كيف تحدى سيدنا نوح عليه السلام قومه الوثنيين كاشفًا سوء نيتهم:

١ - أجمِعُوا أمرَكم حتى تحققوا مقصدكم!

٢ - نادوا شركاءكم!

٣ - أدوا أعمالكم بوضوح! لا تؤدوها في الخفاء ولا تملوا!

٤ - اقضوا سوءكم كله إليّ!

٥ - افعلوا على الفور ما أردتم فعله. ولا تعطوني مهلةً!

تُظهر كلمات نوح عليه السلام تلك توكله على ربه.

القوم التعساء يطلبون العذاب:

لما بدأ نوح عليه السلام يدعو الناس إلى الدين الحق، آمن به مجموعة منهم. وبعد هذا لم يؤمن به أحد ووصل حد أذى قومه له وللمؤمنين إلى المُنتهى. وتمادى قومه في جهلهم لدرجة أنهم طلبوا العذاب:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود، ٣٢)

و استمر القوم الظالمين بعد هذا الوحي في احتقار نوح وتكذيب رسالته. بل تمادوا أكثر وقالوا "فأتنا بما تعدنا من العذاب!"، فذكّرهم نوح عليه السلام مرةً أخرى بإرادة الله:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود، ٣٣-٣٤)

و كانت أولى بشائر العذاب الإلهي أن الحق جل جلاله ترك هؤلاء القوم الجامحين الذين لم يلينوا بأي شكل من الأشكال، تركهم أربعين عاما بلا مطر. فرجعوا إلى نوح عليه السلام وقد نفدت حيلهم. فقال لهم:

"اتركوا عبادة الأصنام، وأنا أدعو الله لأجلكم".

ودعا نوح بعدها الحق سبحانه على هذا النحو:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ (نوح، ١٠-١٢)

و استمر نوح عليه السلام ناصحًا ومحذرًا قومه على هذا النحو:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح، ١٣-١٤)

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح، ١٥-١٦)

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح، ١٧-١٨)

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح، ١٩-٢٠)

بيد أن قومه المعاندين الوثنيين لم يصغوا لحديثه:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً﴾ (نوح، ٢١)

﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ (نوح، ٢٢)

﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (نوح، ٢٣)

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً﴾ (نوح، ٢٤)

فها هو أب يخاطب ولده مشيرًا إلى نوح ﷺ:

- "انظر، لا تؤمن به!"

الابن بدوره يأخذ عصًا كانت بيد أبيه وينهال بها ضربًا على رأس نوح ﷺ. فيدعو نوح ﷺ ربه، وقد سال دمه:

"ربي! إن كنت قد قدّرت لهم خيرا، فاهدهم!.و ألهمني الصبر حتى يأتي أمرك! وأنت خير الحاكمين!.".

لكن إذا استمروا على أذيتهم وكفرهم وعنادهم فلا مجال لشيء آخر يمكن فعله.

بعد ذلك لجأ نوح إلى ربه:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (القمر، ١٠)

و كان كل جيل يوصي قبل موته مَنْ يأتي بعده ألا يؤمنوا بنوح ﷺ وأن يناصبوه العداء وأن يحاربوه. فكان الآباء ينصحون أبناءهم عندما يشبون قائلين:

- لا تؤمنوا بأي حال من الأحوال بنوح؛ ففسدت فطرة الناس تمامًا، ولم يعرفوا الإيمان والحقيقة. لهذا السبب قال نوح مخاطبًا ربه سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً.رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ (نوح، ٢٦-٢٨)

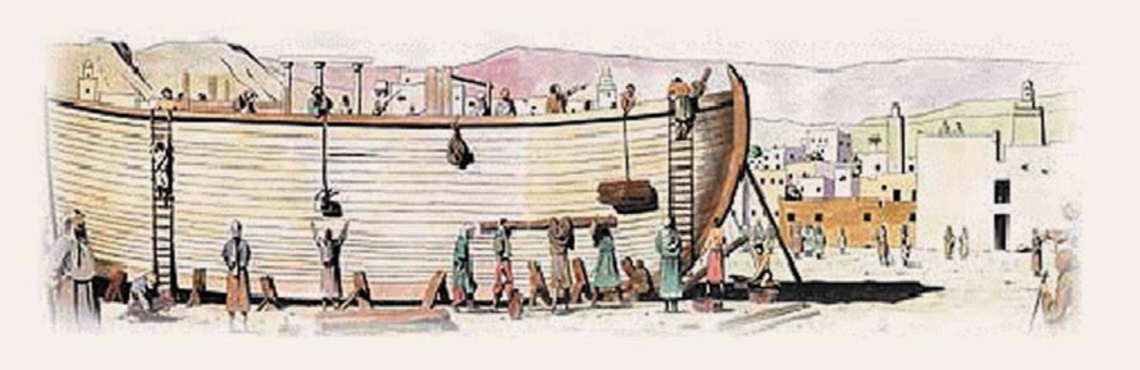
بعد مناجاة نوح ربه جاء الأمر الإلهي بشأن بناء السفينة، وأوحى الله ﷻ بعد هذا إلى نوح ﷺ يسري عنه:

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود، ٣٦-٣٧)

و بعدما شرع نوح ﷺ في بناء السفينة اخذ قومه الوثنيون يسخرون منه:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (هود، ٣٨-٣٩)

و لم يكتفوا بهذا فحسب، بل أرادوا أن يأتوا السفينة ليلاً كي يهدموها، ولما تعذر عليهم فعل هذا قالوا مخاطبين نوحاً ﷺ: "هذا من سحرك!"



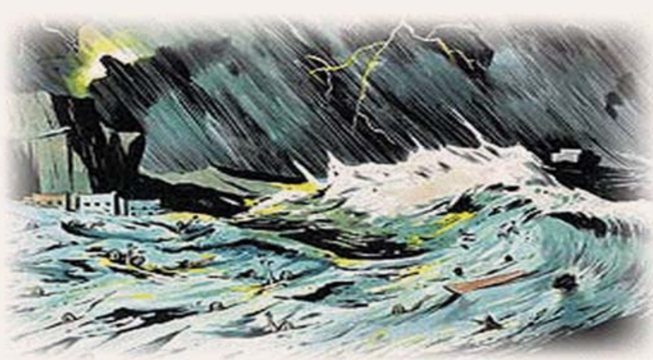
بعد هذا زادوا من عدائهم واحتقارهم، ودخلوا السفينة ولوثوها ببولهم وبرازهم مما يفسد معه الوضوء. وفي خلال فترة وجيزة انتشر بينهم مرض الجرب ولم يجدوا علاجًا له إلا أن يدهنوا وجوههم بقاذوراتهم نفسها. و على الرغم من أن هذا كان تحذيرًا من الله لهم، فإنهم لم ينتبهوا لذلك، ولم يفيقوا.

العذاب القادم (الطوفان):

صُنعت السفينة التي أقامها نوح عليه السلام والمؤمنون من الأشجار الصلبة التي تتحمل أقسى الظروف. وتذكر الروايات أن هذه السفينة كانت مكونة من ثلاثة طوابق، وأن بناءها استغرق عامين كاملين، وأنها كانت تعمل بالبخار. و قد اعتلى ظهر السفينة وفق رواية بن عباس ثمانون شخصًا. وأخذ من كل جنس من الحيوانات زوجًا واحدًا. وبعد الانتهاء من كافة الاستعدادات جاء أمر الله عز وجل.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود، ٤٠)

و التنور الواردة في الآية كلمة عربية لها معان عدة في المعجم، وهي هنا تعنى الفرن. وقد انطلق بعض العلماء من هذه النقطة قائلين إنها كانت تعمل بالبخار، وكانت مجهزة بمرجل يُغلى باستخدام النار. و لم يلق كنعان بن نوح عليه السلام بالاً لنصائح أبيه وتحذيراته، ولم يكن بين الذين ركبوا السفينة. ولم يجدِ معه نفعًا النداءُ الأخيرُ الذي وجَّهَهُ له نوح عليه السلام مع تحرك السفينة. وتصور الآية الكريمة هذا الموقف على النحو الآتي:



﴿... وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...﴾ (هود، ٤٢-٤٣)

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود، ٤٥)

لقد أخطأ نوح عليه السلام بدعائه على قومه ودعائه لابنه. فجاء تحذير إلهي له حتى لا يكون من الجاهلين:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود، ٤٦-٤٧)

و أمره الله جل جلاله ألا يدعو للكافرين:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود، ٣٧)

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون، ٢٧)

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر، ١١-١٢)

لقد أمَّنت العناية الإلهية الذين آمنوا بنوح عليه السلام والمخلوقات التي استقلت السفينة معهم، على الرغم من وجودهم بين أمواج مثل الجبال في ضخامتها. يصور الله عز وجل ذلك في قوله:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود، ٤٢)

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ. وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر، ١٤-١٦)

انحسار الماء:

وسلمت السفينة ومن عليها بسبب ذلك الدعاء الذي عُلِّم نوح عليه السلام إياه:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (المؤمنون، ٢٨-٢٩)

وتذكر الروايات أن الطوفان بدأ في شهر رجب، واستمر ستة أشهر قبل أن يأمر الله عز وجل الأرض والسماء:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي...﴾ (هود، ٤٤)



ورست السفينة في النهاية في العاشر من شهر محرم (يوم عاشوراء) فوق جبل الجودي. وبنهاية رحلة نوح عليه السلام والمؤمنين يكونون قد وصلوا إلى الخلاص:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (الشعراء، ١١٩)

بعد ذلك يذكر الحق سبحانه:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(هود، ٤٨)

﴿...وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (يونس، ٧٣)

ويبين الحق تعالى في الآية الكريمة الكارثة التي تعرض لها الظالمون في الحياة الدنيا وأن لهم في الآخرة عذابًا أليمًا:

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (نوح، ٢٥)

يوم عاشوراء:

بعد أن استقرت السفينة بسلام فوق جبل الجودي، صام نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين شكرًا لربهم، وطهوا (يعني حضّروا طبخة عاشوراء) العاشوراء مما تبقى معهم من رزق.

لهذا السبب سُنَّ التصدق وتوزيع الحلوى والصوم في اليوم العاشر من محرم الذي يقابل ذلك اليوم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم" (مسلم، الصيام، ٢٠٢)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

«كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه» (البخاري، الصوم، ٦٩، مناقب الأنصار، ٢٦، تفسير ٢/ ٢٤)

يكشف هذا الحديث عن أهمية وفضل صوم يوم عاشوراء.

يُرْوَى عن يوم عاشوراء أن فيه:

قَبِل الله ﷻ توبة آدم عليه السلام وجعله "صفيّاً لله" (أي العبد الذي اصطفاه الله)،

وفيه رفع الله إدريس مكانًا عليًّا،

وفيه أخرج الله نوحًا عليه السلام من السفينة،

وفيه أنجى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام من النار،

وفيه أنزل الله التوراة على سيدنا موسى،

وفيه نجّى الله سيدنا يوسف عليه السلام من السجن،

وفيه رد الله لسيدنا يعقوب بصره،

وفيه برأ سيدنا أيوب من مرضه بإذن الله،

وفيه نجّى الله سيدنا يونس من بطن الحوت،

وفيه شق الله البحر الأحمر لبني إسرائيل وجعلهم يعبرون بسلام،

وفيه أيضًا غفر الله لداود عليه السلام،

وفيه أعطى الله ﷻ الملك والسلطنة لسيدنا سليمان،

ويُرْوَى كذلك أنه في هذا اليوم غفر الله لسيدنا محمد ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فتزداد قيمة يوم عاشوراء وقدره بالأحداث المهمة التي وقعت فيه.

يجمع العلماء على حدوث الطوفان. وأنه غطى كل أرجاء الأرض. يذكر نيشان زاده محيي الدين محمد في كتابه "مرآة الكون" : "عندما رست السفينة أقام الأشخاص الثمانون مدينة "مدينة الثمانين". ويطلق على هذه المدينة اسم "سوق الثمانين". ولقد تحقق الانتشار الثاني للإنسانية من هؤلاء الثمانين.

وكان سام الابن الأكبر لنوح عليه السلام شخصًا ذكيًّا عاقلاً صالحًا. فصار نائبًا من بعد أبيه. وأصبح مظهرًا لدعاء أبيه له بالخير. فجاء معظم نسله أناسًا صالحين. ويغلب الظن أن الهنود والأحباش والأفارقة قد انحدروا من نسل حام بن نوح عليه السلام الثاني؛ أما الروس والسلاف والعرق التركي فقد انحدر من يافث.

غير أن الناس حادوا بمرور الوقت عن طريق الحق مرة أخرى، وانغمسوا في الشرك، فعبدوا النجوم والشمس والأصنام. يرى المفسر فخر الدين الرازي أن القصد من وراء ذكر القرآن أن نوحاً عليه السلام عاش ٩٥٠ عامًا ملأها الألم والأذى، كان بغرض الإخبار عن هذه الصفحة من حياة نوح عليه السلام والتخفيف عن رسول الله.

لأنه نوح عليه السلام تحمل وصبر مدةً طويلة على آلاف المحن والمعاناة. لهذا السبب استحق بحالته هذه أن يكون قدوة ممتازة للأمة.



زلّات نوح عليه السلام:

١- وفقًا لما تواتر من روايات فقد رأى سيدنا نوح كلبًا مريضًا جريحًا فأعرض عنه بوجهه. ولهذا السبب:

خاطبه الله وقال"يا نوح أنا من خلق الكلب; هل تعيب عليّ؟"

٢- إنه في الوقت الذي شعر فيه بالعجز أمام كفر قومه وعنادهم، نجد أنه بعد أن دعا على قومه بالشر يلجأ إلى الله ويدعوه كي يُنجي ولده. لهذا السبب حذره الله جل جلاله "ألا يكون من الجاهلين".

و بسبب زلات نوح عليه السلام انخرط في بكاء مرير، ولكثرة ما سكب من دموع أُطلق عليه اسم نوح الذي يتواءم مع هذا المعنى (فالاسم "نوح" مأخوذ من معنى البكاء والحزن، وفي لسان العرب: النَّوْحُ: مصدر ناحَ يَنُوحُ نَوْحاً).

لهذا السبب يجب على الإنسان أن يعتني ويُظهر الشفقة والرحمة تجاه كافة المخلوقات تقديسًا لخالقها.

الأسباب الرئيسة لهلاك قوم نوح:

١- كانوا يعبدون الأصنام ويحضُّون الناس على عبادتها.

٢- فئة قليلة من القوم هي التي آمنت. أما البقية فظلوا على إنكارهم وكفرهم.

٣- كانوا ينكرون وجود حياة بعد الموت والقيام للحساب.

٤- احتقارهم وحطهم من قدر نوح عليه السلام ومن آمن به، وكانوا يطلقون عليهم اسم "الأراذِل"؛ ليس لسبب غير أنهم كانوا فقراء وينتمون للطبقة السفلى من الناس.

٥- على الرغم من أنَّ نوحاً عليه السلام كان موضع ثقة لديهم، فإنهم كذّبوه بعدما بُعث نبيًّا. بل تمادوا أكثر من هذا فآذوه وظلموه.

٦- انغمسوا بشكل كبير في ملذات الدنيا، ولم يشكروا الله على نعمائه الكثيرة عليهم.

٧- لم يكن لدى نساء هذا المجتمع مكان للأدب والعفة والحياء.

كل هذه أسباب أدت إلى هلاك قوم نوح الذين كذّبوا النبي الذي أرسله الله، ولم يتراجعوا عن الشرك متمادين في الكفر.

شكر نوح عليه السلام:

يذكّرنا الله عز وجل بأن نوحاً عليه السلام لم يصبح قدوة للإنسانية إلا لأنه كان عبدًا شكورًا، ويذكرنا كذلك بضرورة أن نشكر الله نحن أيضًا على نعمائه التي أنعم علينا:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء، ٣)

و بالطريقة نفسها يروي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"خصلتان من كانتا فيه كتبه اللَّه شاكرا صابرا ومن لم تكونا فيه لم يكتبه اللَّه شاكرا ولا صابرا من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد اللَّه على ما فضله به عليه كتبه اللَّه شاكرا صابرا ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه اللَّه شاكرا ولا صابراً" (الترمذي، القيامة، ٥٨)

﴿ ...لئن شكرتم لأزيدنكم...﴾ (إبراهيم ، ٧)

لقد كان نوح عليه السلام يحمد الحق تعالى دائمًا في كل حركة له، حتى وهو يأكل ويشرب ويرتدي ملابسه؛ فيسمي الله وهو يرتدي ملبسه وهو يأكل، وعندما ينتهي من طعامه أو يخلع ملابسه كان يقول "الحمد لله"؛ لأن الشكر سلوك يظهره العبد وكلمة يقولها لربه شاعرًا بالسعادة أمام ما أنعم الله به على هذا العبد من خير ونعم.

يقول السري السقطي - وهو من تلاميذ الشيخ معروف الكرخي البغدادي-:

((من يؤتى نعمة ولم يؤدِ شكرها، زالت هذه النعمة من يده!))

و يقول الحق تعالى في الآية الكريمة:

﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم، ٧)

الصفات المُميزة لنوح عليه السلام:

١- على الرغم من أن نوح عليه السلام عاش بين قوم وثنيين، وعلى الرغم من أنه لم يؤمن به إلا عدد قليل منهم، فإنه لم ينقطع عن خدمة قومه.

٢- صبر نوح عليه السلام ٩٥٠ سنةً أمام قومه الذين آذوه كل أنواع الإيذاء، وكان نبيًّا شكورًا في كل حال من أحواله.

٣- كان نوح عليه السلام دائم الاستغفار، ودائمًا ما كان يتراجع عن ذنبه.

٤- تطور استخدام الناس للبحار واستغلالها اعتبارًا من عصر نوح عليه السلام.

توفي هذا النبي عالي المقام في السنة التي انتهى فيها الطوفان، وبسبب مما تعرض له تحت ظلمة الكفر والشرك والظلم، فإنه صار - بتحمله مدة ٩٥٠ سنةً - نموذجًا يُحتذى للأنبياء والأمم التالية له، وكان الصبر هو أجمل ميراث تركه لنا نوحٌ عليه السلام الذي مدحه الله.

عليه السلام...

أسئلة للتقييم

أ- أجب عن الأسئلة الآتية

١- بشأن أي شيء امتدح الله ﷻ إدريس عليه السلام في القرآن الكريم؟

٢- ما اسم القوم الذين عاش إدريس عليه السلام بينهم، وما السمات المميزة لهم؟

٣- أعطِ مثالاً للكلمات التي قالها إدريس عليه السلام لقومه ناصحًا إياهم؟

٤- إلامَ يشير قولنا إن إدريس عليه السلام رغم كونه نبيًّا؛ اتخذ الزهد والمجاهدة طريقًا لتصفية قلبه وتزكية نفسه؟

٥- قارن بين سلوك قوم نوح عليه السلام معه قبل وبعد أن صار نبيًّا؟

٦- كيف تفسر وجود علاقة بين منع سيدنا رسول الله ﷺ زيارة القبور فترة وترسيخ عقيدة التوحيد في المجتمع؟

٧- كيف أثرت مسألة أن أكثر من آمن بالأنبياء طوال فترات التاريخ كانوا من الفقراء والغرباء ومن ينتمون إلى الطبقات الدنيا، في الآخرين؟

٨- لماذا جاء تشبيه خلق الإنسان بالنبات في الآية الكريمة ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (نوح، ١٧)؟

٩- بماذا تفسر أنه على الرغم مما بذله نوح عليه السلام من جهود، فإنه تضرع إلى الله قائلاً "**رب أني مغلوب فانتصر**" عندما لم يقبل قومه بعقيدة التوحيد؟

١٠- ما زلَّة نوح عليه السلام؟ وما الضعف الذي أدى إليها؟

١١- ما الأسباب التي أدت إلى هلاك قوم نوح عليه السلام؟

ب- أكمل مكان النقاط فيما يلي

١ - آمن بإدريس عليه السلام من قومه حوالي .... شخصًا.

٢- نزل الوحي على إدريس بعدد .... صحيفة.

٣- رفع الحق تعالى إدريس عليه السلام إلى .... حتى نهاية عمره.

٤- كان لقب إدريس عليه السلام "نجي الله". يُعنى بهذا اللقب ....

٥- لا مكان في عقيدة .... للتشخيص الشكلي لذات الله عز وجل.

٦- أراد قوم نوح عليه السلام الغاضبين أن يحرقوا السفينة ليلاً. فلما لم يتمكنوا من ذلك قالوا له: ....

ج- ضع إشارةً على الإجابات الصحيحة للأسئلة الآتية

١ - أَيٌّ من النقاط الآتية لم يكن سببًا في هلاك قوم إدريس عليه السلام؟

أ - فساد قوم إدريس عليه السلام من النواحي الدنيوية والأخروية.

ب- استحلوا المحرمات، ومن ثم فعلوها.

ج- عذّبوا إدريس عليه السلام.

د- استبدوا في ظلمهم.

٢- أي من النقاط الآتية ليس من صفات سيدنا إدريس عليه السلام المذكورة في القرآن الكريم؟

أ- صدقه وصلاحه. ب- تعبده ليل نهار.

ج- كونه عبدًا صالحًا. د- كونه رُفع مكانا عاليًا في السماء.

٣ - ما هو السبب وراء وثنية قوم نوح عليه السلام؟

أ - أنهم قاموا ببناء تماثيل للمؤمنين الذين كانوا يتبعون إدريس عليه السلام بعد موتهم.

ب- أنهم كانوا يعبدون الأصنام منذ آدم عليه السلام.

ج- كون حرفة نحت التماثيل والتصوير منتشرة آنذاك.

د- لأنه لم يُرسل إلى القوم من قبل رسول يعرّفهم بدين التوحيد.

٤ - أَيٌّ من النقاط الآتية ليست من سمات عقيدة التوحيد؟

أ - أنه يوجد إله واحد مجرد.

ب- لا يُضيّق من قدرة الناس على التصور والتخيل في موضوع القوالب الشكلية.

ج- "الإله" لا يُشبه أيّاً من خلقه.

د- تشخيص ذات الله ﷻ لتسهيل الفهم.

٥- أنكرت الغالبية العظمى من الأقوام على مر التاريخ النظم العقائدية التي أتى بها الأنبياء. أيُّ من النقاط الآتية ليس من أسباب هذا الإنكار؟

أ- خشيتهم من اختلال نظام العبودية والإستغلال الذي أقاموه.

ب- كان من اليسير عليهم حض الجهلة من الناس على اتخاذ الأصنام، التي تُرى بالعين وتُلمس باليد، آلهة.

ج- شعروا بالقلق من عقيدة الآخرة التي بمقتضاها سيُحاسبون على ما اقترفوا في الدنيا.

د- في الوقت الذي استغلوا فيه الأصنام من أجل منفعتهم الخاصة، وجدوا أنهم لن يستطيعوا فعل ذلك في كنف الدين الحق، كما استصعبوا المداومة على العبادة.

٦- أي من صفات قوم نوح عليه السلام التي ذُكرت في القرآن الكريم بخصوص هذا الموضوع كانت أكثر جذبًا للإنتباه ؟

أ- أنهم قوم لم يستمعوا لأي نبي.

ب- تماديهم في الظلم وارتكاب المعاصي واتخاذهم المعصية لهم شعارًا.

ج- اغترارهم بثرائهم الواسع وحياة الرفاهية التي كانوا يعيشونها.

د- لأن أعمارهم كانت مديدة.

٧- أي مما يأتي لا يمكننا قوله في حق قوم نوح عليه السلام؟

أ- فقدت نساؤهم العفة والأدب والحياء.

ب- أن الله أنعم عليهم بنعم كثيرة.

ج- أنهم احتقروا وحطوا من شأن المؤمنين الذين آمنوا بالله وأنبيائه.

د- أنهم لم يثقوا ولم يحترموا نوحًا عليه السلام قبل أن يصير نبيًّا.

٨ - أي معنى مما يأتي يمكن فهمه من دعاء نوح عليه السلام "أني مغلوب فانتصر"

أ- أنه غُلب أمام نفسه عندما لم يستطع تحمل ما تعرض له من إيذاء.

ب- أنه غُلب أمام قومه بعد ما فعلوه من إيذاء له.

ج- على الرغم مما بذله من جهد لسنوات في الدعوة لعقيدة التوحيد، فلم يؤمن به قومه فغُلب أمام عنادهم.

د- غُلب لأنه شعر بالعجز بسبب عجزه عن أداء مهمته كنبي.

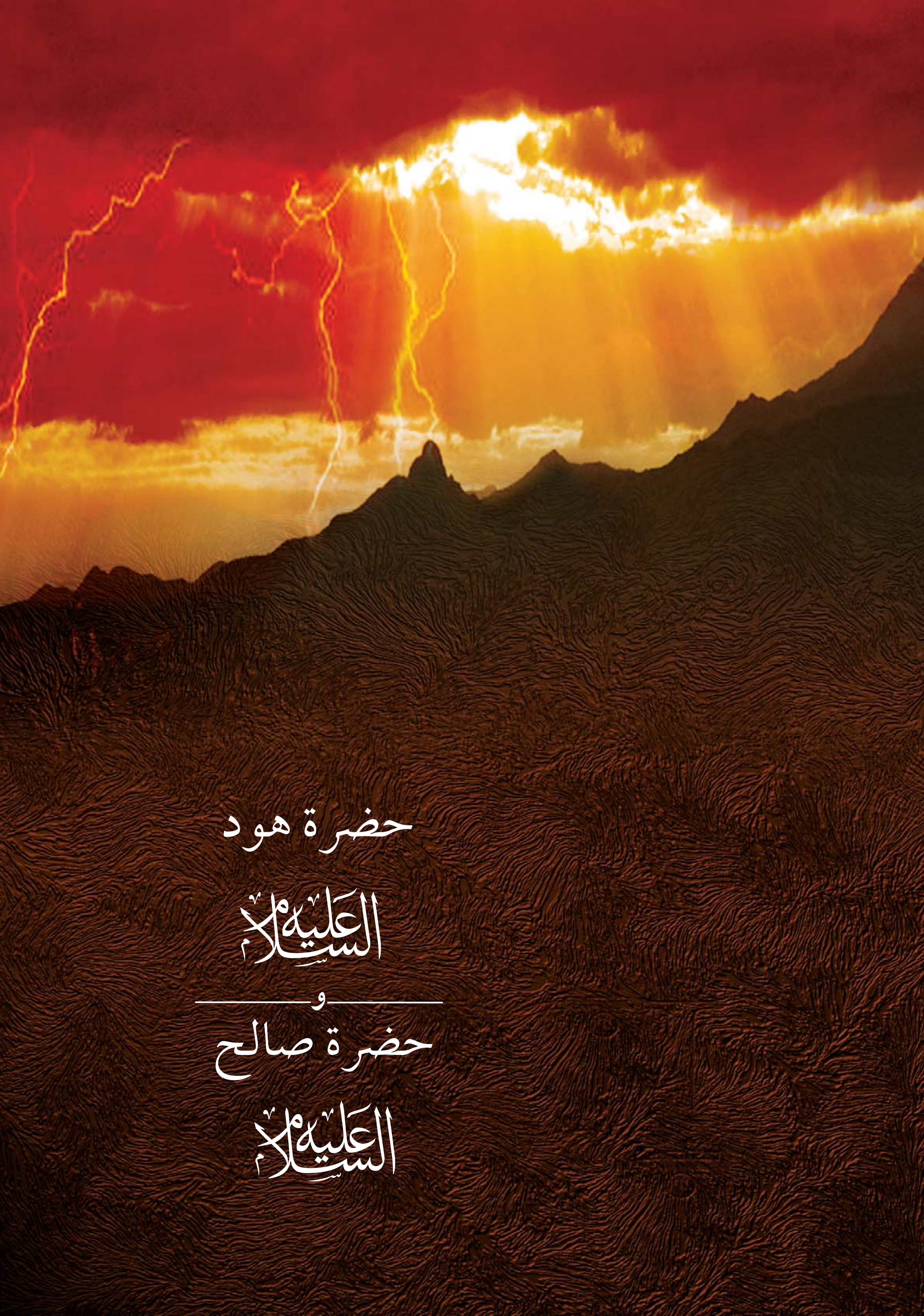
٩ - أي من الحوادث الآتية ليست معجزة تتعلق بسيدنا نوح عليه السلام؟

أ - أن السفينة كانت تحتوي على تقنيات عالية بالنظر إلى ظروف ذلك العصر، فكانت تعمل بالبخار وضخمة للغاية وذات قدرة على المقاومة.

ب - أن عبدة الأوثان من قوم نوح عليه السلام أرادوا حرق السفينة ليلاً ولكنهم لم ينجحوا في ذلك.

ج - أن الله عز وجل أحدث زلزالاً كبيرًا قبل حدوث الطوفان مباشرةً كتحذير أخير لهؤلاء القوم.

د - إصابة المجرمين الذين لوثوا السفينة بداء الجرب، وحاجتهم للعلاج.



حضرة هود عليه السلام

و

حضرة صالح عليه السلام

نبي قوم عاد الذين سوت الريح العاتية بدارهم الأرض

حضرة سيدنا هود

عليه السلام

و

نبي قوم ثمود الذين اهتزت ديارهم الفارهه بالزلازل

حضرة سيدنا صالح

عليه السلام

هود عليه السلام:

من أحفاد سام بن نوح عليه السلام. له اسم آخر هو "عابر" Abir. ولد وكبُر في أرض الأحقاف. وكلمة هود مشتقة من الكلمة العربية "هوادة" وهي تعني من يصير وسيلة للين والسكينة والصلح والسكون.

أُرسل هود عليه السلام إلى قوم عاد. وتقع منطقة الأحقاف - التي عاش فيها قوم عاد، والتي أصبحت بما تعرضت له من هلاك عبرة للإنسانية جمعاء - بين اليمن وعدن وعُمان.

قوم عاد:

يتكون قوم عاد من ثلاث وعشرين قبيلة، وهم من القبائل العربية. وقد استمدوا اسمهم من اسم عاد حفيد سيدنا نوح. وقد عاشوا بعد سيدنا نوح قرابة ٨٠٠ عام.

ومع الوقت أصاب الغرور والتفاخر هؤلاء القوم الذين أنعم الله عليهم بنعم وفيرة. واغتروا بما رأوه من كثرة النعم عندهم. فانغمسوا في الدنيا. وأبعدهم انتشار الفتنة والفساد بينهم عن دينهم. ولم يتفكروا في رعب الطوفان الذي ألم بأجدادهم والحكمة منه ولم يعتبروا بما حدث؛ فأنزل الله في شأنهم هذه الآية:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت، ١٥)

لقد ابتعدوا عن طريق الإستقامة الإلهي، لدرجة أنهم اتخذوا لهم آلهة أطلقوا عليها أسماء صمد وصمود وصدا وهبة وعبدوها. اهتم قوم عاد بشكل كبير للغاية بالرفاهية والمظاهر، وبدؤا يسحقون العجزة؛ فأصبحوا ظلمة غدّارين. وتمادوا في ظلمهم وانحطاطهم لدرجة أنهم كانوا يغيرون على القبائل الضعيفة وينهبون أموالهم. وكانوا يقومون – على سبيل التسلية والمرح – بأخذ البؤساء إلى أعالي المباني، ثم يلقون بهم من هناك. ثم يقومون بمشاهدة أجسادهم وقد تمزقت، وهو الأمر الذي كان يستهويهم. أي أن قلوبهم أصبحت قاسية، ووصلوا بظلمهم إلى مالا يمكن أن يتصوره عقل.

و لم يكن يربط هودًا عليه السلام بهؤلاء القوم إلا صلة القرابة. أما أسلوب معيشتهم فلم يكن له أي علاقة به؛ فقد كان ابنا لعائلة طاهرة نبيلة. و لما استشرى قوم عاد في عصيانهم، وتمادوا يوماً بعد يوم في أعمالهم القبيحةِ، اصطفى الحق تعالى هودًا من بينهم نبيًّا.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود، ٥٠)



فتوجه هود عليه السلام بعد نزول الوحي إلى المكان الذي يتجمعون فيه. وهناك كان يجلس ملكهم ويدعى خالجان على عرش مصُنوع من الذهب، وبدأ هود عليه السلام حديثه معه بصوت قوي قائلاً:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف، ٦٥)

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود، ٥٣)

فاحتقر خالجان وقوم عاد هوداً عليه السلام مُغترين بأولادهم وأموالهم، ولم يؤمنوا به. وقالوا:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود، ٥٤)

فردَّ عليهم هود عليه السلام وقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف، ٦٧)

تحذير إلهي مليء بالعبر:

حزن هود كثيرًا لعصيان قومه وعنادهم لما دعاهم إلى الطريق الحق، ورفع يديه على إثر ذلك إلى السماء ولجأ إلى الله؛ ونتيجة لهذا أراهم الله تحذيرًا إلهيًا بأن عقرت نساء قوم عاد، واستمر هذا الحال عشر سنوات. فجاءوا مرغمين إلى هود عليه السلام ولكنهم كانوا لا زالوا على غفلتهم، وقالوا لهود عليه السلام على الرغم من المعجزة التي شهدوها: -"أرنا آية!"

بل تمادوا لما هو أكبر فطلبوا العذاب بتوبيخ واستهزاء:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأحقاف، ٢٢)

فجفت العيون على إثر هذا، واصفرت الحدائق والبساتين، واختفت حدائق إرم الجميلة تلك، وتبدّل حالهم فأصبح ضخام الجثة هؤلاء محتاجين للقمة خبز.

فجمعهم هود عليه السلام مرة أخرى. وأسدى إليهم النصيحة مجددًا وقال لهم: "اطلبوا من الله أن يغفر لكم" وحذَّرهم عقب ذلك بشكل صريح حتى لا يعاندوا في كفرهم:

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[1]﴾ (هود، ٥٤-٥٦)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (هود، ٥٧)

١ أي إن حكم الله تعالى وتصرفاته هي صحيحة تماماً. فهو منزه عن الظلم و الخطأ.

ولم يكن هذا التهديد ليكفيهم. فعلى الرغم مما يعانونه من مجاعة وأزمات، فإنهم لم يتحولوا إلى عقيدة التوحيد. لأن ثراءهم الفاحش كان يبعدهم كثيرًا عن الله ﷻ.

ولو أنهم اتبعوا الأنبياء، ما ارتكبوا المحرمات التي كانوا يستلذون بها، ولا استطاعوا أن يظلموا المظلوم، ولا أن يسحقوا الضعفاء. لأن عقيدة التوحيد التي هي دين الحق، كانت تضع مجموعة من القيود. فلم يرغب هؤلاء القوم، الذين عاشوا في رفاهية مفرطة، في الخضوع لقيود، وفضلوا أن يعيشوا في غفلة عن الحقيقة وأن يعيشوا في راحة نفسية.

الإعصار الذي جعل عاليها سافلها:

لم يمر وقت طويل حتى بدأت السحب تتكاثر في السماء. فلما رأى قوم عاد السحب وقد غطت السماء شعروا بالسعادة، وقالوا: " جاء المطر!" غير أنها كانت سحب العذاب؛ فحذرهم سيدنا هود للمرة الأخيرة حتى ينجوا من العذاب قائلاً: - "تعالوا إلى لإيمان!".



غير أنهم لم يكون قد استيقظوا من هذه الغفلة العميقة، وقالوا:-" لا! إنها السحب التي تسبق مجيء الأمطار!"

وبالتالي تصرفوا أمام التحذير الإلهي مثل الأعمى الأصم؛ فقام الملائكة المكلفون بالمهمة بمحاصرة القوم كلهم بالسحب التي تكاثرت في السماء، واشتدت الريح صبيحة يوم الأربعاء، وكانت العاصفة قوية لدرجة أنها كانت تقتلع الأشجار من جذورها، وأخذت شدتها ودرجة برودتها تزداد بالتدريج.

و بدأ الناس يتطايرون في الهواء مثل الجراد؛ فقاموا بربط ذيول ثيابهم بعضها ببعض وكونوا حلقةً حتى لا يطيروا، ولكن هذا أيضًا لم يفلح. ولما رأى بعض الناس أن الجمال وحتى ضخام الجثة من الرجال قد بدؤا جميعا في التطاير، فروا إلى ديارهم. ولكن المصير نفسه كان ينتظرهم هناك؛ فكانت الريح العاتية تنثرهم وترمي بهم من داخل بيوتهم مثل القش.

لقد أمر الله ﷻ الريح؛ فكدّست فوق رءوسهم تِلالاً من الرمال. استمر هذا سبع ليال وثمانية أيام. وفي الوقت الذي هبت فيه هذه الريح كان هود عليه السلام ومن معه من الموحدين، قد نجوا بعناية الله ورحمته من هذا العذاب الإلهي.

و تشير الآيات الكريمة إلى ذلك:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (هود، ٥٨)

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود، ٥٩)

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود، ٦٠)

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (فصلت، ١٦)

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (الذاريات، ٤١-٤٢)

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة، ٧)

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة، ٨)

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر، ٢١)

ويفسر علماء التفسير قوله "نجَّينا ... برحمة منا" على النحو الآتي:

أن الله جل جلاله قد نجَّى هودًا عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين وحافظ عليهم بما تقتضيه الرحمة.

ولما هلك قوم عاد، جاء هودٌ عليه السلام ومن معه من المؤمنين إلى مكة وظل هناك حتى وافته المنية.

معجزات سيدنا هود عليه السلام:

١ - كان يُحوِّل الريح إلى الجهة التي يريدها بإذن الله. فلما طلب منه قومه أن يريهم معجزة سألهم قائلاً:

- "أي معجزة؟". فطلبوا منه أن يُحوّل الرياح إلى الجهة التي يريدونها. فحوَّل سيدنا هود الرياح صوب الجهة التي أرادوها.

إنها لعبرة، فقد رأى قوم عاد معجزة هود عليه السلام هذه، وعندما لم يؤمنوا جاء هلاكهم بالريح، وهي الريح التي أُطلق عليها باللفظ القرآني "ريح صرصر"؛ أي ريح شديدة عاتية.

٢ - أنه كان يُحَوّل الصوف إلى حرير (غزل حريري ملتو).

٣ - كان يتعذر السفر في المطر الشديد؛ فدعا هود عليه السلام الله، فصارت الطرق ملاجئ من المطر؛ وبذلك كان الناس يلجؤن إلى الطرق ليحتموا بها حتى ينتهي المطر. وعندما ينتهي المطر كانوا يستأنفون طرقهم.

فيما يلي بعض الدروس والعبر المأخوذة من قصة هود عليه السلام:

كان سيدنا هود رجلاً وقورًا سار بإخلاص على طريق الله. وكان لا يتكلم حتى يحسب كلامه ويزنه. كان يعامل من يرتكب الإثم بلين، ولا يقابل الإساءة بإساءة.

وفي الوقت الذي كان قومه يتهمونه فيه بالغباء، اكتفى هو بالقول إنه ليس غبيًّا وإنه رسول أُرسل من قِبَل الله كي ينذرهم، وذكّرهم بنعمة الله عليهم وأنه يجب - حتى يؤدوا شكر هذه النعم - أن ينصاعوا لأوامر الله، وأنه في المقابل لا يريد منهم أجرًا. سلام الله عليه..آمين.

صالح عليه السلام:

من الجيل التاسع عشر لآدم عليه السلام. وصالح عليه السلام هو النبي الذي أُرسل إلى قوم ثمود.

قوم ثمود:

استمد قوم ثمود اسمهم من ثمود، وهو من نسل سام بن نوح. استقر ثمود ومن معه في منطقة الحِجر الواقعة بين الشام والحجاز، ثم انتقلوا بعد ذلك واستوطنوا منطقة قوم عاد. تزايد نسل ثمود وتحولوا إلى قبيلة، وتوسعوا بمرور الوقت وصاروا قومًا. وقد أُطلق عليهم اسم "عاد الثانية".

وقد أنعم الله على قوم ثمود بالنعم التي منحها قوم عاد. غير أنهم سقطوا أيضًا مثل قوم عاد في الغفلة والضلالة، ولم يأخذوا العبرة من قوم عاد.

وبسبب ما هم عليه من انحلال لم يروا أن الذي حل بقوم عاد هلاكٌ وعذابٌ إلهيٌّ، بل قالوا وهم في غفلتهم: -لقد صنعوا بيوتهم فوق الرمال، لم يبنوها بشكل سليم؛ لهذا هلكوا. أما نحن فقد صنعنا بيوتنا فوق صخور قوية؛ ولن يصيبنا أي ضرر من الريح.

كان قوم ثمود قومًا أشدّاء مثل قوم عاد تمامًا، وكانت لهم حضارة متطورة.

و كان أكثر شيء برعوا فيه أنهم كانوا ينحتون الجبال ليبنوا فيها البيوت والقصور، وكانوا يثقبون الجبال الضخمة والصخور العملاقة ويشكلونها. وبسبب مهارة حرفييهم كانت الحجارة تدخل من بين يديهم في تشكيل أي شكل كان.

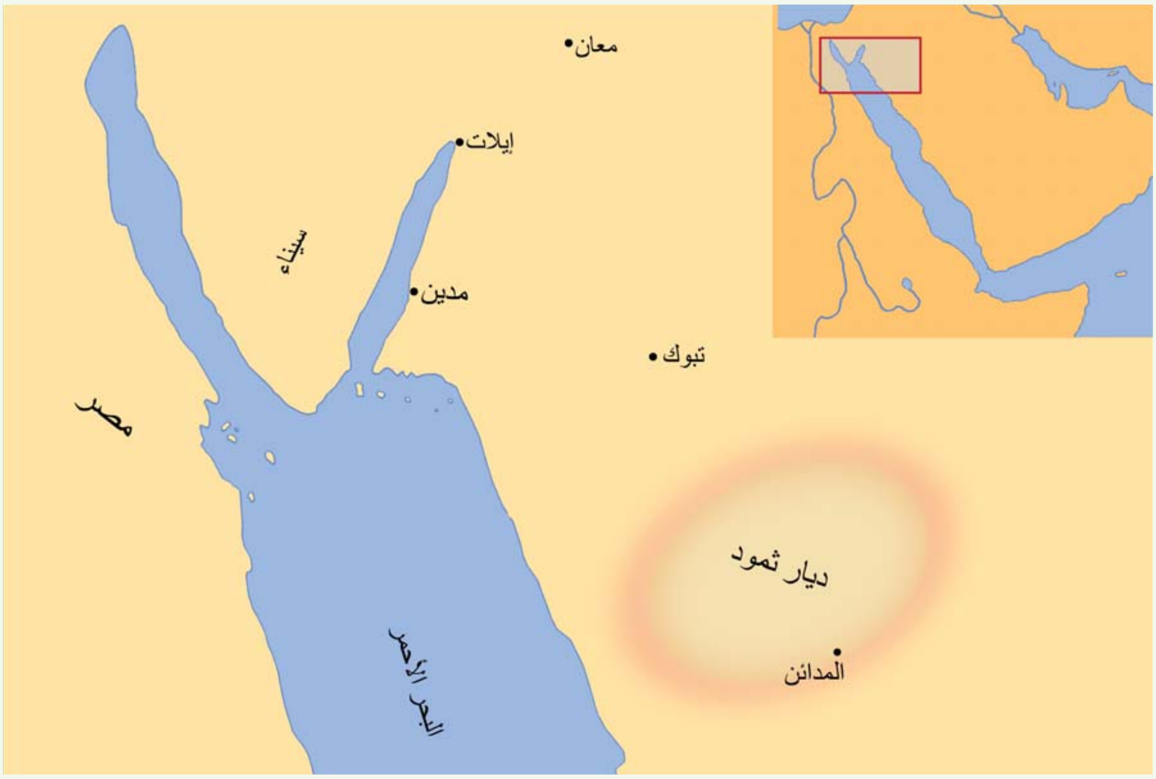
و كان رئيس القوم رجلاً يدعى جندا. وقد تشاوروا فيما بينهم وطلبوا من جندا أن يصنع لهم فقط صنماً لا يملك أي قوم آخرين له مثيلاً؛ فوافق جندا على ذلك مسرورًا. فصعدوا على إثر ذلك إلى الجبل، ونحتوا صخرةً كبيرةً. وصنعوا للصنم الذي نحتوه عينًا وثديًا مثل ثدي البقر وأرجلاً مثل أرجل الحصان، وقاموا بطلائه بالذهب والفضة. ثم زينوه بالمجوهرات، وكانوا كلما مروا عليه يسجدون له.

ومن بعده قاموا ببناء معبدٍ لهم؛ اتخذوا لهم فيه آلهة أطلقوا عليها أسماء ودّ وجَدّ وهَد وشمس ومناف ومنات واللات، وبدؤا يعبدونها. وكانوا بذلك أول من بنى معبدًا لعبادة الأوثان في التاريخ.

عاش صالح عليه السلام مع قومه. واشتغل بالتجارة، وكان يتكسب من عمل يده. وقد أحبه قومه حبًّا جمًّا لصدقه وطيبته ومهارته، وكانوا ينتظرون منه الشيء الكثير في المستقبل؛ حتى أنهم رغبوا لو نصّبوه رئيسًا عليهم، ولكن الله عز وجل أعطى صالحًا النبوة.

بداية التبليغ:

لما بلغ صالحٌ عليه السلام سِنَّ الأربعين أتى إليه جبريل عليه السلام بالنبوة. وخشي في البداية من عدم قبول قومه لعقيدة التوحيد، ولكن جبريل قال له:



"يا صالحُ، هيا ادعُ قومك للتوحيد!" وبعد ذلك ارتفع إلى السماء وقال "يا صالح، ستشهد أحوالاً لم تكن في عهد نوح وهود!".

في البداية توجه صالح، الذي حمل مهمة التبليغ، إلى رئيس القوم جندا ودعاه لدين التوحيد؛ فتقبل جندا الدعوة بشكل منصف معقول، وقال:-"دعني أنا أخبر قومي بهذا. وإن لم يقبلوا، كلمناهم معًا!".

بعدها جمع جندا قومه، وقال لهم إن صالحاً قد كُلّف بالنبوة، وتحدث معهم عن عقيدة التوحيد.

فرد عليه القوم، وقالوا:

"يا جندا، ليأتِ هو ويحدثنا بنفسه!"

و بناءً على هذا جاء إليهم صالح عليه السلام وحدّثهم عن عقيدة التوحيد. وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الموقف على هذا النحو:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود، ٦١)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء، ١٤١-١٤٥)

غير أنه لم يؤمن بعقيدة التوحيد سوى عدد قليل للغاية. أما الآخرون:

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود، ٦٢)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (هود، ٦٣)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل، ٤٦)

وعلى الرغم من حديث صالح الممتلئ بالحقائق والحكم، فقد اتهموه بأنه كاذب مسحور:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (الشعراء، ١٥٣)

بعد ذلك تحدثوا في الأمر فيما بينهم:

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر، ٢٤)

و استمروا في حديثهم قائلين:

﴿ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ (القمر، ٢٥)

فردَّ الله ﷻ على حديث قوم ثمود مهددًا إياهم جزاء اتهامهم الأحمق تهديدًا عظيمًا:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ (القمر، ٢٦)

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ (المؤمنون، ٤٠)

و على الرغم من كل شيء استمر النبي صالح في تبليغ قومه:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (الشعراء، ١٤٦-١٤٨)

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (الشعراء، ١٤٩)

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء، ١٥٠)

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء، ١٥١-١٥٢)

إنهم لم يصدقوا صالحاً بحجج واهية؛ فقد قالوا له "إنك تريد أن تأخذ أموالنا وتصبح رئيسًا علينا"، واستندوا على فكر أولى قائلين "إنا لدينا أصنامنا! أفنترك الآن الآلهة التي نراها بأعيننا، ونعبد الله الذي لا نراه؟!".

و استمروا في حديثهم قائلين:

- "كيف جعلك الله - الذي لم تره - في هذه المهمة؟!"
- "لو أنك تقول الصدق، فافعل لنا شيئًا لا يستطيع أحد منا فعله!"

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء، ١٥٤)

معجزة الناقة:



حزن صالح عليه السلام قليلاً لإصرار قومه على البقاء في جهلهم وغفلتهم. وتركهم مدةً واجتنبهم. ولما عاد بينهم مرة أخرى أظهر الله ﷻ لهم هيبة النبوة في سيدنا صالح عليه السلام فرُوِّع قومه من هذه الهيبة.

توجه صالح عليه السلام إلى رئيسهم جندا. فخاطبه جندا قائلاً: -"سنختبرك إذا كنت تقول الصدق!"

وكان هناك صخرة يعرفها الجميع يطلق عليها اسم الكاتبة، فقصد جندا هذه الصخرة، وقال:-
"سنذهب معك إلى هناك. وليخرج لنا ربك من تلك الصخرة ناقة لها شعر لونه أحمر، توشك أن تضع مولودها!. وليكن لون مولودها الذي ستضعه هو نفس لون أمه!.".

و قال له قومه مستهزئين:

- "وليكن لبنها باردا في الصيف، ساخناً في الشتاء!. وليشفَ كل مريض يشرب من هذا اللبن، وعندما يشرب منه الفقير يتخلص من فقره!.".

و كانت أكثر النياق قيمة في ذلك العصر، هي النياق الحمراء؛ لهذا السبب طلبوا من صالح عليه السلام أن يكون لون شعرها أحمر.

هنا قام صالح عليه السلام إلى الصلاة ولجأ إلى الله والقوم كلهم حاضرون؛ فبدأت الصخرة تكبُر، وأخرجت صوتاً كصوت المُتمخّض ومن داخلها خرجت ناقة حمراء اللون، خرجت وهي تقول:

"لا إله إلا الله، صالح نبي الله".

و أمام هذه المعجزة تقدم جندا وقبّل صالحا من جبهته ونادى في قومه قائلاً:

- "يا قومي! كفانا تعام!.. لقد آمنت بالله الذي لا معبود غيره، والذي ليس له شبيه أو نظير، وآمنت بنبيه سيدنا صالح! وآمن بعقيدة التوحيد مائة شخص آخرون من قوم جندا.

أما رئيس المعبد فقال:

- "ما أسرع ميلكم إلى شيء ما هو إلا سحر!. أنا سأريكم ما هو أكبر من هذا!.".

فأصاب بحديثه هذا قلب من كانوا سيؤمنون، وكان بينهم أخو جندا؛ فأخذ رئيس المعبد بالتاج من فوق رأس جندا ووضعه فوق رأس أخيه، وقال:

- " من الآن أنت رئيسنا!"

انصرف جندا من هناك وذهب إلى بيته، وقام بتحطيم كل ما فيه من أصنام، وقسّم أمواله وما عنده من أشياء نفيسة على المؤمنين الذين آمنوا بعقيدة التوحيد، وفضل أن يرتدي هو لباسًا خشنًا. وبدأ يدعو مع صالح عليه السلام لعقيدة التوحيد، وأصبح من أقرب الناس إلى صالح وأكثرهم مساعدة له.

أما الوثنيون المنكرون فكانوا يقولون لجندا:

"نأسف لحالك! لقد خدعك صالح بسحره!"..

أما جندا، فكان لا يلقي بالاً لقولهم، وكان لا يفارق صالحًا عليه السلام.

يقول الله عز وجل مخاطبًا صالحًا:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ (القمر، ٢٧)

ووضع صالح عليه السلام لناقته معيارًا نزل به الوحي:

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (هود، ٦٤)

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء ١٥٥-١٥٦)

لقد كانت هذه الناقة ممتلئة الجثة رائعة الجمال، و كانت ترعى العشب هي وولدها مسبحين الله. وكانت تخاف من هيبتها باقي الحيوانات وتهرب. وكان يُفتن بها كل من يراها.

وكان نظام تغذيتها مختلف عن باقي الحيوانات. فكانت تشرب في يوم واحد ماء كل الآبار التي في المدينة؛ وبذلك لم تستطع الحيوانات الأخرى أن تجد الماء لتشرب. لذلك قسّم صالح عليه السلام الماء؛ فكانت الناقة المعجزة تشرب الماء وحدها يومًا وتشرب بقية الحيوانات في اليوم الآخر.

وكانت الناقة تخاطبهم قائلة: "من يرد اللبن فليأتِ ويأخذ!.".

وكان قوم ثمود يأتون إليها يرتوون من لبنها وينصرفون.

وكانت الناقة كلما شربت الماء سبحت الله، وكان كل مؤمن مريض شرب من لبنها يُشفى.

الجحود:

عقد الكافرون، الذين ظلوا عاجزين أمام هذه المعجزة العظيمة، العزم على قتل الناقة، ولكنهم كانوا يخشون أن يُسلط عليهم العذاب إذا هم فعلوا.

وعلى الرغم من خوفهم هذا، فقد كانت هناك سيدتان تنتسبان إلى قوم ثمود، كانتا تحرضان غير المؤمنين باستمرار؛ حتى يقتلوا الناقة لما أصاب قطعانها من ضرر بسببها. اسم إحداهما عُنيزة بنت غانم. وكانت امرأة عجوز. ولكن كان لها بنات جميلات. والأخرى مُحيّا وكانت غنية وذات جمال في الوقت نفسه.

طلبت السيدتان كلتاهما من الكافرين قتل الناقة؛ لأن قطعان الحيوانات التي يمتلكونها كانت تظل بلا ماء في الوقت الذي تشرب فيه ناقة صالح عليه السلام الماء؛ فنادت مُحيًّا على بن عم لها يقال له مِصطع، وقالت له:

- "لو قتلت هذه الناقة، سأتزوجك، وكل شيء أملكه سيكون ملكًا لك.!.".

فقبل مصطع بهذا العرض. وكان لا بد له من شخص يساعده في مهمته تلك؛ فوجد الغرض في شخص من الوثنيين اسمه قدّار بن سالف[٢]، وعُرض عليه بنات عُنيزه ليختار منها، فقام بدوره باختيار واحدة منهن، وقَبِل أن يقوم بهذا العمل القبيح.

وانضم إلى هذين الشخصين عدد آخر من البؤساء؛ فصار عددهم تسعة. وحتى يقتلوا الناقة قاموا بعمل دعاية تحريضية بين الوثنيين الكفرة، وبالفعل أقنعوهم بالأمر، وقد فسر الله ﷻ هذا الوضع في الآية الكريمة على هذا النحو:

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل، ٤٨)

و حتى يتمكنوا من قتلها نصبوا لها شَرَكًا. ورمى مصطع الناقة برمح فجُرحت. أما قدّار بن سالف ومن معه فقفزوا فوق الناقة:

﴿... وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف، ٧٧)

فخاف ولد الناقة وهرب إلى الجبل، وفي إحدى الروايات أنهم ذبحوه هو الآخر، وأكلوا لحمه.

ولما سمع صالح عليه السلام بهذا حزن حزنًا كبيرًا. وجاء إلى جانب الناقة وبكى طويلاً. ودعا الله أن يهدي قومه. ثم توجه بعدها إلى قومه:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل، ٤٦)

أما هم:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ...﴾ (الأعراف، ٧٧)

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف، ٧٩)

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (النمل، ٤٧)

صوت مروع وزلزلة:

﴿...فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود، ٦٥)

كانت هذه الأيام الثلاثة هي الأربعاء والخميس والجمعة، وقد اصفرت وجوههم في اليوم الأول، وتحولت إلى اللون الأحمر في اليوم الثاني، واسودت في الثالث، ولما جاء اليوم الرابع كانوا على موعد مع الهلاك.

---

٢ هو الذي عقر الناقة وقتلها وقطع أرجلها ورقبتها وساقها فهو أشقى القوم

لقد حدث أمور غريبة في الليلة الأولي؛ فقد اندفعت الدماء من نفس الموقع الذي أجهزوا فيه على الناقة، وتحول لون الأوراق إلى اللون الأحمر، كما تحول لون ماء البئر إلى حمرة الدم. وتحولت وجوه التعساء إلى لون أصفر داكن؛ فقال تسعة منهم:

"لقد سحرنا صالح!. لنقتله هو وعائلته!".

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل، ٤٩)

و لما حل الليل توجه هؤلاء التسعة إلى المسجة بغية قتل صالح عليه السلام أمطر عليهم جبريل عليه السلام بأمر من الله، حجارةً فأرداهم صرعى:

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل، ٥٠)

و بعد هذه الحادثة غادر صالح عليه السلام ومن آمن به اليدة (ويخمن أن عددهم كان أربعين ألفًا).

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (هود، ٦٦)

وفي اليوم الثاني من ترك المؤمنين البلدة تحول لون وجوه الجاحدين إلى اللون الأحمر الداكن، وفي اليوم الثالث تحولت وجوههم إلى الأسود الداكن. وظلوا يترقبون من أي جهة سيأتي العذاب.

فجاء أمر الله عز وجل إلى جبريل. فجعل أعالي مساكنهم المبنية من الصخور الصلبة أسافلها.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل، ٥٢)

يقول فخر الدين الرازي معلقًا على هذا، لقد أُهلك قوم ثمود بالصيحة، وقد بلغت الصيحة من الشدة ما جعل مرارتهم تنفجر معها:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون، ٤١)

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (هود، ٦٧)

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الحجر، ٨٤)

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر، ٣٠-٣١)

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء، ١٥٨-١٥٩)

الأسباب التي من أجلها هلك قوم ثمود:

١ - أنهم جحدوا بعقيدة التوحيد التي جاءهم بها الأنبياء، وظلوا على عنادهم.

٢ - بدلاً من أن يستمعوا إلى الأنبياء سخروا منهم. فتكبروا واتبعوا أهواءهم.

٣ - اعتبروا أن ما يعتقدونه أعلى وأسمى من العقيدة التي جاء بها الأنبياء؛ وبذلك لم يعيروا دعوة الأنبياء سمعًا.

٤ - أنهم اتبعوا ما قالته لهم السيدتان الفاسقتان؛ فانسياقهم خلف هاتين السيدتين أسقطهم في الضلالة، وعلى هذا تحركوا بصحبة تسعة أشخاص من مثيري الفتنة، فشاركوهم الإثم.

٥ - أنهم اتهموا صالحاً عليه السلام والمقربين منه بأنهم سبب التحذيرات الإلهية، وما ألم بهم من مصائب. وقالوا مخاطبين صالحًا عليه السلام وملقين عليه اللوم، إنه كان سبب ما ألم بهم من سوء:

- "قبل أن تصير نبيًّا لم تمر علينا كوارث مثل هذه".

٦ - سقطوا بسبب خوفهم من أن يفقدوا النعم الدنيوية التي انعم الله عليهم بها؛ فخدعهم حرصهم وحبهم لمتاع الدنيا.

٧ - خانوا أمانة الله؛ فقتلوا الناقة التي أعطاهم الله العلي إياها أمانةً، على الرغم من أنهم هم من طلبوها من صالح عليه السلام، وعلى الرغم من تعهدهم له بالإيمان مقابل ذلك.

٨ - لم تكن الناقة ملكا لأحد؛ فقد كانت للمنفعة العامة، وكان لبنها مثل السبيل. وصاحب هذا السبيل هو الله عز وجل وحده. ولكنهم قتلوا الناقة واعتدوا على حرمة هذا السبيل.

٩ - لقد استشرى فساد الأشخاص التسعة وظلمهم. فكانوا يستولون على أموال غيرهم عنوة، واعتدوا على حق العبيد.



أسئلة للتقييم

أ- أجب عن الأسئلة الآتية

١ - أي خطأ ارتكبه قوم عاد عندما خاطب ملكهم خالجان هودا عليه السلام قائلاً "هل تظن أنك هازمنا على الرغم من كثرة عددنا وقوتنا؟" ؟

٢ - إلام يشير دعاء قوم عاد على أنفسهم بالعذاب؟

٣ - قيم في ضوء الآية الكريمة ﴿...وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٩) سبب قول قوم عاد "تلك هي السحب التي تسبق المطر" على الرغم من رؤيتهم سحب العذاب التي تأتي قبل الإعصار "الريح المدمرة".

٤ - ما السبب المحتمل لتشبيه القرآن الكريم من هلك من قوم عاد بـ ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ و ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾؟

٥ - اذكر ما تعرفه عن معجزات هود عليه السلام؟

٦ - بماذا زعم و تعلل قوم صالح عليه السلام حتى لا يؤمنوا؟

٧ - أي معجزة طلب المنكرون من صالح عليه السلام؟

٨ - اكتب ما تعرفه عن (غزارة إدرار) ناقة صالح عليه السلام المعجزة للبن؟

٩ - ما الحكمة في إمهال الله عز وجل قوم ثمود ثلاثة أيام قبل هلاكهم؟

١٠ - تظهر الآية الكريمة ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل، ٥٢) الظلم الذي اقترفه قوم ثمود بأيديهم، وتبين في التعبير "فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا" أن هذا الظلم كان السبب في هلاكهم. هل يمكن اعتبار أن سبب الكوارث التي تحدث في يومنا الحاضر، نتيجة لظلم الناس؟

١١ - لو لم نُجبْ على سؤال قوم ثمود "هل نؤمن بإله لم نره؟" فبماذا عسانا أن نجيب عن هذا السؤال؟

ب- أكمل مكان النقاط فيما يلي

١ - أخذ الله ﷻ بعضًا من النعم التي أنعم بها على قوم عاد حتى تستيقظ..

٢ - من أسباب هلاك قوم عاد؛ الأول .... وكان السبب في احتقارهم لكل شخص أدنى منهم منزلة، والآخر هو .... الذي نتج عن ثرائهم الفاحش.

٣ - هلك قوم عاد بالريح بسبب إصرارهم على الكفر، على الرغم من أنهم رأوا معجزة هود عليه السلام. أطلق القرآن الكريم على هذه الريح العاتية اسم ....

٤ - كلف الله - تعالى - صالحا عليه السلام بالنبوة عندما بلغ سن ....

٥ - قالت الناقة التي خرجت من داخل الصخرة في شكل معجز:...

٦ - بعد أن قتل قوم ثمود الناقة، لم يعيروا تحذيرات صالح عليه السلام سمعًا و تمادوا في طغيانهم قائلين :.....................

ج- ضع إشارةً علي الإجابات الصحيحة للأسئلة الآتية

١ - أي من النقاط الآتية لم يكن من الصفات الأخلاقية لقوم عاد؟

أ - أنهم كانوا يعذبون المساكين والضعفاء؛ لأنهم كانوا يستمتعون بهذا.

ب - أنهم أحبوا الترف والمظاهر، وعاشوا حياة الإسراف.

ج - قست قلوبهم، فأصبحوا قومًا ظالمين غلاظ القلب.

د - كانوا واسعي الثراء، وامتلكوا الحدائق والجنان.

٢ - جاءت التحذيرات الإلهيه قبل مجيء العذاب. أي من النقاط الآتيه ليس من هذه التحذيرات الإلهيه؟

أ - جفاف عيون الماء، اصفرار حدائق إرم وجفافها.

ب - عقم النساء عن إنجاب أطفال لمدة طويلة.

ج - تعرضهم لمجاعة استمرت سنوات طويلة.

د - تعرضهم لعواصف رملية شديدة للغاية.

٣ - أي من النقاط الآتية ليس واحدًا من الأمور التي قام بها قوم عاد؟

أ - كانت نفوسهم جامحة للغاية، وكانوا لا يقدرون على التحكم في أهوائهم .

ب - بدلاً من أن يشكروا الله ﷻ على حدائق إرم ومساكنهم الجميلة وسائر النعم الأخرى جحدوا وأنكروا.

ج - عذبوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهم ورموهم بالحجارة.

د - اغتروا بما أعطاهم الله من نعم واحتقروا أنبياء الله.

٤ - أي من النقاط الآتية لم يكن سببًا لعدم إيمان قوم عاد على الرغم من التحذيرات الإلهية لهم؟

أ - كانوا سيضطرون إلى الإبتعاد عن المحرمات والشهوات إذا هم آمنوا.

ب - لن يكونوا ليستمروا في كسب المال من الطرق المحرمة.

ج - لن تكون أهواؤهم وأنفسهم الضعيفة قادرة على سحق الفقراء والضعفاء.

د - كانوا بعد إيمانهم سيفقدون حدائق إرم وما حولها من نعم أخرى.

٥ - على الرغم من معرفة هود عليه السلام بأن قومه سيهلكون، فإنه ظل للحظة الاخيرة يدعوهم للإيمان. أيٌّ من النقاط الآتيه لا يمكن استخراجه من سلوك سيدنا هود هذا ؟

أ - رغبة هود عليه السلام القوية في ايمان قومه ومن ثم نجاتهم.

ب - حب هود عليه السلام الجم لقومه وتقديره لهم.

ج - بسبب رحمة هود عليه السلام الشديدة، لم يرضَ بالعذاب الذي سيحل بقومه.

د - أنه أراد أن يؤدي مهة التبليغ حتى آخر لحظة.

٦ - أي مما يأتى ليس من الصفات المشتركة بين قومي عاد وثمود؟

أ - كلاهما أنعم الله عليهما بنعم وخير وفير.

ب - كلاهما اغتر وتكبر بشكل كبير.

ج - كان لكل منهما يتفاخر ببناء مساكن قوية قادرة على التحمل.

د - عاش القومان كلاهما في المنطقة نفسها، واستفاد كل منهما من مصادر العيش نفسها.

٧ - أي مما يأتى ليس من الأمور التي لم تحدث لقوم ثمود قبل أن يأتيهم العذاب؟

أ - تحول لون وجوههم إلى اللون الأصفر الداكن.

ب - خروج الدماء من المكان الذي أجهزوا فيه على الناقة.

ج - تخطيطهم للتخلص من صالح عليه السلام.

د - تحول لون الماء في البئر إلى اللون الأحمر القانى.

٨ - كان قوم ثمود يحبون صالحًا عليه السلام قبل النبوة، وكانوا يرون أنه الشخص المناسب كي يكون رئيسًا عليهم في المستقبل. وعندما بدأ في تبيلغ عقيدة التوحيد، اتهموه بالكذب. إلام يشير موقفهم هذا؟

أ - أنهم كانوا في موقف متناقض لم يقبلوا فيه بعقيدة التوحيد التي جاء بها صالح عليه السلام، بسبب كفرهم وعنادهم.

ب - أحبوا صالحا عليه السلام كثيرًا، على الرغم من أنه رفض معتقداتهم.

ج - كانوا يعتقدون أنه ثمة مرض ألم بصالح عليه السلام أو أنه سُحِرَ.

د - أدركوا أن قناعتهم الأولى بصالح عليه السلام كانت خاطئة.

٩ - ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (الشعراء، ١٥٣) من خلال الآية بيّن أي قناعة تبناها القوم نحو صالح عليه السلام؟

أ - أن بدءوا ينفرون من صالح عليه السلام.

ب - أن صالحًا عليه السلام في رأيهم شخص نفعي.

ج - يرون أن صالحًا عليه السلام كذابٌ.

د - يرون أن صالحًا عليه السلام يحاول أن يصير رئيسًا عليهم.

١٠ - أي مما ياتى ليس واحدًا من المبررات التي ساقها المنكرون من قوم ثمود كي يقتلوا الناقة المعجزة ؟

أ - أن الناقة كانت تشرب الماء عن آخره ولا تترك شيئًا لباقي الحيوانات كي تشربه.

ب - أن الناقة كانت تأكل كل العشب الموجود في المرعي، وتظل بقية الحيوانات جوعي.

ج - أن الوثنيين كانوا منزعجين من رؤية الناقة، ذلك لأنها دليل الإعجاز الذي أظهره صالح عليه السلام.

د - أن الناقة كانت تزعج قطعان الحيوانات التي بجوارها وتسبب لهم الضرر.

١١ - تحول رئيس القوم جندا ومعه مائة آخرون للإيمان فور ظهور معجزة صالح عليه السلام. إلى أي من سمات المعجزة يشير ذلك؟

أ - أن المعجزات تسوق للإيمان الأشخاص ذوي النويا الحسنة والذين لم يبالغوا في إنكارهم.

ب - أنها كانت وسيلة للهدايا يتلطف بها الله عز وجل على العباد الذين يحبهم كثيرًا ممن ليسوا في زمرة الانبياء.

ج - ان المعجزة هي أحداث خارقة للعادة لا يؤمن بها إلا العقلاء الأذكياء.

د - أن المعجزات تسوق من كان في قلبه مقدار قليل من الإيمان إلى الهداية.

١٢ - على الرغم من أن تسعة أشخاص هم الذين قتلوا الناقة، فإن العذاب نزل بقوم بكل المنكرين من قوم ثمود. أي مما ياتى لا يمكن أن يكون سببًا لهذا؟

أ - لم يمنع أي شخص من قوم ثمود أيًّا من هؤلاء التسعة الذيت تمادوا في ظلمهم وطغيانهم.

ب - بسبب ما بلغه هؤلاء التسعة من ظلم وطغيان وفساد أهلكهم الله عز وجل ومن حولهم.

ج - لأن قوم ثمود كانوا راضين عما فعله هؤلاء الأشخاص، فنالوا الجزاء نفسه.

د - لو أن الله لم يهلك قوم ثمود، لأصبحوا هم أيضًا بعد ذلك ظلمة بالقدر الذي وصل إليه هؤلاء الأشخاص عندما قتلوا الناقة.



حضرة إبراهيم عليه السلام

و

حضرة إسماعيل عليه السلام

و

حضرة إسحاق عليه السلام

من تحدى ظلم وتهديد نَمْرود، ومن حَوَّلَ لهيب النّار إلى حدائق للورد

حضرة سيدنا إبراهيم

عليه السلام

و

من أصبح رمزاً للإخلاص والولاء والتوكل والتسليم

حضرة سيدنا إسماعيل

عليه السلام

و

مَنْ وُلِدَ مِنْ نَسْله أنبياءُ بني إسرائيل

حضرة سيدنا إسحاق

عليه السلام

إبراهيم عليه السلام:

ولد إبراهيم عليه السلام في المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات شرقي بابل.

تقول إحدى أقوى الروايات أن والده هو تاروخ، وكان مؤمنًا مخلصًا. ولما توفي تاروخ، تزوجت أمه - إبراهيم عليه السلام من آذر وكان أخا تاروخ. ولهذا السبب، كان آذر وهو من عبدة الأصنام زوج أمه. وتقول رواية أخرى إن اسم تاروخ هو الاسم القديم لوالد إبراهيم عليه السلام وأنه لما بدأ يعبد الأصنام صار اسمه آذر.

أما الإمام السيوطي -رحمة الله عليه- فيوضح أن آذر -وفق رواية ابن عباس- لم يكن أبا إبراهيم عليه السلام وأنه كان عمه.

و سيدنا إبراهيم أكثر البشر فضيلة بعد سيدنا محمد ﷺ. وقد نعته الله عز وجل بقوله "خليلي".

لهذا السبب يذكر سيدنا إبراهيم بإسم "خليل الرحمن". وسميت الآيات التي نزلت عليه باسم "الصحف العشرة".

و يطلق على سيدنا إبراهيم اسم آخر هو "أبو الأنبياء"، وأبناه هما إسماعيل وإسحاق عليهما السلام. وقد انحدر سيدنا محمد ﷺ من نسل سيدنا إسماعيل عليه السلام; اما سيدنا إسحاق فانحدر منه نسل أنبياء بني إسرائيل.

أُرسل إبراهيم عليه السلام إلى قوم "كلدان"، وكان حاكم قبيلة كلدان رجلا عادلاً منصفًا في بادئ الأمر. بيد أنه، مع اتساع سلطنته، أصابه الكِبْر والغرور، وكان يصنع التماثيل ويخاطب قومه قائلاً:

- "أنا أيضًا إله.. اعبدوني!.".

يتحدث القرآن الكريم عن ذلك على النحو الآتي:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة، ٢٥٨)

تبين هذه الآية الكريمة طغيان نمرود وكفره بالنعمة التي أنعم الله عليه بها.

و تذكر إحدى الروايات أن نمرود رأى فيما يرى النائم أن هناك نور يلمع في السماء، وأن هذا النور أطفأ نوري الشمس والقمر. أما الرواية الأخرى فرأى أن شخصًا قد جاءه وأنزله عن العرش وضرب به الأرض. وعندما أفاق من نومه شعر بقلق بالغ، استدعى على إثره المنجمين إلى القصر، وقص عليهم ما رأى. فقالوا له:

- "سيأتى دين جديد، وإن الشخص الذي سيأتى بهذا الدين سينزل بعرشك إلى الأرض؛ فتدبر أمرك واستعد لهذا".

وبناءً على هذا اتخذ مستشارو نمرود القرار بقتل كل مولود ذكر للحيلولة دون حدوث هذا الأمر؛ لهذا تم قتل حوالي مائة ألف طفل حديثي الولادة.

وفي هذا الوقت كانت أم إبراهيم عليه السلام حاملاً في إبراهيم. وعندما اقترب موعد الولادة قالت الأم مخاطبة آذر:

- " اذهب أنت إلى معبد الأصنام! وادعُ لى! فإن وضعت ذكرًا؛ جئتك به، فاذهب به إلى نمرود، وهو سيقوم بقتل طفلنا؛ وبذلك يزداد قدرك عنده..".

و بعد أن توجه إلى المعبد، ولد إبراهيم عليه السلام فقامت أمه على الفور بأخذه خفية إلى مغارة ووضعته فيها. ولما عاد آذر أخبرته أنها وضعت طفلاً ضعيفا، وأنه ما لبث أن مات بسبب ضعف بنيته.



و كانت أم إبراهيم ﷺ تذهب كلما غادر آذر البيت إلى جانب ابنها لترضعه. وأحيانًا كانت ترى سيدنا إبراهيم يمص أصابعه؛ لأن جبريل ﷺ وفق إحدى الروايات - كان يسيل اللبن وعصير التمر من بين أصابعه.

ويُرْوَى أن سيدنا إبراهيم، الذي قضى فترة الطفولة في المغارة، بدأ في تبليغ رسالة التوحيد لدى خروجه منها.

و تتحدث الآية الكريمة عن ذلك:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ...﴾ (الأنبياء، ٥١)

و معنى "الرشد" التي وردت في الآية الكريمة القدرة على التمييز "الهداية". وبفضل هذه القدرة أصبح المرشد لطريق التوحيد وأنيس لكم هائل من الحقائق الإلهية؛ على الرغم من أنه لم يتلق علما أو تربيةً على يد أي شخص.

ربي هو الله:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ (الأنعام، ٧٦)

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام، ٧٧)

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام، ٧٨)

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا[١] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام، ٧٩)

الحقيقة التي تبينها الآيات الكريمة؛ هي أن إبراهيم عليه السلام بين للبؤساء الذين يعبدون غير الله أنهم اتخذوا الطريق الخطأ وأنَّ معتقداتهم باطلةٌ. و تبين هذه الأمثلة فضلاً عن هذا أنه بإمكان كل من له عقل أن يصل عن طريق التفكر إلى وجود الله وصفاته وعلمه، ولهذا السبب سيمكنه الوصول إلى الإيمان. لهذا السبب ذهبت جماعة الماتريدية - وهم من علماء أهل السنة - أنه على الذين لم يصل إليهم الإسلام أن يؤمنوا بوجود الله ووحدانيته حتى يمكنهم النجاة في الآخرة، وأن الإنسان لا يمكن أن يسأل عن الأشياء التي لا يمكنه الوصول لها ومعرفتها.

الدعوة إلى التوحيد

إن إبراهيم عليه السلام الذي وجد ربه مدركًا الحقائق الإلهيه ووُهب علمًا ليس له أو لغيره فضل عليه، أراد أن يبدأ الدعوة إلى التوحيد بأبيه آذر؛ فتحدث إليه بأسلوب لين وقال:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم، ٤٢-٤٥)

أما آذر فرد عليه غاضبًا وقال:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم، ٤٦)

غير أن إبراهيم عليه السلام توجه إليه من جديد بأسلوب لين قائلاً:

﴿قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم، ٤٧)

ودعا الله أن يغفر لأبيه، غير أن دعاءه لم يستجب؛ لأن أباه صار عدوًّا من أعداء الله. و لما علم إبراهيم عليه السلام هذا وتأكد منه تراجع عن دعوته؛ لأن الدعاء يكون لهداية الكفار وليس للمغفرة لهم.

و يوضح القرآن الكريم هذا الأمر على النحو الآتي:

---

١ حنيفًا: من اتبع الدين الحق. من يؤمن بوحدانية الله عز وجل وينأى بنفسه عن الوقوع في الشرك والضلالة. وهو أول اسم أُطلق على الدين الحق قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة، ١١٣-١١٤)

و قد عاب إبراهيم عليه السلام على أبيه والذين لم يؤمنوا بقوله:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء، ٥٢)

فردُّوا عليه هم أيضًا وقالوا:

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء، ٥٣)

بعد ذلك دارت محادثات بين إبراهيم وقومه على النحو الآتي:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأنبياء، ٥٤)

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ (الأنبياء، ٥٥)

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الأنبياء، ٥٦)

كان آذار يصنع الأصنام ثم يبيعها ويقتات من ثمنها، وكان أولاد آذار الباقون يمتدحون الأصنام ويساعدون أباهم في بيعها. أما سيدنا إبراهيم عليه السلام فكان يربط عنق الصنم الذي يعطيه له أبوه ليبيعه بحبل، ثم يجره منه حتى السوق، وكان يجرجره محتقرًا إياه، وبعد هذا يسكب الماء فوق رأس الصنم، وكان يقول:

- "هيا لقد شعرت بعطش كثير، هيا اشرب أنت الآخر قليلا من الماء!"

تحطيم سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام:

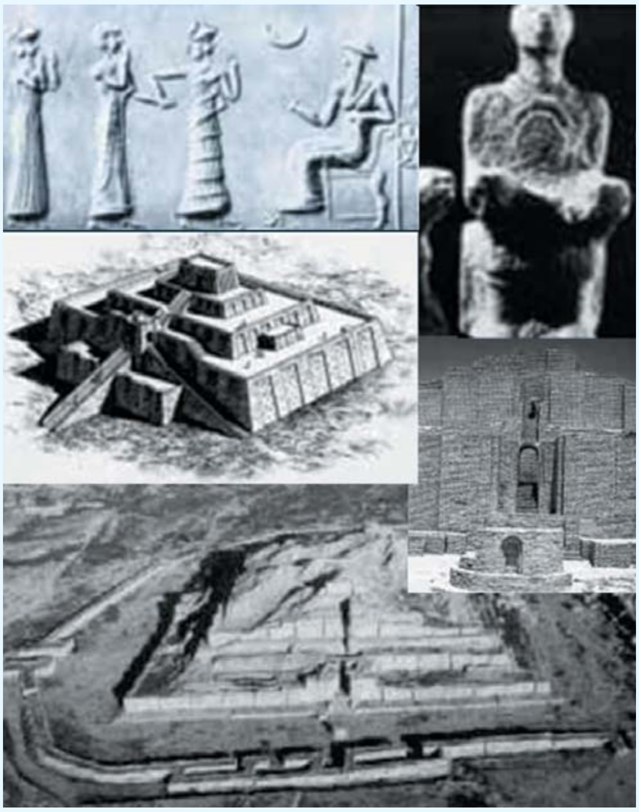
كانت قبيلة كلداني تجتمع مرةً في العام، ويقيمون احتفالاً. فقال آذر مخاطبًا إبراهيم عليه السلام:

"تعال معنا اليوم أنت أيضًا من أجل الاحتفال".

عاد إبراهيم عليه السلام من الطريق متعللاً بمرضه وتوجه صوب المعبد. كان بالمعبد أصنام مصنوعة من الفضة والنحاس ومن الأشجار. ورأى أطعمة وضعت أمامها من أجل التبرك.

وقد وضع أكبر الأصنام فوق عرش مصنوع من الذهب، وعليه ملابس صنعت من خيوط من الذهب والفضة، وعلى رأسه التاج.

قام إبراهيم عليه السلام مستخدماً مِعْولاً بتحطيم كل الأصنام، وترك كبيرهم، وقام بتعليق المعول على عنق الصنم الكبير.



و لما حل المساء وعادت قبيلة كلدان من مكان الإحتفال، أصابهم فزع كبير لما رأوه. وخمنوا فيما بينهم قائلين:

- " إن كان أحد ليفعل هذا فهو إبراهيم!"

و بحثوا عن إبراهيم حتى وجدوه وسألوه قائلين:

- " هل أنت من فعل هذا الأمر؟"

فأجاب إبراهيم عليه السلام قائلاً:

- " كان الصنم الأكبر يريد ألا يُعبد صنم غيره. لهذا السبب غضب من الأصنام الأخري. ومن ثم قام بتمزيقهم جميعًا بالمعول. وقام بتعليق المعول على كتفه. اسألوه إن أردتم! اسألوه ليحكي لكم هو الموقف بنفسه!"

فقال له القوم عبدة الأصنام:

- " الأصنام لا تتكلم!"

فرد عليه إبراهيم عليه السلام وقال: -

" إذن كيف لتلك الجمادات العاجزة التي لا تستطيع أن تحمي نفسها ولا تستطيع التحدث أن تحميكم أنتم؟ ألا تعقلون؟"

يحكي لنا القرآن الكريم هذا الموقف على هذا النحو:

﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (الصافات، ٩١-٩٣)

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ[٢].

٢- يُفهم من الآيه أنهم رجعوا إلى أنفسهم واتهم بعضهم البعض قائلين "أنتم ظالمون" (لأنهم تركوا الأصنام وحيدة؛ لا أحد يدافع عنها).

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء، ٥٨-٦٧)

تأكد القوم عبدة الأصنام من عبارات سيدنا إبراهيم أنه هو من قام بتحطيم الأصنام. وبدلاً من أن يفكروا في عجز تلك القطع الحجرية العاجزة عن فعل شيء، ومن ثم يرجعوا إلى الحق، عقدوا العزم وأشعلوا النار لسيدنا إبراهيم:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء، ٦٨)

إلقاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار:

قص عبدة الأصنام الوضع على نمرود. وبناءً على هذا قام نمرود باستدعاء إبراهيم عليه السلام. و كان المتبع أن أي شخص يدخل على نمرود عليه أن يسجد له. أما إبراهيم عليه السلام، فلم يسجد. ولما سأل نمرود عن سبب عدم سجوده، أجاب سيدنا إبراهيم:

- "لا أسجد لغير الذي خلقك وخلقني!..".

وعندما قال نمرود:

- "ومن ربك؟ "

رد عليه إبراهيم عليه السلام وقال:

- "ربي الله الذي يحيي ويميت..".

نمرود:

- " أنا أحيي وأميت".

وجاء بشخصين من السجن فقتل أحدهما وأطلق سراح الآخر، وقال:

- "انظر، أنا أيضًا أفعل هذا الشيء".

لكن نمرود الجاهل لم يكن يعلم أن الإحياء هو نفخ الروح; أما الموت فهو أخذ الروح. هنا قال له إبراهيم عليه السلام:

- "إن ربي يأتى بالشمس من المشرق؛ فإن كان لك طاقة بذلك فأت أنت بها من المغرب!"

تخبرنا الآيه الكريمة بهذا الموقف على النحو الآتي:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة، ٢٥٨)

يشير المفسر البيضاوي أن حماقة نمرود تكمن في كونه أول شخص على وجه الأرض يدعي الألوهية. وبدلاً من أن يقوم بشكر الله على ما أعطاه من مال ومُلك فعل العكس وأنكر وجود الله.

وهناك روايتان بخصوص لقاء إبراهيم عليه السلام بنمرود:

الأولى، أن القوم قاموا بحبس إبراهيم عليه السلام عندما حطم الأصنام، وأنهم دخلوا إلى نمرود وهم على وشك إلقائه في النار.

الثانية، أن هناك مجاعة استمرت لعام؛ ولهذا السبب كان نمرود يوزع الطعام على قومه.

وكان نمرود يسأل كل شخص يعطيه الطعام قائلاً:

- "من ربك؟"

ولما جاء الدور على إبراهيم عليه السلام رد على نمرود وقال:

- "ربي الذي يحيي ويميت!"

فغضب نمرود لما سمع هذه الكلمات. ولم يعطِ سيدنا إبراهيم الطعام. ولم يكتفِ بهذا، بل جمع قومه وشاورهم في الكيفية التي يجب معاقبته بها؛ فتحدث أحد الاشقياء من بين القوم، ويقال له هنون/ حنون Henun، وقال:

- "لنحرقه بنيران عظيمه!"

فقبلوا باقتراحه. وبدأت الاستعدادات لحرق إبراهيم عليه السلام.

وعكفوا على جمع الحطب الذي سيشعلونه طيلة شهر كامل. وأعد هؤلاء الحمقى العدة لحمل الحطب قائلين:

- "هذا الشخص يمتهن أصنامنا!"

وأضرموا النيران في الحطب الذي تكدس مثل الجبل. وكانت ألسنة اللهب ترتفع حتى السماء. ولم تكن الطيور تستطع الطيران عن قرب بسبب الحرارة.

وعندما أتموا كافة الاستعدادات، وعندما استعرت النيران، جاؤا بإبراهيم عليه السلام وقد قيدت يداه بالسلاسل وغُلت قدماة بالأصفاد.

غير أن هذا النبي العظيم هو "خليل الرحمن" ؛ لذا كان مستسلما لأمر الله متوكلاً عليه على الرغم من هول الموقف، ولم يكن يساوره ذرة خوف أو قلق.

تشاور نمرود وجماعته حول الكيفية التي سيلقونه بها إلى النيران واتخذوا القرار أن يكون المنجنيق هو الوسيلة لذلك.

وفزعت الملائكة التي في الأرض والأخرى التي في السماء وتضرعت إلى الله ﷻ وقالت:

- "يا لطيف يا الله، إنهم يلقون إبراهيم عليه السلام وهو أكثر من يذكرك إلى النيران! إنه نبي لم ينسَك حتى للحظة واحدة! ائذن لنا كي نساعده يا ربنا..".

فأذن الله لهم فأتى ملك إلى إبراهيم عليه السلام وقال له:

- "أَعطِني أمراً آمُرُ الرياح - لو أردت - أن تشتت النيران وتبعثرها!"

و قال ملك آخر:

- "أعطني أمراً آمُرُ الماء - لو أردت - فأطفئها في لحظة واحدة!"

و قال له آخر:

- " أعطني أمراً آمُرُ الأرض - لو أردت - فأجعلها تبتلعها!"

فرد إبراهيم عليه السلام على الملائكة وقال:

- "لا تتدخلوا بين الصديق وخليله! أنا راض بما قسم الله لى! إن أنجاني فهو لطف منه; وإن أحرقني، فلذنب اقترفته. وإني - إن شاء الله - لمن الصابرين!..".

فكان إبراهيم عليه السلام يقول وهم يضعونه في المنجنيق تمهيدًا لإلقائه:

- "حسبي الله ونعم الوكيل!"

فجاءه جبريل عليه السلام وهو على وشك السقوط في النيران تمامًا وسأله قائلاً:

- "ألك حاجة؟"

فاجابه إبراهيم عليه السلام وقال:

- "نعم، لدي حاجة، لكن حاجتي ليست منك!.".

فقال له جبريل عليه السلام وقد شعر بالدهشة:

- " لماذا لا تطلب من الله أن ينجيك مما أنت فيه؟"

فأجابه عليه السلام قائلاً:

- "هو عالم بحالي! هلا قلت لي بأمر من تحرق النار؟ الحرق من أمر من؟"

فامتدح الله ﷻ هذه الخصوصية في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَإِبْرَهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم، ٣٧)

تحول النيران إلى بستان:

كان لخضوع خليل الله وتوكله على الحق وحده، أن أمر الله ﷻ النار قبل أن يصل إليها قائلاً:

﴿...يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَهِيمَ﴾ (الأنبياء، ٦٩)



و في التو وعلى الفور تحول المكان الذي سقط فيه إبراهيم عليه السلام إلى بستان.

وهناك نبعت عين حلوة وبدأ ماؤها يجري.

فتعجب نمرود من هذا الذي صار، وتوتر، وخاطب إبراهيم عليه السلام قائلاً:

- "سأذبح أربعة آلاف بقرة لأجل إلهك!"

فرد عليه إبراهيم عليه السلام هو الآخر وقال:

- "طالما لم ترجع عن انحرافك وتعود للتوحيد، فلا يوجد أية قيمة لما ستذبحه من أبقار!"

فقال نمرود:

- " لا يمكنني أن أفتدي بملكي وسلطنتي! ولكني سأذبح أضاحي جديدة!..".

وبالفعل قام بذبح أربعة آلاف بقرة. وتراجع عن مضايقة إبراهيم عليه السلام كذلك. ولكنه لكبره وغروره وعناده لم يؤمن، وصار من التعساء المحرومين، وتحولت طائفة من عبدة الأصنام إلى الإيمان أمام هذه المعجزة العلنية.

وأخذ إبراهيم عليه السلام -الذي نجاه الله من نيران نمرود فخرج منها سليماً معافى- يُذَكِّر من لم يؤمن بالعذاب الإلهي:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (العنكبوت، ٢٥)

وبعد حادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار أمر الله عز وجل إبراهيم ومن آمن به أن يهاجروا حتى يكونوا بمأمن من العذاب الذي سيرسله الله عز وجل على قبيلة كلدان ونمرود، وحتى يعبدوا الله بحرية. وبذلك يكون قد نجّى خليله والمؤمنين. وتحكي لنا الآية الكريمة عن هذا على هذا النحو:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت، ٢٦)

كان نبي الله لوط ابن أخي سيدنا إبراهيم. وعندما نأخذ في الحسبان أنه كان نبيًّا؛ لا يستقيم في الذهن أنه كان كافرًا ثم آمن. لهذا السبب فالآية التي قالت إن سيدنا لوطًا آمن بسيدنا إبراهيم، إنما تشير إلى أن لوطًا عليه السلام كان أول من آمن وصدق سيدنا إبراهيم عليه السلام.

هلاك نمرود وقبيلة كلدان:

بعد أن هاجر إبراهيم عليه السلام إلى بابل، نزلت أسراب من البعوض في شكل غبار على قوم كلدان الذين لم يؤمنوا وظلوا على غرورهم وكبرهم. وأخذ البعوض يمتص دماء عبدة الأصنام؛ فتحولوا إلى الجفاف وهلكوا. ودخلت واحدة منها من أنف نمرود ووصلت حتى مخه؛ فكان نمرود المغرور يضرب رأسه بلا توقف بسبب ما تحدثه له من ألم. وفي النهاية أودت لطمة شديدة بحياته بعد أن تمزقت رأسه.

يحدثنا القرآن الكريم عن ذلك بالقول:

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء، ٧٠) أُنظر أيضاً: الصافات، الآية ٩٨

هجرة إبراهيم عليه السلام:

هاجر إبراهيم عليه السلام من بابل إلى حران، وهي مدينة تقع إلى الجنوب من أورفا، واصطحبه إلى هناك ابن أخيه لوطاً عليه السلام وبنت عمه سارة وطائفة من المؤمنين.

و تزوج إبراهيم عليه السلام تنفيذًا لأمر ربه من سارة. وانتقل بعد ذلك؛ تنفيذا لأمر الله أيضًا هو وزوجته سارة، إلى الشام، ومنها عبر إلى مصر. وهاجر لوط عليه السلام هو الآخر بوصفه نبيًّا إلى سَدُوم .

و كانت مصر في هذا الوقت تحت حكم الفراعنة. وكانوا أناسا ظالمين ومتكبرين. وكان من عاداتهم أنهم يخبرون الفرعون في التو عن دخول أي بنت أجنبية جميلة إلى المدينة. فإن كانت متزوجة قتلوا زوجها، أما إن كان معها أخوها طلبها منه للزواج.

و عندما دخل إبراهيم عليه السلام ووالدتنا سارة إلى المدينة، ذهب خبرها إلى فرعون. وأُعلم أن هناك امرأة ذات جمال دخلت إلى مصر؛ فسألوا إبراهيم عليه السلام عن علاقته بها، فقال لهم هي "أختي"؛ وقصد بذلك أخته في الدين. وبناءً على هذا لم يمسوا إبراهيم عليه السلام بسوء. وأخذوا سارة إلى القصر .

وبهذا الشأن يروي لنا البخاري حديثاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ بِسَارَةَ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ المُلُوكِ أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: لاَ تُكَذِّبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِي، وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي،

فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي، إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ الكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ "، قَالَ الأَعْرَجُ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ:

" قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ تُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ "،

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:

"فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا، ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا **آجَرَ**[٣] فَرَجَعَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ،

فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ كَبَتَ الكَافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً " (البخاري، البيوع، ١٠٠؛ أحمد، ٢، ٤٠٣)

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ...﴾ (البقرة، ١٥٣)

وبذلك فصلاة والدتنا سارة ولجوءها إلى الله اقتداءً بهذه الآيه، كان نتيجته أن نجاها الله من فرعون.

رجع إبراهيم ﷺ من مصر بصحبة كل من سارة وهاجر إلى فلسطين. ووضع الرحال في منطقة قفراء يقال لها "سبْ". وقام إبراهيم ﷺ بحفر بئر. وخرج منه ماء براق شفاف.

وعندما نفد ما معهم من ماء بعد مدة، توجه إبراهيم ﷺ ناحية المدينة. وبعد أن سار قليلاً تذكر انه لا يملك أي مال فارتد راجعًا. وفي طريق العودة قام بملء كِيس بالرمل والحصى حتى لا تشعر سارة وهاجر باليأس. ولما رجع إلى المكان الذي تركهم فيه كان قد شعر بالإجهاد، فترك الكِيس وراح يغط في النوم.

---

٣ **آجر**: هي هاجر أم إسماعيل ﷺ.

فقالت سارة مخاطبةً هاجر:

- "افتحي الكِيس!".

فإذا به قمح. فقامتا على الفور بطحنه ليصير دقيقًا، وصنعوا الخبز. ولما قام إبراهيم عليه السلام من نومه تعجب لهذا وتوجه بالشكر لربه.

وحلت البركة على منطقة سب، وكثُرت نعم الله. وجاء عدد كبيرٌ من الناس واستوطنوا المكان، حتى عج المكان بمن فيه. ولكنهم جحدوا من بعد ذلك، ورفضوا إعطاء إبراهيم عليه السلام الماء من البئر الذي حفره بيده. تألم خليل الله لهذا كثيرًا؛ فغاضت الماء بكسر قلب نبي بهذه الدرجة. فلما رأى الغافلون التعساء هذا الموقف، ندموا لهذا أشد الندم، واعتذروا لإبراهيم عليه السلام عن غفلتهم، ورجوه أن يدعو الله كي يغفر لهم؛ فقبل النبي الحليم إبراهيم عليه السلام اعتذارهم، واستجاب لطلبهم، ولجأ إلى الله فكثر الماء مرة أخرى رحمة من الله.

إحياء الطير:

لجأ إبراهيم عليه السلام إلى ربه وقال:

- " يا رب أرني أنظر كيف تحيي الموتى!..".

يصور لنا القرآن الكريم هذا الموقف على النحو الآتي:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(البقرة، ٢٦٠)

أصاب الفضول إبراهيم عليه السلام وود أن يعرف كيف يُحيا الميتُ مرة أخرى، وطلب من ربه أن يريه هذا الأمر. فأجابه الله عز وجل كما في الآية بإجابة مادية، ولكنه لم يوضح له ماهية البعث؛ لأن القدرة الذهنية والعلمية للإنسان غير قادرة على إدراك مسألة البعث أو الإحياء من جديد.

كما أن النماذج التي منحها الله للأنبياء كما مر في آيات سابقة هي معجزة كل منها على حدة. المهم هنا هو الإيمان الكامل بأن الله سيبعث كل المخلوقات، وخاصة الإنسان ويسوقهم للحساب.

فالله الذي وسعت قدرته كل شيء قادر على أن يفعل هذا بعباده كما خلقهم من قبل ومنحهم الحياة. ويمكن أخذ هذه الحادثة التي تحققت بين يدي إبراهيم عليه السلام نموذجًا لهذا؛ فعندما يقول سيدنا إبراهيم الذي قال من قبل رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ (البقرة، ٢٨٥)، عندما يقول "يا ربي" فإنه بذلك يكون قد قال "يا ربِّ يا من وسعت قدرته وهب الحياة وتقدير الممات!"،

وعندما يقول "كيف تحيي الموتى؟" فكأنه كان يقول "أعلم أنك تحيي الموتى، ولكني لا أعلم على سبيل الإطلاق كيف تفعل هذا، من أجل هذا هل يمكنني أن أتحقق بنفسي من وصف عملية إحياء الموتى؟ أتضرع إليك أن تريني هذا".

فقال الله ﷻ محذرًا إبراهيم "يا إبراهيم، أولم تؤمن؟" فرد إبراهيم عليه السلام: "بلى يا رب! آمنت، لقد وهبتني الحياة في الوقت الذي أردت أنت، فأرني أرَ كيف تهب الحياة كما فعلت عندي، ولأن قلبي مطمئن بالإيمان أريد أن أنتقل من الإيمان إلى الرؤية بالعين، ومن العلم إلى المشاهدة". القصد أن إبراهيم عليه السلام له قلب طاهر من الأوساخ (الأدران -الآفات -الأحقاد ...) والذنوب وأنه وصل إلى مرتبة "الخُلّة" فصار معها خليل الله إلى الأبد.

زواج إبراهيم عليه السلام من والدتنا هاجر:

لم ينجب إبراهيم عليه السلام من والدتنا سارة، لأنه قد تقدم به السن. وكانت والدتنا سارة قد حررت جاريتها هاجر، فكان ذلك وسيلة لزواج إبراهيم عليه السلام بها. أثمر هذا الزواج عن مولد إسماعيل عليه السلام. وبذلك يكون النور المحمدي قد انتقل إلى إسماعيل عليه السلام.

أما والدتنا سارة فكانت ترغب أن يكون انتقال هذا النور المحمدي عن طريقها هي، وحزنت أشد الحزن عندما لم يتحقق هذا، وطلبت من إبراهيم عليه السلام أن ينقل والدتنا هاجر إلى بلد آخر.

فقام - تنفيذًا لأمر من الله - بأخذ هاجر وابنها؛ سيدنا إسماعيل، إلى مكة وكانت منطقة جرداء جدباء وقفراء.

ويروي ابن عباس رضي الله عنه هذه القصة كما وردت في صحيح البخاري فيقول:

«أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟

فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم، ٣٧) (البخاري، الأنبياء، ٩)»

فاستجاب الله جل جلاله لدعاء إبراهيم عليه السلام؛ وبِسبَبِ هذا الدعاء زادت محبة هذا البلد في قلوب المؤمنين الذين يقصدونه لآداء الحج والعمرة، واطمأنت أرواحهم إليه وأَنِسَتْ به. ويفيض هذا البلد الطيب بالبركة من أنواع مختلفات من التمر والفواكه الأخرى.

و قد كان دعاء إبراهيم عليه السلام وتضرعه السبب - فضلا عن هذا - في خروج ماء "زمزم" من هناك.

لقد نفذ الماء من القدر الذي تركه إبراهيم عليه السلام وأخذت والدتنا هاجر تطوف بين هضبتي الصفا والمروة يمينًا ويسارًا بحثًا عن أحد تطلب منه المساعدة، وظلت تفعل هذا سبعة أشواط.

وتبلغ المسافة بين المرتفعين ٤٠٠ متر. فكانت والدتنا هاجر تجري من جهةٍ وتنظر إلى إسماعيل عليه السلام من ناحية أخرى. ولم يكن هناك أثر لشخص ولا لطائر يحلق في السماء.

لم يكن هناك أي مؤشر على وجود حياة بالمكان. وكلما وصلت أعلى هضبة المروة كانت تسمع صوتاً يقول:

- "اصمتي واصغي جيدًا!"

و كان هذا الصوت لجبريل؛ فكانت تسير نحو المكان الذي جاء منه الصوت، وكان صاحب هذا الصوت يخاطبها قائلاً:

-"أنت أمانة عند القادر على كل شيء! لا تخافي من الهلاك! ذلك هو موضع بيت الله.

وسيبني ذاك البيت ذلك الطفل وأبوهُ. ولن يُضيّع الله جل جلاله صاحبُ هذا البيت!"

عادت هاجر بعد أن سمعت هذا إلى جوار ابنها إسماعيل. فرأت أن الماء يندفع من الجزء السفلي لقدم إسماعيل عليه السلام! فتوجهت بالشكر إلى الله عز وجل وهي تشعر بسعادة غامرة، فقامت ببناء حوض حول الماء وقد تلاشى خوفها، وكانت تقول للمياه

"زمي، زمي!" بمعنى "توقفي، توقفي!".

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ -، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا" (البخاري، الأنبياء، ٩)

و سيستمر هذا الماء الذي كان ثمرة لتوكلها وخضوعها لأمر الله، وسيظل يتدفق شفاءً للناس حتى يوم القيامة.

و بذلك نال إبراهيم عليه السلام ووالدتنا هاجر بركةً عظيمةً جزاء خضوعهما لأمر الله.

ولهذه البركة أيضًا شكل آخر، فاستمرار الناس حتى يوم القيامة بأداء العدد الذي قامت به والدتنا هاجر بين الصفا والمروة بوصفه أحد أركان عبادتي الحج والعمرة، هو صدقة جارية لها.

و نتيجة لذلك استمر بقاء الأم والابن على قيد الحياة في هذا الوادي المجدب القاحل. ورأت قبيلة، يقال لها جُرْهُمْ، طائرًا ينزل باستمرار من السماء إلى مكان بعينه، ثم يعود ويحلق مرة أخرى. فأرسلوا رجلين إلى هذا المكان لعل به أمارة من أمارات الحياة. ولما رأوا ماء زمزم، طلبوا الإذن من والدتنا هاجر قائلين:

- "هل يمكننا أن نقيم هنا؟".

فأذنت لهم شريطة "ألا يدعي أحد منهم امتلاك الماء".. وبذلك تكون قبيلة جُرْهُمْ أول قبيلة تستوطن مكة.

اختبار الذبح:

وفي أثناء توجه سيدنا إبراهيم ﷺ من بابل إلى الشام:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات، ٩٩-١٠٠)

وفي الآية إشارة إلى أن الرحلة التي يتوجه إليها هى رحلة وصال تنطلق من القلب، أي من العالم الداخلى متوجهة إلى أسمى صديق. وفي باقي الآيات ذكر لبشرى سيدنا إسماعيل وحادثة الذبح:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات، ١٠١)

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات، ١٠٢)

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (الصافات، ١٠٣-١٠٦)

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات، ١٠٧-١١١)

بعد أن ترك إبراهيم ﷺ سيدنا إبراهيم ووالدتنا هاجر، عاد إلى والدتنا سارة. وكان يمر بين الحين والآخر على والدتنا هاجر وسيدنا إسماعيل. وفي إحدى المرات رأى، وهو ما زال بمكة، رؤيةً. فقد رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل. فاختلط عليه الأمر هل هي من الشيطان أم رؤية حق من الرحمن. غير أنه رأى الرؤية نفسها ثلاث ليال متتالية، وكان ذلك أول أيام العيد والتروية وعرفه.

وتقول إحدى الروايات أن إبراهيم عليه السلام كان يقول:

«- إن رزقني اللَّه بولد فإني سأذبحه تقرباً لله تعالى!» فكانت هذه الرؤيا امتحاناً له على هذا العهد.

وأمام ما كان من أمر إلهي شهده في الرؤيا، أمر إبراهيم عليه السلام سيدتنا هاجر بأن تغسل ولده إسماعيل عليه السلام وأن تطيبه بعطر حسن لأنه يريد أن يصطحبه إلى أحد أصدقائه. ونبه إسماعيل عليه السلام لأن يأخذ معه حبلاً وسكيناً وقال له:

«- بني، سأذبح قرباناً لله إرضاءً له!»

وساروا معاً إلى المكان الذي يقف فيه حجاج بيت اللَّه في عرفات. وفي هذه الأثناء، تمثل الشيطان لسيدتنا هاجر على شكل إنسان وقال لها:

«- أتعلمين إلى أين يأخذ إبراهيم ولدك؟»

فقالت له:

«- إلى صديق له»

فقال الشيطان:

«- كلا، بل ليذبحه»

فتجيبه سيدتنا هاجر:

«- إنه يحب ولده كثيراً»

فيتابع الشيطان وسوسته بقوله:

«- سيذبحه امتثالاً لأمر اللَّه!». فتجيبه سيدتنا هاجر عندها:

«- إن كان اللَّه - جل جلاله - قد أمر بذلك فهو شيء جميل. نتوكل عليه».

وعندما رأى الشيطان أنه لن يتمكن من خداع سيدتنا هاجر تركها وذهب إلى جوار سيدنا إسماعيل عليه السلام. وسأله هو الآخر:

«- أتعلم إلى أين يأخذك والدك؟»

فيجيبه إسماعيل عليه السلام: «- إلى صديقه»

فيقول الشيطان:

«- كلا، بل إنه آخذك ليذبحك. فهو يعتقد بأن اللَّه أمره بذبحك!»

فيجيبه إسماعيل عليه السلام بقوله:

«- إن كان اللهّٰ هو من أمر بذلك، فإننا سنستجيب له بكل حب وإقدام»

وهكذا، لم يتمكن الشيطان من خداع إسماعيل ﷺ أيضاً. فتوجه هذه المرة إلى إبراهيم ﷺ وقال له:

«- أيها العجوز! إلى أين تأخذ طفلك؟ لقد خدعك الشيطان بالرؤيا! إنها رؤى شيطانية».

فيقول له إبراهيم ﷺ:

«- أنت شيطان! إبتعد من أمامنا!».وأخذ سبع حجارة بيده ورجم الشيطان فيها في ثلاثة مواقع مختلفة. وهكذا ابتدأت بهذا الشكل منذ ذلك اليوم إلى يوم القيامة ركن رجم الشيطان في الحج. فكان حالهم ذلك مثالاً إلى الأمة على التوكل والتسليم.

وبينما كان إبراهيم ﷺ يسير مع ابنه من جبل منى إلى جبل عرفات، كانت الملائكة في السماء متحمسة جداً. وكانوا يقولون بحيرة لبعضهم البعض:

«سبحان اللهّٰ! نبي يأخذ نبياً ليضحي به!».

ويروي إبراهيم ﷺ حقيقة هذه الرحلة لابنه سيدنا إسماعيل فيقول:

«- يا بني! إني رأيت في المنام أني أذبحك»

فأجابه إسماعيل ﷺ سائلاً: «- يا أبت، آللهّٰ أمرك بهذا؟»

فيقول إبراهيم ﷺ:

«- نعم!». عندها يتوجه إسماعيل إلى والده ويقول له:

«- يا أبت افعل ما تؤمر! ستجدني إن شاء اللهّٰ من الصابرين!». فأخبره بأنه على أكمل الإستعداد ليفدي نفسه. وبعد أن قال لوالده هذه العبارة التي أثلجت صدر أبيه قال:

«- يا أبت! صبرتَ عندما رماك نمرود في النار. ورضي اللهّٰ عنك. وأنا أرضى بأن أذبح قرباناً لله. وإن شاء اللهّٰ ستجدني إن شاء اللهّٰ صابراً. عندما أفترق عنك إلى ربي؛ وعندما أبتعد عن نعم الدنيا سأصل إلى الجنة. إن كل حزني هو أن تعيش حياتك في لوعة الولد الذي ستقدمه قرباناً بيدك. يا أبت! ليتك أخبرتني قبل ذلك فأتمكن وأمي من الوداع!».

فيقول إبراهيم ﷺ:

«- يا بني، إني خفت أن تعترض أمك!».

ويروى أن إسماعيل ﷺ كان في تلك الفترة في السابعة أو الثالثة عشر من عمره[٤].

---

٤ أنظر: الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٠٥-٦٠٦؛ الطبري، التاريخ، ١، ٢٦٣-٢٧٨

عن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، قَالَ:

لَمَّا أُرِيَ إبراهيم ملكوت السماوات وَالْأَرْضِ، رَأَى رَجُلًا عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، ثُمَّ رَأَى آخَرَ عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، ثُمَّ رَأَى آخَرَ عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَهْلًا! فَإِنَّكَ رَجُلٌ مُسْتَجَابٌ لَكَ، وَإِنِّي مِنْ عَبْدِي عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ:

١-إِمَّا أَنْ يَتُوبَ قَبْلَ الْمَوْتِ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ،

٢- وَإِمَّا أَنْ أُخْرِجَ مِنْ صُلْبِهِ ذُرِّيَّةً يَذْكُرُونِي،

٣- وَإِمَّا أَنْ يَتَوَلَّى فَجَهَنَّمُ مِنْ وَرَائِهِ. (التفسير من سنن سعيد بن منصور، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤١٧، ٥، ٢٩)

و يُذكر وفق رواية أخرى أن السبب الآخَر في امتحان اللّٰه تعالى لإبراهيم عليه السلام بذبح ولده قرباناً هو لما ذكر في الحادثة أعلاه من شدة أظهرها إبراهيم عليه السلام لمن يعصي اللّٰه من الناس، فكان قليل الرحمة بهم.

وتتحدث رواية أخرى فتقول:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام، ٧٥)

يفسر الراوي هذه الآية بأن إبراهيم عليه السلام كان يصعد في كل ليلة إلى السماء. وفي إحدى الليالي التي صعد فيها إلى السماء، وجد من الناس من يعصي اللّٰه فقال:

«- يا إلهي! إن هذا الرجل يأكل من رزقك، ويمشي بمشيئتك، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يأتمر بأمرك. فأهلكه!».

فيهلك اللّٰه تعالى ذلك الإنسان. وعندما يرى إبراهيم عليه السلام عبداً عاصياً آخر، فإنه يدعو عليه بالهلاك أيضاً فينادى بقوله:

«- يا إبراهيم! أقلع عن الدعاء بهلاك عبادي! وتعامل معهم رويداً رويداً لتمهلهم! لأنني أرى عصيانهم كل يوم ولكني برغم ذلك لا أهلكهم!»

وعندما يعود إبراهيم عليه السلام إلى الأرض يشاهد تلك الرؤيا التي ذكرت في القرآن الكريم. وبعد أن قال له إبنه بكل تسليم: «يا أبت افعل ما تؤمر» تحضر خليل اللّٰه لذبح ابنه وأخذ السكين في يده وناجى ربه فقال:

«- يا إلهي! إن هذا ابني. وهو فاكهة قلبي وأحب الناس إلي.»

فيسمع نداء اللّٰه تعالى يقول له:

«- أتذكر ليلة دعوتني أن أهلك عبدي؟ أتعلم أني رحمن ورحيم بعبادي كما أنت رحيم بولدك؟ أنت دعوتني لأهلك عبدي. والآن أطلب منك أن تذبح ولدك!» (محمود سامي رمضان أوغلو، إبراهيم عليه السلام، ص. ٤٤ - ٤٦)

ويكلم إسماعيل عليه السلام والده إبراهيم عليه السلام وهو يعلم أنه سيكون قرباناً لله طاعة لأمره فيقول له:

«- يا أبت! إن لي بضعة مطالب:

١- إربط يدي ورجلي بشكل محكم فلا أتخبط من الألم فأقصر في حق ربي.

٢- أمسِك لباسك فلا يصلن دمي إليها.

٣- فلتكن سكينك حادة ليكون تقديم الروح سهلاً! ويسهل عليك أيضاً ما تقوم به.

٤- عندما تسحب سكينك فلا تنظر إلى وجهي! فيصيبك من رحمة الأب فتؤخر أمر اللّٰه بما يحل بك من رحمة.

٥- خذ قميصي إلى أمي! علها تجد فيه عوضاً! وقل لها: «لقد ذهب ابنك شفيعاً إلى اللّٰه»».

وبينما كان إبراهيم عليه السلام يستمع إلى هذه الكلمات امتلأت عيناه بالدموع. وبكى بشدة وقال:

«- لكم تساعدني يا بني بشكل رائع لأتمكن من تنفيذ أمر ربي». ومن ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

« يا ربي، ألهمني الصبر على ما أنا عليه الآن من حال! وارحمني بكبر سني!».

وقال إسماعيل عليه السلام:

«- يا ربي، ألهمني الصبر والتحمل في هذا الأمر!».

«يا أبتي، فتحت أبواب السماء. والملائكة في حيرة من أمرهم يسجدون لله يقولون: «يا ربي، إن نبياً هو على وشك أن يذبح نبياً إرضاءً لك... فارحمهم»

ومن ثم قال مثبتاً أباه على الطاعة:

«- يا أبت، إن شرط المحبة أن لا تؤخر الأمر! هيا افعل ما تؤمر!»

ويمدد إبراهيم عليه السلام، إسماعيل عليه السلام ويقول:

«- يا بني! وداعاً إلى يوم القيامة! أراك مرة أخرى في يوم القيامة!». وأخذ سكينه بشدة إلى رقبة إسماعيل عليه السلام. وفي تلك اللحظة يأمر اللّٰه تعالى جبريل فيقول:

«- إلحق واقلب السكين». فيتجه جبريل في آن من السدرة إلى السكين فيقلبه. فيشد إبراهيم ﷺ السكين مرة أخرى بشدة أيضاً ولكنها لا تتمكن من القطع مرة أخرى.

ويقول الله ﷻ:

«لقد صدق إبراهيم الرؤيا. وأظهر إخلاصه».

ومن ثم وامتثالاً منه لأمر الله تعالى، يأخذ جبريل ﷺ خروفاً من الجنة ويكبر بقوله:

اَللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ



وعندما سمع إبراهيم ﷺ هذا التكبير قابله بقوله:

لاَ اِلَهَ اِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ

وأكمل إسماعيل ﷺ بقوله:

اَللهُ أَكْبَرُ وَلِلهِ الْحَمْدُ

وبهذا الشكل، اكتملت أجزاء «تكبيرات التشريق[٥]» التي تبدأ في يوم عرفة من صلاة الصبح انتهاءً بصلاة العصر من اليوم الرابع من عيد الأضحى المبارك.

وعاد الأب والإبن إلى منزلهم شاكرين حامدين. وضمت سيدتنا هاجر إسماعيل ﷺ إلى صدرها. وعاد إبراهيم ﷺ مرة أخرى إلى جوار سيدتنا سارة.

أُمْتُحِن إبراهيم ﷺ يوم ألقي في النار في نفسه، وامتُحِنَ بأمر الذبح بولده، ولكنه كسب في كلا الإمتحانين بتسليمه وتوكله على الله. ثم جاء دوره ليمتحن في ماله. حيث تقول إحدى الروايات أن إبراهيم ﷺ كان يمتلك من الماشية ١٢,٠٠٠ رأساً. وكان لديه كلاب كثيرة تحمي هذا القطيع. وكان يضع على أعناق هذه الكلاب قلادات من الذهب تحقيراً لمن يتمسك بهذه الدنيا. وبحسب هذه الرواية، يأتي جبريل ﷺ إلى سيدنا إبراهيم ﷺ على شكل رجل ويقول له سائلاً: «- لمن هذه الماشية؟»

فيجيبه إبراهيم ﷺ بقوله:

«- هي لله ربي. وأنا مستودع عليها!».

فيقول جبريل ﷺ: «- هلا تبيعها لي؟»

فيقول إبراهيم ﷺ:

٥ يجب على المسلم أن يقرأ تكبيرات التشريق عقب كل صلاة مفروضة طوال أيام التشريق

«-أُذكر اللَّه مرة أعطيك ثلثها، واذكره ثلاثاً أعطيك جميعها!»

فيقول جبريل عليه السلام: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّنَا وَرَبُّ الْمَلٰئِكَةِ وَالرُّوحِ

فيقول إبراهيم عليه السلام: «- خذها، وقُدْها، هي جميعها لك!»

فيقول جبريل عليه السلام:

«- إني ملك، لا أستطيع أخذها!».

فيقول له إبراهيم عليه السلام إجابة على قوله:

«- إن كنت ملكاً فأنا خليل اللَّه. ولا أرد ما أعطيت!».

وفي نهاية الأمر باع إبراهيم عليه السلام هذا القطيع واشترى به أرضاً كبيرة. وجعل منها وقفاً يستفيد منه المسلمون. وهكذا كان إبراهيم عليه السلام أول من ابتدأ عملية الوقف في سبيل اللَّه.

وبهذا الإمتحان الذي تخلى فيه إبراهيم عليه السلام عن كل ثروته في سبيل اللَّه في آن واحد، أثبت مرة أخرى أنه بحق "القريب المحب لله" (خليل اللَّه).

بشرى لسيدنا إبراهيم عليه السلام بقدوم إسحاق:

وهب الله جل جلاله إبراهيم ولدًا آخر -على الرغم من أنه كان شيخًا كبيرًا- مكافأةً له على وفائه وإخلاصه لله جل جلاله وإقدامه على ذبح ابنه. وكان سن إبراهيم عليه السلام في ذلك الوقت قد تجاوز ١٢٠ عامًا، وكانت والدتنا سارة قد بلغت ٩٠ أو ٩٩ عامًا. وقال الله جل جلاله في هذا:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

(الصافات، ١١٢-١١٣)

كان من صفات إبراهيم عليه السلام أنه كان مضيافًا. فكان يُطعم الجميع ويسقيهم. لهذا أُطلق عليه اسم "أبو الأضياف".

وكرم الضيافة شيمة من شيم الأنبياء.

والاعتدال في تناول الطعام والشراب أمر يجب الانتباه إليه. لأن الإسراف هو الاستمرار في تناول الطعام بعد الشعور بالشبع. ومع هذا فلا إسراف في طعام إكرام الضيف وفي الطعام المقدم لكرم الضيافة. ويشترط أن تكون دعوة الضيف وإكرامه خالصًا لله جل جلاله بعيدًا عن المنفعة الخاصة.

يروي ابن عباس رضي الله عنهما بأن جبريل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام مع وفد من الملائكة يبشره ويفرحه بإسحاق عليه السلام. ومن ثم يتوجه مع هذا الجمع من الملائكة ليهلك قوم لوط.

ولقد أتى الملائكة لِزيارة إبراهيم ﷺ على هيئة البشر من الضيوف. ولهذا، لم يعرفهم إبراهيم في باديء الأمر فقام لما هو عليه من إكرام الضيف بإعداد لحم البقر لهم ووضعه أمامهم ليأكلوا. لكنهم، ولكونهم من الملائكة، لم يأكلوا منه شيئاً.

ففهم إبراهيم ﷺ أنهم من الملائكة. ولكنه خاف في باديء الأمر من مجيئهم على هذا الشكل لكونه لم يكن على علم بما أتوا به من البشارة بولادة إسحاق ﷺ. فقال لهم:

«- هل حدث شيء أغضب اللّٰه؟ أو أنكم أتيتم لتهلكوا قومي؟» معبراً عن قلقه وخوفه. وللتأكد من كونهم ملائكة قال لهم: «ألا تأكلون؟» فقالوا:

«- نحن لا نأكل بلا أجر!».

فقال إبراهيم ﷺ في البداية «بسم اللّٰه» وفي النهاية «الحمد للّٰه». فقال الملائكة:

«- نعم الخليل، ونعم المحب الصادق!».

ومن ثم قالوا له ﷺ:

«- لا تخف يا إبراهيم، إنا ذاهبون من هنا إلى قوم لوط لنهلكهم!».

ففهم بهذا القول بشكل واضح سبب تركهم للطعام وقدومهم إليه بهذا الشكل.

وعندما تبدد عنه الخوف، بشر الملائكة إبراهيم ﷺ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

وكانت سيدتنا سارة تستمع إلى هذا الحديث من وراء ستار، فغطت وجهها بكِلْتا يديها لما كانت عليه من شدة الحياء والخجل. وتعجبت من هذه البشرى لكونها وسيدها قد أصبحا كباراً في السن من العجائز. فقال لها الملائكة:

«- أتعجبين من أمر اللّٰه وتقديره؟»

ولكن إبراهيم ﷺ، ومع فرحته بما جاءه من البشرى، حزن كثيراً لما سمعه من إهلاك لقوم لوط لأنه لم يكن يعلم أن المؤمنين من قومه سيكونون مستثنين من هذا العذاب. وأراد أن يلتجيء إلى اللّٰه طلباً برفع هذا العذاب. فأخبره الملائكة أن لا فائدة بعد الآن من طلب الدعاء، وأكدوا له بأن هذا العذاب لن يصيب من كان منهم من المؤمنين. فاستبشر إبراهيم ﷺ.

يتحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرٰهِيمَ بِالْبُشْرٰى قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود، ٦٩)

(بحسب رواية ابن عباس، كان الرسل هم جبريل عليه السلام ومعه اثنانِ من الملائكة. وهم بحسب ما يرويه ميكائيل وإسرافيل)

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ. قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود، ٧٠-٧٤)

وكان إبراهيم عليه السلام يصر في التضرع إلى الله حتى يرفع العذاب عن قوم لوط، لأنه كان يخشى من أن يتعرض المؤمنون - وفيهم لوط عليه السلام - لنفس العذاب الذي سيقع على قوم لوط المنكرين.

﴿إِنَّ إِبْرَهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود، ٧٥)

يُضاف إلى هذا أن قلب إبراهيم كان قد امتلأ بأعلى درجات الرحمة تجاه العباد بعد التحذير الإلهي له بسبب دعائه الله عندما صُعد به إلى السماء أن يهلك العصاة.

بيد أن قوم لوط أولوا رحمة الله ظهورهم تمامًا وطغوا بدرجة استحقوا معها العذاب المحقق؛ لأنهم أصروا في طلب العذاب. وكانوا لا يريدون حتى أن يروا بينهم أناسًا طاهرين. فكانوا يقولون "أخرجوا المتطهرين من بيننا!".

قال الملائكة مخاطبين إبراهيم عليه السلام الذي مُلِئ قلبه رحمة على عباد الله:

﴿يَا إِبْرَهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾(هود، ٧٦)

ويكرر القرآن الكريم هذه الحقيقة نظرًا لأهميتها في الآيات ٢٤ - ٣٠ من سورة الذاريات.

زيارة إبراهيم عليه السلام لسيدنا إسماعيل:

تزوج إسماعيل عليه السلام بفتاة من قبيلة جُرْهُم. وكانوا يحبونه كثيرًا. ومنهم تعلم اللغة العربية. ولما توفيت السيدة هاجر والدة إسماعيل عليه السلام، دُفنت في مكان يُقال له "الحجر" إلى جوار الكعبة.

يروي الحديث النبوي الشريف قصة زيارة إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل عليه السلام بقوله:

بعد أن تزوج إسماعيل عليه السلام، ذهب إبراهيم عليه السلام لرؤية ابنه. ولكنه لم يجد إسماعيل عليه السلام. فسأل امرأته عنه فقالت:

«- خرج يبتغي لنا».

ثم سألها إبراهيم ﷺ عن معيشتهم وهيئتهم فقالت:

«- نحن بشر، نحن في ضيق وشدة» فشكت إليه!

فقال إبراهيم ﷺ:

"- فإذا جاء زوجك فاقرئي ﷺ، وقولي له لِيُغَيِّرْ عتبة بابه!"

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً (أي فهم مما شعر فيه من ريح طيبة بقدوم والده وذهابه)، فقال:

"- هل جاءكم من أحد؟" قالت:

"- نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فَسَأَلنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة"

قال (إسماعيل ﷺ):

"- فهل أوصاك بشيء؟"

قالت (زوجته):

"- نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك"

قال (إسماعيلُ لزوجته بعد أن فهم لطيفة أبيه):

"- ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارِقَكِ، إالحقِي بأهلك"،

فطلقها، وتزوج منهم أخرى،

فَلَبِثَ عنهم إبراهيم - ﷺ - ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته (الجديدة التي تزوجها إسماعيل ﷺ) فسألها عنه،

قالت: "- خرج يبتغي لنا"

قال إبراهيم ﷺ:

"- كيف أنتم؟" وسألها عن عيشهم وهيئتهم،

قالت: "- نحن بخير وسعة"، وأثنت على الله.

فقال إبراهيم ﷺ:

"-ما طعامكم؟" قالت: "اللحم"،

قال إبراهيم ﷺ:

"فما شرابكم؟" قالت: "الماء".

فقال (إبراهيم ﷺ يدعو الله لهم):

"اللَّهم بارك في اللحم والماء!".

ثم قال لزوج إسماعيل ﷺ:

"- فإذا جاء زوجك فاقرئي ﷺ، ومريه يثبت عتبة بابه"،

فلما جاء إسماعيل (أحس مرة أخرى بقدوم والده من العطر الجميل الذي استشعره في البيت) قال:

"- هل أتاكم من أحد؟" قالت:

"- نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته" ثم تابعت حديثها فقالت:

"-فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير،

فقال إسماعيل ﷺ: "- فهل أوصاك بشيء؟"،

فقالت زوجته:

"- نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك!"،

فقال إسماعيل ﷺ:

"- ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك". (البخاري، الأنبياء، ٩)

نفهم من هذه القصة أن الشكر وسيلة لاستمرار النعمة وزيادتها. أما الجحود فهو استصغار النعم التي أنعم الله، والشكوى من ذلك. وتكون النتيجة أن النعم تقل ويحرم الإنسان منها.

بناء الكعبة:

عاد إبراهيم ﷺ بعد سنوات إلى مكة. وعانق إسماعيل ﷺ فأزالا شوق كل منهما للآخر. وقال سيدنا إبراهيم لابنه:-

"لقد أمر الله أن نبني بيتًا. وسوف تساعدني في بناء ذلك البيت!"

فحمل إسماعيل ﷺ وجبريل ﷺ الحجارة. وقام إبراهيم ﷺ ببناء جدران البيت. وكان حجر المرمر الذي طبع عليه أثر قدم إبراهيم ﷺ في مقام إبراهيم، يقوم بوظيفة المصعد أثناء عملية البناء. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإسماعيل رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)

وتذكر الروايات عن بناء الكعبة أن سيدنا آدم التقي بحواء بعد خروجهما من الجنة في الأرض وأن مكان لقائهما كان أرض عرفات، وأنهما سارا معًا ناحية الغرب حتى وصلا إلى المكان الذي توجد فيه الكعبة. وهناك أراد آدم أن يتعبد شكرًا لله على لقائه بحواء. ولكن يتضرع إلى الله أن يعطيه عمودًا من نور مثل الذي كان في الجنة ليطوف حوله؛ فإذا بعمود النور يتجلى ويبدأ آدم بالتعبد بالطواف حوله.

وظل عمود النور في موضوعه إلى أن اختفى في عصر النبي شيت، وظل مكانه حجر أسود اللون. فقام نبي الله شيت بتشييد بناء حجري من أربعة زوايا على المكان الذي يوجد به الحجر. وقام بوضع الحجر الأسود في أحد أركان البناء. وهذا الحجر هو الحجر الأسود المعروف لنا اليوم.

وعندما جاء طوفان نوح دُفن هذا البناء تحت الرمل، وظل على هذا مدةً طويلةً. فذهب سيدنا إبراهيم بأمر من الله إلى الموضع الذي توجد فيه الكعبة واستقر فيه إسماعيل عليه السلام وأمه. وبدأ بعد ذلك إسماعيل عليه السلام وأبوه استجابة لأمر الله في الحفر في الموضع الذي توجد فيه الكعبة. وإذا به يجد القواعد التي وضعها سيدنا شيت من قبل. فأقام إبراهيم عليه السلام الكعبة الموجودة اليوم. وتعبر الآية الكريمة عن هذا بجملة "يرفع القواعد من البيت".

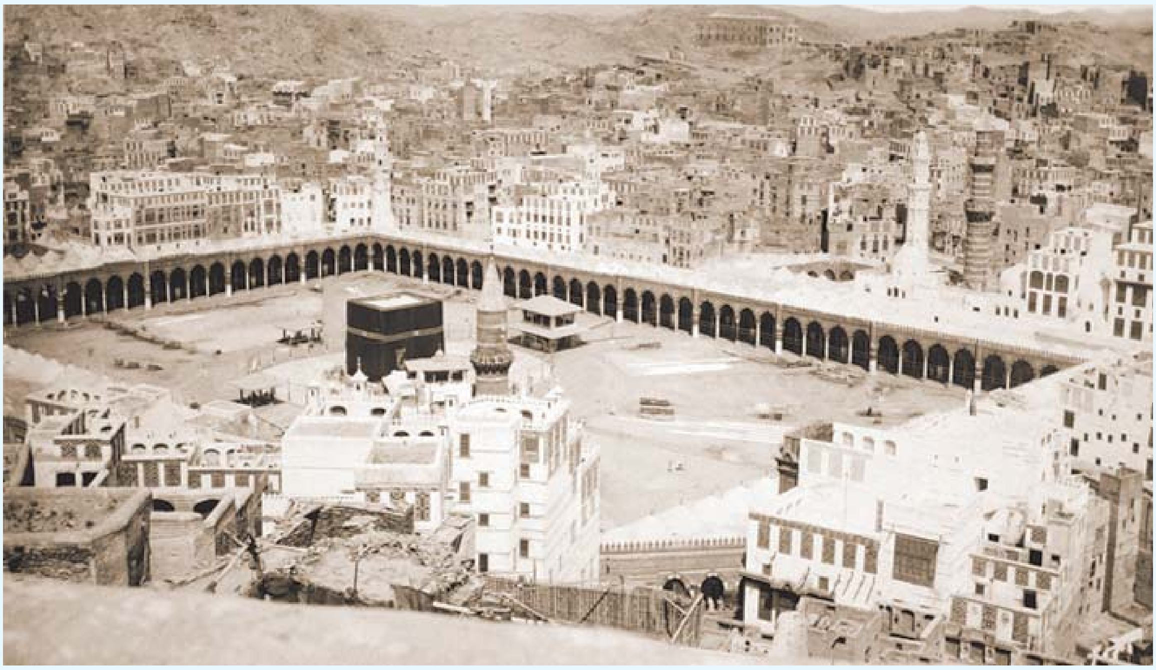
وبعد أن أتم إبراهيم عليه السلام بناء الكعبة توجه إلى الله داعيًا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة، ١٢٦)

إن الله يرزق المنكرين أيضًا في الدنيا ويمكنهم من الاستفادة من نعمه كما يريدون. فالنعم الدنيوية ليست مرتبطة بإيمان العبد وعبادته، بل يعطيها الله للمؤمن والكافر معًا.

والحقيقة أن النعم الدنيوية هو اختبار. ويرتبط بنتيجة هذا الامتحان هل الإنسان محب للخير أو لا. فإن كانت الثروة والسلطة وسيلة للعبودية لله، فهي إذن لَمصدر السعادة في العالمين. أما إن كانت سببًا للطغيان والانحراف، فإنها تمحو الحياة الأبدية وتجلب كارثة بدلاً من السعادة.

لقد استمر إبراهيم عليه السلام في دعائه على هذا النحو:



﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة، ١٢٨)

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة، ١٢٩)

ويقول رسول اللَّه ﷺ في حديث يتعلق بهذا الدعاء فيقول:

"**...أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي آمِنَةَ الَّتِي رَأَتْ**" (أحمد بن حنبل، ٥، ٢٦٢؛ الحاكم، المستدرك، ٢، ٤٥٣)

وبذلك يمتد النسب الطاهر لشمس العالمين وفخر الكائنات نبينا ﷺ إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام على الشكل الآتي:

١. **محمد** ﷺ
٢. **عبد اللَّه**
٣. **عبد المطلب**، (وكان يقال له شيبة الحمد)
٤. **هاشم**
٥. **عبد مناف**، (واسمه الأصلي مغيرة)
٦. **قصي**، (وكان يسمى أيضاً زيد)
٧. **حاكم**، (كلاب)
٨. **مرة**
٩. **كعب**
١٠. **لؤي**
١١. **غالب**
١٢. **فهر**، (قريش)
١٣. **مالك**
١٤. **النَّضْر**
١٥. **كنانة**
١٦. **حزيمة**
١٧. **مدركة**
١٨. **إلياس**
١٩. **مُضَر**

٢٠. **نزار**

٢١. **معاد**

٢٢. **عدنان:**

تمتد السلسلة الطاهرة للرسول حتى عدنان. وعدنان من نسل إسماعيل عليه السلام غير أن الفارق الزمني بينهما غير معروف.

خلاصة القول أن انحدار الأنبياء من نسل سيدنا إبراهيم عليه السلام وتشريف فخر الكائنات ونور الوجود محمد المصطفى ﷺ على وجه الخصوص، لهو دلالة على المكانة الاستثنائية الخاصة لإبراهيم عليه السلام في تاريخ الرسل.

وتمتلئ الكعبة و"مناسك الحج" بالخواطر الروحانية الخاصة بسيدنا إبراهيم عليه السلام والتي ستستمر حتى قيام الساعة. إضافة لهذا يذكر ملايين المسلمين في التحيات في الصلوات الخمس يوميًّا سيدنا إبراهيم - صلاة الله عليه - مقترنة بالصلاة على سيدنا النبي محمدٍ ﷺ على هذا النحو:

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

و بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

في العالمين انك حميد مجيد

إسماعيل عليه السلام

من الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم. أطلق عليه اسم "ذبيح الله". غادر إبراهيم عليه السلام اليمن وصار نبيًّا على قبيلة جرهم التي هاجرت من الحجاز. وتعني كلمة إسماعيل "الطائع لله". ومقابلها في العبرية "ايسموايل". أما العرب فنطقوه "إسماعيل".

نشأ سيدنا إسماعيل بين أطفال قبيلة جرهم، وتعلم منهم رمي السهام. ولما بلغ سن الشباب كان ماهرًا للغاية في رمي السهام فكان يصيب كل ما يرمي عليه.

وقد أتى رسول الله ﷺ أثناء مسابقة رمي السهام إلى جوار مجموعة من قبيلة أسلم وقال لهم:

"ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلاَنٍ.." (البخاري، الأنبياء، ٩)

وعندما توفي إبراهيم عليه السلام حمل إسماعيل عليه السلام مسئولية خدمة الكعبة والحج. وكان أول شيء فعله أنه وضع غطاءً للكعبة. لقد وهبه الله النبوة، وأرسله إلى مكة وقبيلة جرهم التي تقيم في أطرافها وقبائل العماليق واليمن وأطراف مأرب وحضرموت. ظل سيدنا إسماعيل يدعو قومه للإسلام مدة خمسين عامًا. فآمن به بعضهم، ولم يؤمن به بعضهم الآخر. غير أن عدد من آمنوا به كان أقل، واتسم إسماعيل عليه السلام بالصبر والثبات في آداء مهمته.

وتحكي الآية كيف كان سيدنا إسماعيل نبيًّا صادقًا، وكان يأمر بالصلاة والزكاة، وأنه نال رضاء الله:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلوةِ وَالزَّكوةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم، ٥٤-٥٥)

معجزاته:

١- تحويله لأرض شائكة إلى الخضرة،

٢- إعطاء الأغنام العقيمة الحليب بدعائه،

٣- أن تكون أصواف الأغنام كالحرير،

٤- تحول التراب بقربه إلى الطحين بدعائه،

٥- خروج ماء زمزم بسببه، واستمرار تدفقها إلى يوم القيامة...

أوصافه الفارقة: الصبر، الحلم والتسليم.

من أهم الصفات التي اتصف بها إسماعيل عليه السلام:

"اتصف انه كان نبيًّا شديدَ الصبر، حليمًا، مسلمًا خاضعًا لأمر الله"

إسحاق عليه السلام

هو ابن سيدنا إبراهيم من سارة. وكانت والدتنا سارة قد تعجبت أشد العجب عندما علمت أنها ستلد إسحاق ﷺ وقالت:

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (هود،٧٢-٧٣)

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

(الصافات، ١١٢-١١٣)

وقد امتدح القرآن الكريم إسحاق ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص، ٤٥ - ٤٧)



بُعث إسحاق عليه السلام بعد وفاة أبيه نبيًّا على الأقوام في الشام وفلسطين. وقد اصطفاه الله عز وجل وجعل الخير معه. ولما بلغ الكبر ضعفت عيناه، وفقد البصر. ولد لإسحاق عليه السلام ولدان توءم. هما يعقوب والعيص.

ظل إسحاق عليه السلام حتى نهاية حياته.يدعو لولديه كلاً على حدة. وتضرع إلى الله عز وجل أن يأتي من ذرية يعقوب الأنبياء، وأن يأتي من ذرية العيص الملوك والسلاطين.

وتذكر إحدى الروايات أن سيدنا إسحاق توفي عن عمر ناهز مائة وستين عامًا في مكان قريب من القدس في المنطقة التي توجد فيها فلسطين في اليوم الحاضر، وأنه دُفن إلى جانب قبر أبيه إبراهيم عليه السلام.

معجزاته بحسب الروايات المختلفة

قال له قومه:

"- إن لم تشهد الحيوانات على أنك نبي فلن نؤمن لك!"

فقال إسحاق عليه السلام للحيوانات:

"- يا أيتها الحيوانات! أخبروهم من أكون!"

فقال الثعلب: "أنت نبي اللَّه!"

وقال الغزال: "أنت ابن خليل اللَّه!"

وقال التيس: "أنت نبي اللَّه! من لا يؤمن بك يذهب إلى النار!"

وأيضاً أثناء تبليغه للدين في القدس قيل لإسحاق عليه السلام:

"- إن حركت هذا الجبل عن مكانه آمنا بك!"

فاهتز الجبل بهيبة كبيرة وآمن به شعب القدس. وبينما كان يدعو قومه للإيمان جاءه مرة أحدهم بجلود للماشية وقال له:

"-أحي هذه!"

فأخذها إسحاق عليه السلام وملأ جوفها بالتراب ودعا اللَّه. فعادت جميعها إلى الحياة.

ومن معجزاته أيضاً أن يمرر يده على الخراف فتحبل.

وبحسب إحدى الروايات، فإن إسحاق عليه السلام مَاتَ بِالشَّامِ، وَعُمُرُهُ مِائَةٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَدُفِنَ عِنْدَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، عليه السلام. (ابن الأثير، الكامل، ١، ١١٤)

عليه السلام!...

أسئلة للتقييم

أ- أجب عن الأسئلة الآتية

١ - لِمَ أُطلق اسم "أبو الأنبياء" على إبراهيم عليه السلام؟

٢ - لماذا تحول حاكم قبيلة كلدان إلى الحض على صنع الأصنام وادعاء الألوهية بعد أن كان حاكمًا عادلاً في البداية؟

٣ - ما السبب الذي من أجله أقدم نمرود على قتل حوالي مائة ألف طفل فترة حكمه؟

٤ - عن أي شيء سَيُحَاسَب من لم يصل إليهم نبي في أرض المحشر؟

٥ - هل يمكن للإنسان أن يصل إلى عقيدة التوحيد عن طريق التفكير؟ وضح ذلك مستشهدًا بمثال من حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام؟

٦ - آثر إبراهيم عليه السلام أن يتحدث إلى من حوله عن استحالة أن تكون الأصنام موجودات تُعبد قبل أن يحدثهم عن الدين الحق. وضح سبب اتباع إبراهيم عليه السلام طريقةً كتلك معهم؟

٧ - لماذا علق إبراهيم عليه السلام المعول في عنق الصنم الأكبر، بعد أن قام بتحطيم كافة الأصنام الموجودة في المعبد؟

٨ - قارن بين الدعاء الذي دعاه نوح عليه السلام لابنه والدعاء الذي دعاه إبراهيم عليه السلام لأبيه؟

٩ - بِمَ أمر الله عز وجل النار عندما أُلقي فيها إبراهيم عليه السلام؟

١٠ - لماذا لم يتحول نمرود للإيمان على الرغم من أنه رأى معجزة واضحة وضوح الشمس؟

١١ - ماذا فعلت والدتنا سارة حتى لا تتعرض لظلم الفرعون عندما أخذوها لقصره؟

١٢ - أي حادثة تمثل عملية "رجم الشيطان" التي هي ركن من أركان الحج؟

١٣ - إلى أي واقعة ترجع "تكبيرات التشريق" التي تبدأ من فجر يوم عرفة وتستمر حتى صلاة عصر رابع أيام العيد؟

١٤ - تحدث عن الحادثة التي وقعت في حياة إبراهيم عليه السلام وكانت أساسًا لمؤسسة الوقف في يومنا الحاضر؟

١٥ - رفض إبراهيم عليه السلام مساعدة ثلاثة ملائكة جاؤا إليه وهو على وشك الإلقاء في النيران، وعندما قال له جبريل "لماذا لا تطلب النجاة من الله؟" أجابه قائلاً "هو يعلم بحالي! بأمر من تستعر النيران؟ عملية اشتعال النيران بِأمر مَنْ؟"; وضح أي حالة روحانية كان عليها إبراهيم عليه السلام في هذه اللحظة المروعة؟

١٦ - أي صفة من صفات إبراهيم عليه السلام ذكرت الآية التي تحدثت عنه عليه السلام؟

١٧ - اشرح في ضوء معنى التوكل مقولة مولانا "الدخول إلى طريق الله يقتضي الدخول إلى النار. لكن تدارس مع نفسك قبل أن تُلقى في النار إن كانت بك الأوصاف "الإبراهيمية" أم لا. لأن النيران تعرف "إبراهيم" ولا تحرقة"؟

١٨ - كم ابنا لإسحاق عليه السلام؟ وأي دعاء دعا لهم؟

١٩ - عن أي من صفات إسحاق عليه السلام تحدثت الآيات ٤٥ - ٤٧ من سورة ص؟

٢٠ - أي أحاسيس انتابت والدتنا سارة، التي لم تنجب وفقدت الأمل في هذا، وهي تقول ﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾ (هود، ٧٢)؟

٢١ - ماذا نفهم من التعبيرات الواردة في الآيتين الكريمتين ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾ (الصافات، ١١٢-١١٣) واللتانِ تخصان إبراهيم وإسحاق عليهما السلام؟

ب- أكمل مكان النقاط فيما يلي

١ - أنعم الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام عندما خاطبه بقوله (خليلي)، من أجل هذا أطلق عليه اسم ....

٢ - عندما سُلط الفرعون على والدتنا سارة، ظن أن .... بها وخاف خوفًا شديدًا. لهذا السبب أطلق سراحها حتى يتخلص منها، وأعطاها .... هدية.

٣ - كان إبراهيم عليه السلام يطعم ويسقي كافة الناس، من أجل هذا أطلق عليه اسم ....

٤ - كان دعاء .... السبب في خروج ماء زمزم.

٥ – أرسل إسحاق عليه السلام نبيًّا على قومي .... و..................................

٦ – دعا إسحاق عليه السلام أن يأتي الأنبياء من نسل ابنه ....

٧ – دعا إسحاق عليه السلام أن تنحدر .... و.............................. من نسل ابنه العيص.

ج- ضع إشارةً علي الإجابات الصحيحة للأسئلة الآتية

١ – أيٌّ مما يأتي ليس طريقاً اتبعه إبراهيم عليه السلام وهو يدعو لعقيدة التوحيد؟

أ – بدأ بأقرب الناس إليه مستخدمًا لسانًا حلوًا وكلمات لينة وأسلوبًا رقيقًا.

ب – ظل يدعو باستمرار من أجل هداية من لم يؤمنوا .

ج –لم يترك فرصة ليتحدث، ويبين عجز الآلهة التي يؤمن بها عبدة الأصنام، وأنها لا تنفع في شيء.

د – كسر الأصنام التي في المعبد حتى يعبدها عدد قليل ولا ينغمسوا في الإثم إلا قليلاً.

٢ – كيف اختبر إبراهيم عليه السلام في نفسه؟

أ – دخل في حرب مع نمرود.

ب – أُلقي في النيران.

ج – كان يتحدث إلى الناس عن الدين الحق في ظل ظروف صعبة.

د – بإقدامه على ذبح إسماعيل عليه السلام.

٣ – تعجب نمرود وتأثر بعد ما رأى معجزة تحول النيران إلى بستان. وقال لإبراهيم عليه السلام: "سأذبح لربك أربعة آلاف بقرة" وذبح بالفعل أربعة آلاف بقرة. وعدل بعد ذلك عن التعرض لإبراهيم عليه السلام غير أنه لم يؤمن. أي مما يأتي ليس سببًا لتصرف النمرود هذا؟

أ – خوفه من ضياع ملكه وسلطنته.

ب – لم يستطع التغلب على كبره وعناده على الرغم من معرفته الحقيقة.

ج – زاد عناده وبالتالي لم يقترب مِن الإيمان لأن الأبقار التي ذبحها لن تُتَقبل.

د – خشيته من فقد اعتباره عند قومه.

٤ - كيف فهم إبراهيم ﷺ أن أولئك الذين جاؤا إليه في ملابس بشرية كانوا ملائكة؟

أ - فهم من الملابس التي يرتدونها.

ب - فهم من عدم تحدثهم كثيرًا.

ج - فهم من عدم تناولهم الطعام.

د - فهم ذلك من وجوههم العابسة

٥ - كان نمرود حاكمَ قبيلة كلدان في بداية حكمه رجلاً عادلاً منصفًا يعرف الحدود. بيد أنه تخطى حدوده بعد ذلك فأصابه الكِبْر والغرور ووصل به ذلك إلى أن ادعى الألوهية. أيٌّ مما يأتي لم يكن سببًا وراء تصرفه هذا؟

أ - اتساع ثروته وامتداح القوم الذين حوله بشدة جعله يفسد.

ب - اتساع ثرائه وسلطنته ولدت عنده مفهوم أن قوته أعلى من قوة قوى الطبيعة.

ج - اتباع نمرود متاع الدنيا الزائل، جعله أكثر تعلقًا بالدنيا; أما خوفه من فقد سلطنته فقد جعله أشد ظلمًا ووصل به إلى حالة لا يعرف فيها نفسه.

د - غار نمرود من نبوة إبراهيم ﷺ وحسده على النعم المعنوية التي حازها، وأدى هذا الحسد إلى إصراره على ادعاء الألوهية.

٦ - تأثر إبراهيم ﷺ وهو يبحث خالقه في البداية عندما رأى النجم، ثم تركه ونظر إلى القمر ثم تركه وتأثر بالشمس، وفي النهاية وصل لقناعته أن أيًا من هذه لا يصلح أن تكون إلهًا له. أيٌّ مما يأتي يجب أن يكون درسًا مستفادًا من هذه الواقعة؟

أ - إذا بدأ الشخص الذي ليس لديه عقيدة بالبحث عن خالقه بالنجوم، فإنه سيجد خالقه الحقيقي.

ب - لأن الواقعة هنا أخذت شكلاً تمثيليًا فلا يمكن لموقف كهذا أن يحدث في الواقع.

ج - معرفة إبراهيم لربه بعد أن مر بعدد من الشكوك يُظهر إلى أي مدى صعوبة الايمان.

د - قد يجد الإنسان الله الخالق ومن ثم يعرفه حتى إن لم يصل إليه أي دين الهي، ويكون ذلك عن طريق التفكر في المخلوقات الموجودة في الطبيعة

٧ - ماذا يُعنى بـ "أبو الأضياف"؟

أ - أبو الأيتام.

ب - أبو المظلومين.

ج - أبو الفقراء.

د - أبو الضيوف.

٨ - إلى من ذهب الشيطان بالترتيب كي يثني إبراهيم عليه السلام عن الإقدام على ذبح إسماعيل عليه السلام وهو ذاهب لتنفيذ هذا الأمر؟

أ - إبراهيم عليه السلام - إسماعيل عليه السلام - والدتنا هاجر.

ب - والدتنا هاجر - إسماعيل عليه السلام - إبراهيم عليه السلام.

ج - إبراهيم عليه السلام - والدتنا هاجر - إسماعيل عليه السلام.

د - والدتنا هاجر - إبراهيم عليه السلام - إسماعيل عليه السلام.

٩ - لم يكن في قلب إبراهيم عليه السلام وهو يلقى به إلى النيران ذرة خوف أو قلق. أيٌّ مما يأتى كان سببًا لذلك؟

أ - لأنه كان مستسلماً لقدر الله عز وجل متوكلاً عليه.

ب - كان يعلم أن جبريل سيساعده.

ج - كان يعلم أن النيران ستتحول إلى بستان من الورود.

د - كان يفكر بأنه سيحترق لا محالة وأنه ليس لديه طاقة ليقف أمامهم.

١٠ - بعد أن قام إبراهيم ﵇ بتحطيم الأصنام في المعبد، قام بتعليق الفأس في عنق كبيرهم، وعندما جاء قومه قال لهم "لم يكن الصنم الكبير يرغب أن يُعبد صنم غيره ولهذا السبب ربما يكون هو من كسر باقي الأصنام. إسألوه إن أردتم!" أيَّ تناقض أراد إبراهيم ﵇ أن يظهر أن قومه وقعوا فيه بتصرفه وحديثه هذا؟

أ - أراد أن يبين أن الأصنام التي يثقون فيها ويأملون مساعدتها، قد تعرضت للكسر بسرعة.

ب - أراد أن يبين أن الأصنام مثل الإنسان لها أن تشعر بالحسد والإحسان.

ج - أراد أن يبين أن الأصنام الضخمة لن تستطيع أن تؤذي تلك التي هي أصغر منها حتى إن أرادت ذلك.

د - ظهر عجز الاصنام التي يعتقد الناس أن لها قوة معنوية والتى يرجون منها العون، عندما لم تستطع أن تقوم بأقل حركة.

١١ - أي تصور يمكن أن يصل إالينا عن المنطقة التي عاش فيها إسماعيل ﵇ في ضوء التفكير في كل المعجزات التي كانت منه ؟

أ - أن المنطقة كانت مزدحمة للغاية بالسكان.

ب - كانت منطقة يقتات أهلها من البحر والغابات.

ج - كانت منطقة قامت فيها حضارة من اعظم الحضارات في التاريخ.

د - كانت منطقة جدباء قاحلة مارس فيها القوم حرفتي الزراعة وتربية الحيوانات..

١٢ - أي معجزة من معجزات إبراهيم ﵇ حدثت قبل آلاف السنوات ومازالت موجودة حتى الآن يشاهدها الناس بوضوح، وسيظل الناس يشاهدونها حتى يوم القيامة؟

أ - خضوع سيدنا إسماعيل ﵇ لأبيه.

ب - ماء زمزم الذي أخرجه إسماعيل ﵇ بلطف من الله، ولن يجف ماؤه.

ج - قذف سيدنا إسماعيل للشيطان الذي حاول أن يوسوس له.

د - دعوة سيدنا إسماعيل ﵇ التي تحولت على إثرها الصحراء إلى أرض مليئةٍ بالجبال.

١٣ - عايش إسماعيل عليه السلام أحداثًا حدث خلالها تزاوج بين تلك الأحداث و ما أظهره من خصال جميله تجاهها. أيٌّ من الخصال الآتية خطأ؟

أ - توكله على الله عز وجل وخضوعه له وظهر ذلك في السلوك الذي أظهره تجاه والده أثناء حادثة الذبح.

ب - فراسته وبصيرته فلم ينخدع بوسوسة الشيطان وهو ذاهب كي يُذبح وقام بقذفه بالحجارة.

ج - رحمته وحلمه فلم يزل يدعو لقومه بالهداية ناظرًا إليهم بعين الرحمة تجاه ما ينزل بهم من مصائب.

د - مهارته وقدرته فقد تحول الرمل إلى دقيق بدعوته الله عز وجل.

١٤ - أيٌّ مما يأتي لا يعبر عن حال الشخص الذي يتوكل على الله حق توكله؟

أ - شخص فعل كل ما بوسعه وأصبح قلبه مطمئنًا بتوكله على الله.

ب - شخص أراد شيئًا به خير، وجهز نفسه لأي نتيجة.

ج - عندما لم يتحقق ما أراد، شعر بخيبة الأمل ودفع بنفسه إلى اليأس والحزن.

د - شخص متفائل دائمًا على الرغم من علمه أنه لم يعد هناك طريق يصل به إلى أهدافه الخيرة.

١٥ - أي مما يأتى لا يمكن أن يكون نتيجة من تلك التي في الآيات :

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص،٤٥-٤٧)؟

أ - أن إبراهيم واسحاق عليهما السلام كانا يفكران في الحياة الآخرة، وأنهما كانا من عباد الله المخلصين.

ب - أن الله - تعالى - اختار إبراهيم واسحاق رسولين في الأزل.

ج - أن إبراهيم واسحاق عليهما السلام أخلصا العبودية لله.

د - أن إبراهيم واسحاق عليهما السلام هما خير الأنبياء وأنهما حازا أعلى منزلة بينهم.

١٦ - ما الأسباب الظاهرة وراء كون اسحاق ﷺ مظهرًا للبركة واللطف الإلهي بمجيء أناسٍ صالحين وأنبياء من نسله؟

أ - لأنه كان نبيًّا اصطفاه الله ﷻ في معيته.

ب - لأن نبينا عليه الصلاة والسلام جاء من نسله.

ج - لأن أباه إبراهيم ﷺ دعا له بذلك.

د - لأنه سيدنا اسحاق ﷺ كان الإبن الأخير لسيدنا إبراهيم ﷺ.

١٧ - أي مما يأتى ليس من معجزات اسحاق ﷺ؟

أ - حديث الحيوانات المستانسة التي وضع يده عليها.

ب - شهدت الحيوانات أنه رسول الله.

ج - أَحيى بإذن الله ﷻ الأبقار من جلودها.

د - حرّك الجبل نزولاً على رغبة قومه



حضرة لوط

عليه السلام

و

حضرة ذو القرنين

عليه السلام

النبي الذي ظل يدعو قومه الطغاة الفاسقين للهداية حتى اللحظة الأخيرة

حضرة سيدنا لوط

عليه السلام

و

الذي حمل راية التوحيد من الشرق إلى الغرب

حضرة سيدنا ذو القرنين

عليه السلام

لوط عليه السلام

هو ابن هارا أخي إبراهيم عليه السلام. ذكر لوط عليه السلام إحدى وعشرين مرة في آيات القرآن الكريم المختلفة. كان سيدنا لوط أول من آمن بسيدنا إبراهيم عليهما السلام، وهو النبي الذي نال شرف الهجرة معه في سبيل الله. اتبع شريعة سيدنا إبراهيم. كان عابدًا، كريمًا، صابرًا، تقيًّا وكان يكرم الضيف. كان يفلح الأرض ويأكل من عمل يده.

غادر لوط عليه السلام أرض العراق بصحبة عمه سيدنا إبراهيم قاصدًا زيارة سوريا وفلسطين ومصر رغبة منه في اكتساب الخبرة في دعوة الناس للدين. أرسله الله عز وجل بعد ذلك رسولاً إلى قوم سدُوم، وهم قوم عصاة تربطه بهم صلة قرابة، بُغية إصلاحهم وهدايتهم إلى الرشاد.

قال الله عز وجل في لوط عليه السلام وقومه:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات، ١٣٣)

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء، ٧٤-٧٥)

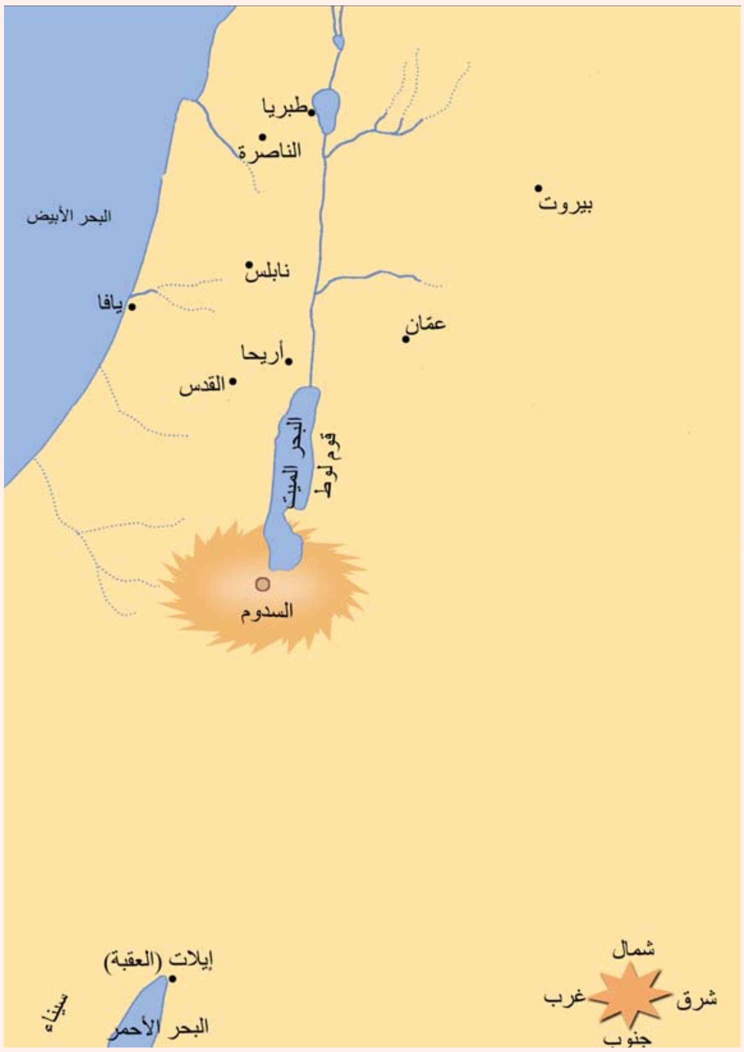
﴿وَإِسْمعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام، ٨٦)

بدأ لوط عليه السلام بعد أن حمل أعباء النبوة، يدعو قوم سَدُوم لدين الله. ودعاهم لعبودية الله وأن يتخلصوا من الزلة التي هم فيها.

قوم سَدُوم:

عاش قوم سَدُوم في المنطقة الواقعة بين العراق وفلسطين والتي يطلق عليها اسم الضفة الشرقية للأردن.

كان قوم سَدُوم طغاة، فاسدي الأخلاق. وقد ارتكبوا من أنواع الفسوق ما لم يره أحد في أمة من الأمم السابقة. وقد تمادوا في ارتكاب هذه الأشياء الكريهة البغيضة، وحولوا الفجور الذي لم يعرف عندهم حدوداً إلى مهنة. وكانوا يُسكتون ويستخِفّون من حسن خلقه، وأراد ردهم عما يفعلون، بدلا من أن يستمعوا إليهم. وكانوا يقولون:



-"ليخرج المتطهرون من بيننا!..".

نُسيت فيهم أحاسيس الشرف والعفة والحياء، وظهرت فيهم دناءةً لا نراها بين الحيوانات فاستحقوا قول الله عز وجل في القرآن الكريم "بل هم أضل". وها هو لوط عليه السلام يكلف بدعوة هؤلاء القوم التعساء إلى الهداية؛ فأخذ على عاتقة استنهاضهم ليل نهار حتى يدركوا الحقيقة:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ

الْعَالَمِينَ. أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء، ١٦١-١٦٦)

كذّب قوم سَدُوم رسالة لوط عليه السلام ولم يستجيبوا لدعوته إلى الدين الحق. فقص فبين لهم بناءً على هذا عاقبة فجورهم الذي يفعلون:

﴿...قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف، ٨٠)

لقد حذّرهم من أن ما يفعلونه من أفعال سيئة لن يجلب إليهم إلا الكارثة. أما قوم سَدُوم فلم تكن لديهم النية للتراجع عن فجورهم، وسخروا من لوط عليه السلام وهمُّوا بطرده من بلدهم. وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الواقعة على النحو الآتي:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف، ٨٢)

لقد كان التطهر، وأن يعيش الإنسان عفيفًا، جرمًا بالنسبة لقوم فاجرين فاسقين مثل هؤلاء القوم. فكانوا يستمدون غذاءهم المعنوي من القذارة، من أجل ذلك كانوا ينزعجون من المتطهرين، وهددوا لوطًا عليه السلام بقولهم:

﴿...قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (الشعراء، ١٦٧)

فذكرهم سيدنا لوط مرة أخرى بعذاب الله:

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (القمر، ٣٦)

لم يدرك قوم لوط عليه السلام كنه التهديد الإلهي، لأنهم لم يقدروا على إدراك هول الكارثة التي ستحل بهم. وقالوا بجرأة منحهم إياها سفههم:

﴿...ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (العنكبوت، ٢٩)

الصيحة (الصوت الرهيب) ومطر الحجارة الحامية

لم يكترث قوم سَدُوم على الرغم من تحذيرات لوط عليه السلام لهم من العذاب الإلهي. حتى أنهم وصلوا إلى أبعد حدود الفجور بطلبهم العذاب؛ وكانت النتيجة أنهم استحقوا العذاب العظيم.

وعندما صار الحال إلى ما صار إليه، لجأ لوط عليه السلام إلى ربه، وطلب منه العون:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء، ١٦٩)

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت، ٣٠)

و كان دعاء لوط عليه السلام هو الحل الأخير. فأرسل الله جل جلاله الملائكة لهلاك قوم لوط. ولكن هؤلاء القوم الفاسقين حاولوا أن يتحرشوا حتى بالملائكة التي جاءت إلى سيدنا لوط في صورة البشر. يصور القرآن الكريم هذه الحادثة على النحو الآتي:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود، ٧٧)

خاف لوط عليه السلام أن يتحرش القوم بالملائكة التي جاءت إليه في صورة فتيان شباب، وكان يظن أنهم بشر. لأن الانحراف الجنسي كان منتشرًا في قوم لوط المنكرين كما بينت الآيتان ٨٠ و١٨ من سورة الأعراف. ولما جاء الملائكة إلى لوط:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود، ٧٨)

يرى بعض المفسرين أن البنات اللاتي عرض لوط عليه السلام أن يزوجهن قوم لوط، لم يكن بناته هو، بل كن بنات من قومه. لأنه لم يكن للوط عليه السلام سوى بنتين اثنتين. فقد قصد لوط عليه السلام بقوله "هؤلاء بناتي..". بنات قومه، لأن كل نبي كان يعد كبير قومه وأباهم المعنوي.

إلا أن قوم سَدُوم:

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ. قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود، ٧٩-٨٠)

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود، ٨١)

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود، ٨٢-٨٣)

وتحكي الآيات ٨٥ – ٤٧ من سورة الحجر بشكل أكثر تفصيلاً مجيء العذاب الإلهي:

تحكي الآيات أن هلاك قوم لوط بدأ بصيحة مروعة حدثت مع شروق الشمس، وبدأت السماء بعد ذلك تمطر أحجارًا. (انظر الآية ٣٧، ٤٧)

ويحذرنا الله عز وجل بعد ما حكى عن هلاك قوم لوط على النحو الآتي:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ. وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر، ٧٥-٧٧)

ولأن قوم لوط فعلوا فاحشة مثل إتيان الذكور فقد أسمعهم الله ﷻ في البداية صوتا مروعًا، بعد ذلك جعلت الملائكة عالي بلدتهم سافلها، ثم أمطر فوقهم حجارة لدرجة كانت الأشد في تاريخ إهلاك الأمم، فلم يرسل الله كوارث أشد من تلك التي أرسلها على قوم لوط!..

وتخبرنا الآيات في سورة العنكبوت أنه تركت بعض العلامات تتعلق بهلاك هؤلاء القوم الفاسقين، حتى تكون عبرة للأمم التي ستأتي بعدها:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت، ٣٥)

وقد فُسرت العلامات التي تحدثت عنها الآيات أنها عبارة عن بقايا لبلدتهم الخرِبة، والحجارة التي سقطت من السماء وأنهار تجري شديدة السواد.

زوجة سيدنا لوط عليه السلام وأولاده:

كان لوط عليه السلام متزوجًا من سيدة تدعى" فوات" عندما بعثه الله ﷻ رسولاً. وآمنت هذه السيدة به. وما حدث أن فوات توفيت بعد عشرين عاماً. وتزوج لوط عليه السلام من بعدها امرأة من سَدُوم تدعى واهلة.

غير أنه تبين فيما بعد أن واهلة كانت من المنافقين، وأنها كانت تغض الطرف على كفر قومها وفسقهم. حتى إنها كانت تدعم قومها سرًّا ضد لوط عليه السلام.

وذات ليلة عندما جاء الملائكة المكلفون بإهلاك قومه، في صورة رجال جميلي الوجوه إلى بيت لوط عليه السلام أسرعت واهلة وأخبرت قومها بهذا. أي أنها أهانت لوطًا عليه السلام وكانت النتيجة أنها هلكت مع قومها.

كان للوط عليه السلام بنتان. قبلت هاتان الفتاتان بنبوة أبيهما، وآمنتا به. وقد خرجتا من سَدُوم مع أبيهما ومن آمن به بعدما أهلك الله قوم لوط، ونجوا من العذاب الإلهي.

تَوجَّها بعد ذلك بصحبة أبيهما إلى إبراهيم عليه السلام فزوجهما إبراهيم عليه السلام مع اثنين من المؤمنين من قومه.

أفعال قوم لوط المشينة وأسباب هلاكهم:

١ - عبادة الأصنام.

٢ - إتيان الذكور دون النساء.

يروي ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ يقول:

"مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ" (الترمذي، الحدود، ١٤٥٦/٢٤؛ أبو داود، الحدود ٤٤٦٢/٢٨)

وفي رواية أخرى، أن رسول الله ﷺ كرر ثلاث مرات قوله:

"ملعون من عمل عمل قوم لوط" (أحمد، ١، ٣١٧)

و يحكي نبينا ﷺ ويحذّر الأشخاص عن الأحوال المشينة والمؤلمة التي سيقع فيها الذين يفعلون هذا العمل السيئ:

"مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ نَقَلَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِمْ حَتَّى يُحْشَرَ مَعَهُمْ " (السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ١٨١)

و تحدث مالك بن دينار في هذا الموضوع قائلاً: لم تقدم أمة من الأمم السابقة على فعل اللواط، وكان قوم لوط أول من فعلوا ذلك. والذي يفعل هذا الفعل المخالف لفطرة الإنسان يتعرض لغضب الله وعذابه.



صورة لبحيرة لوط أو كما يطلق عليها أيضا اسم البحر الميت

أعطى الله ﷻ بني آدم الإحساس بالشهوة حتى يتكاثروا ويزداد نسلهم. أما الإقدام على استخدام الشهوة خارج هذه الغاية والحكمة، فسببه جهل الإنسان وانحرافه. وينزل هذا الحال بشرف الإنسان ومكانته إلى مرتبة أدنى من الحيوانات.

٣ - اللواط والقتل؛ كان المنحرفون من قوم لوط إذا أرادوا قتل شخص، أمروا أن يفعل به اللواط، وبذلك كانوا يقتلون الشخص بعد أن يعذبوه.

٤ - كان أهل سدوم يجاهرون بفجورهم، وكانوا يعيبون على كل عفيف. فوصلوا بحالهم هذا إلى أنهم كانوا يتخذون من إخراج الريح بصوت وسيلة علنية للتسلية.

٥ - كانوا يجلسون على قارعة الطريق ومعهم الحجارة والحصى كي يقطعونه، وكانوا يرمون كل من يمر. فإن مر بهم غريب قذفوه هو الآخر وسخروا منه.

٦ - كانوا يحبون النميمة، ونقل الكلام بين الناس.

٧ - كانوا قومًا بخلاء، لا يحبون الإنفاق.

وقد أرشدنا الله ﷻ إلى ضرورة أخذ العبرة من هلاك قوم لوط:

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت، ٣٥).

تروي الآية الكريمة أن ما تبقى من القوم الذين هلكوا سيظل عبرة للناس حتى يوم القيامة.

فالإشارات التي تحملها بحيرة لوط أمر مذهل للغاية. فالوضع الجيولوجي للأراضي في المنطقة حول بحيرة لوط والتي شهدت هذه الحادثة أمر لافت للنظر بحق. فالبحيرة منخفضة عن سطح البحر المتوسط مسافة أربعمائة متر. وتصل أكثر النقاط عمقا في البحيرة

إلى أربعمائة متر. أي أن أكثر النقاط عمقًا في البحيرة تنخفض عن مستوى سطح البحر مسافة ثمانمائة متر. وكأن في هذا إشارة إلى دناءة قوم لوط. و للبحيرة خاصية أخرى، وهي أن نسبة الملوحة في مياهها خمسون في المائة. لهذا السبب لا يمكن للسمك أو النبات أن يعيش فيها. يطلق عليها أيضًا اسم "البحر الميت". ولا تستطيع الحيوانات أيضًا أن تعيش في هذا المكان الملعون وفي هذا عبرة أخرى.

يُرجح أن هذه الحوادث التي عايشها هؤلاء القوم الملعونون والتي تحدث عنها القرآن الكريم قد وقعت في سنوات ١٨٠٠ قبل الميلاد. وقد عثر على أشجار محفوظة لم تتحلل بسبب كثافة نسب الملوحة المتبقية في منطقتي سدوم وجومورا التي وقعت فيها الحادثة. أما بقايا المدينة فقد غاصت إلى أعماق الأرض متأثرةً بغضب الله. وتأخذ البحيرة لون الزفت، وتنبعث من أطرافها رائحة كريهة. تقدم هذه البحيرة بشكلها هذا صورة للإنسانية عن مدى فظاعة الذنوب التي اُرتكبت فوقها.

وتتشابه فاجعة بومباي مع الانتقام الإلهي الذي وقع على مدينتي سدوم - جومورا

هلاك سكان بومباي:

تقع مدينة بومباي التي كانت رمزًا للانحطاط الأخلاقي، في الإمبراطورية الرومانية. فقد جعل الله عالي مدينة بومباي سافلها بسبب انحرافهم الجنسي تمامًا مثل قوم لوط.

تشير الكتابات التاريخية أن سكان هذه المدينة قد وصلوا قبل إهلاكها إلى آخر درجات الانحراف والخلاعة والفجور. فقد تجدد انفجار بركان "فيزوف" Vüzev فجأةً، وكانت نتيجته أن غطت الحمم البركانية المدينة في لحظة واحدة ومسحتها من على الخريطة. وبذلك لم يفر أحد أو ينجو من عذاب الله. فقد قذفت الحمم البركانية هؤلاء الحمقاء وهم يجهرون بالمعصية.

حدثت هذه الفاجعة فجأة. وفي لحظة واحدة كانت قد أحاطت بالفاسقين، وقذفتهم على حالهم الذي كانوا عليه. وظلت بقاياهم على حالها لم يصبها ضرر، فأصبحت واحدة من الصور المذرية للتاريخ حتى يومنا الحاضر.



لحظة موت القوم الكافرين الظالمين. يا لها من صورة من صور العذاب والانتقام الإلهي . فعلى الرغم من مرور ألف وتسعمائة سنه. إلا أن بومباي اليوم أصبحت مثل المعارض للوحات من الفجرة الذين تحجرت أجسادهم. وكأنها صورة ظلية لأناس تحولوا إلى حيوانات!...

و يتحدث القرآن الكريم عن حوادث الهلاك الفجائية المشابهة لتلك الحادثة على النحو الآتي:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس، ٢٩)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم، ٩٨)

هذه هي بقايا بسيطة لأولئك الذين لم يستطيعوا رؤية الحقيقة وحرموا من متابعة وإدراك الحوادث بشكل نفسي طبيعي.

رأى قوم عاد و ثمود اولئك التعساء الفاسقين أن الدنيا و ممالكهم العظيمة المنحوتة في الحجرهي عرش السعادة الذي وُهبوا إياه، فتحولت مدنهم إلى مكان ينعق فيه البوم.

القوم الذين تحولوا إلى الانحراف وحماية النسل:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة، ٩٨)

غفلت الإنسانية أحيانًا كثيرة، في دنيا الاختبار تلك التي يجب على الإنسان أن يظل متيقظًا واعيًا فيها. وتجر هذه الغفلة الناس إلى عاقبة محزنة تدفع بهم إلى الجهل والضلالة. فالدنيا بالنسبة للناس مكان خداع.

والبلاء الذي يقع على الطغاة الذين حادوا عن طريق الإيمان والحق، هو غضب من عند الله. فقد كانت أقوام نوح وعاد وثمود أناسًا متكبرين؛ فهلك فرعون الذي حارب الأنبياء وادعى أنه إله، هلك في حفنة من المياه، ونمرود الذي هزمته بعوضة، وقوم لوط الفاجرين الذين كانت حياتهم أقل دناءة من حياة الحيوانات؛ ألم يأتوا جميعًا ويخرجوا من الدنيا بظلمهم وعصيانهم؟

لقد كان الكفر والفجور والظلم، هي الأسباب الرئيسة لهلاك الأمم عبر التاريخ. إن هلاك الأقوام الكافرة الظالمة، هي صورة مدهشة من صور العذاب والانتقام الإلهي. فعلى الرغم من تعاقب العصور؛ فإن بومباى قد تحجرت، وأصبحت معرضًا للوحات ملؤها العظة لأناس فاجرين. وكأنهم صورة ظليه لأناس تحولوا لحيوانات!..

فلم تبكِ عليهم السماوات، ولم تدمع العيون، ولم تحزن القلوب. بل على العكس ذهبوا بآهات المظلومين ودعائهم إلى مزبلة التاريخ. وأصبحت الآن الأماكن التي كانت فيها سلطنتهم، مكانًا لنباح الكلاب ونعيق البوم.

يزخر تاريخ الكفر والعصيان والجور بنماذج مدهشة من الانتقام الإلهي. فقد قوبل كل من عصى الله وحاد عن الطريق الذي أرشده إياه الأنبياء، قوبل - إن عاجلا أو آجلاً - بتجلي الله الشديد وعذابه الأليم. وهذا الحال قانون إلهي لا يتغير.

وقد أكرم الله ﷻ أنبياءه في المقابل باعتبارهم مصدر الشفاء لجراح المجتمع الذي تكون باتفاق أغراض الناس.

ولكن انفصل الذين انخدعوا بمظهر الدنيا البراق عن الآفاق النورانية التي فتحها لهم الأنبياء، وتحولوا إلى أنقاض مخيفة للتعاسة الأبدية. لقد حولوا مجتمعاتهم إلى حطام، وظنوا أن السعادة فيما ارتكبوا من سفالة، فكانوا هو الخاسرون. ولأنهم لم يستطيعوا إدراك الحكمة من الخلق وأسراره، فقد قلدوا حياة الحيوانات، فكانت النتيجة أنهم تعرضوا للعذاب الإلهي وهلكوا.

فالأهمية التي يحملها العرض والشرف، واستمرار النسل وسلامة النسل البشري، هي نتيجة للقوانين الطبيعية للحياة التي هي نعمة إلهية.

فقد أبدى الأنبياء من آدم عليه السلام جدية كبيرةً للنكاح لضمان سلامة النسل البشري. لأن الحفاظ على النسل، لا يكون إلا بوجود النكاح ومتانته. فيختل نظام الحياة في النسل الذي لم يُربَّ داخل نطاق العائلة؛ ذلك الذي ينشأ خارج نظام النكاح; فيهتز المجتمع من القواعد، وتحكمه الفوضى. فلا جهل ولا حماقة أكثر من أن يتحول الإنسان من السعادة والطمأنية من خلال النكاح، إلى نجاسة الفحش!..

إن تربية جيل أصيل هي السعادة والنموذج العلوي الذي ترغب الإنسانية في الوصول إليه. فالمحن والصعاب التي يواجهها الأب والأم في تربية الأبناء، هي وسيلة تذوب معها ذنوبهم.

ويبين القرآن الكريم بوضوح أن الأمم التي فقدت شعور العبودية لله والاعتبارات المعنوية وقيم الشرف الإنساني مُسحت من على خريطة هذا العالم الذي خلقه الله حتى يكون ساحة للعبادة والعبودية لله تعالى، والقرآن في ذلك هو المرشد الذي يضيء طريق الإنسانية بمشعل الهداية، والذي يجد سبل السعادة الأبدية لها.

ربنا اجعل نعمك التي أنعمت علينا سبباً في رضاك عنا!.. واجعل من ذريتنا أمة منقادةً لك ولحبيبك المصطفى عليه الصلاة والسلام.

آمين!..

ذو القرنين عليه السلام

"ذو القرنين" كلمة عربية. وهي تتكون من اتحاد كلمتي "ذو" و"القرنين". وكلمة "ذو" بمعنى صاحب الشيء. أما كلمة "القرن" فتعني العصر والزمان والشمس. وكلمة "قرنين" هي المثنى لقرن. لذا يمكن ترجمة "ذو القرنين "بـ"صاحب العصرين". وأُطلق عليه هذا اللقب نظرًا لأنه جال الأرض شرقًا وغربًا ولأن الله ﷻ أعطاه أمر النور والظلمة.

وذو القرنين من نسل يافث أحد أبناء نوح عليه السلام . واسمه الأصلي هو الإسكندر. وذكر ذو القرنين وغزواته في شرق الأرض ومغربها في القرآن الكريم، وهناك من الروايات التي تتحدث عن كونه نبيًّا أو وليًّا من أولياء الله.

ويجب علينا عدم الخلط بين ذي القرنين والإسكندر المقدوني. فيذكر التاريخ أن الإسكندر الأكبر ولد في مقدونيا في القرن الثالث قبل الميلاد، وأنه كان أحد طلاب أرسطو، وأنه كان حاكمًا توغل حتى الهند. أما ذو القرنين عليه السلام فقد عاش في عصر إبراهيم عليه السلام حتى أنه حج معه، وكان أحد الذين دعا لهم سيدنا إبراهيم.

وكان ذو القرنين عليه السلام يصنع الدروع ويبيعها، وكان يقتات من عمل يده. وكان ينفق ما زاد عن نفقته على الفقراء.

وقد حارب ذو القرنين عليه السلام الكفار مدةً طويلة. وصنع ذو القرنين سدًّا من الحديد صب عليه النحاس ليكون حاجزًا ضد يأجوج ومأجوج[٦] . عمل ذو القرنين على تبليغ دين الله ونشر عقيدة التوحيد.

عندما كان رسول اللَّه ﷺ يروي قصص الأمم التي مرت على مكة في العهود السابقة لأخذ العبر منها، بدأ اليهود والفارسيون برواية هذه القصص بحسب ما يتناسب مع أهوائهم. وكان في المدينة نفر من اليهود يؤمنون بظهور نبي في آخر الزمان يخرج من بينهم. فكانوا يقولون لمشركي مكة:

"ظهر من بينكم نبي، فإن كان نبياً بحق فاسألوهُ عن أصحاب الكهف، **وذو القرنين** وماهية الروح! فإن حدثكم عن أصحاب الكهف **وذو القرنين** بشكل كامل؛ وشرح لكم بشكل جزئي ماهية الروح فهو نبي بحق؛ فاتبعوه! أما إن لم يخبركم عنها بشيء فهو كاذب!".

ويأتي مشركو مكة إلى سيدنا محمد ﷺ ويسألونه:

"من هم أصحاب الكهف **وذو القرنين** الذي سار بجيوشه إلى المغرب؟ وما هي الروح؟"

٦ هو اسم لقومين ذُكرا في القرآن الكريم . وسوف يظهر هذان القومان المفسدان وينتشروا في الأرض قرب قيام الساعة.

وأمام هذا السؤال، أنزل اللَّه تعالى سورة الكهف. وتحدثت هذه السورةالكريمة عن **ذو القرنين** مبتدئة بقوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾

(الكهف، ٨٣-٨٤) (الألوسي، التفسير، جـ١٦، ص٢٤؛ الواحدي، ص ٣٠٦)

الأوصاف المميزة لذي القرنين عليه السلام:

١ - وهب الله عز وجل ذو القرنين القوة؛ فذهب يغزو في الشرق والغرب، وأقام سد ذي القرنين.

٢ - أُعطى ذو القرنين سمة أمر السحب، وكافة قوى الطبيعة الأخرى.

٣ - وهبه الله العلم والمقدرة. لذلك ملك السلطة والقدرة على التصرف المادي والمعنوي.

٤ - أُعطي لواءين أحدهما أبيض اللون والآخر أسود. وكان ذو القرنين عليه السلام إذا ما غزا نهاراً يجعل مؤخرة الجيش من الجنود تحمل الألوية السوداء فيغلف ويغلب اللون الأسود الجزء الخلفي من الجيش. وبذلك لا يستطيع العدو القادم من الخلف أن يجدهم، ويفقدون طريقهم، ويظلون في الظلمة مغلوبين. أما إذا ما غزا ليلاً، فيجعل الألوية البيضاء في مقدمة الجيش، فكانت تضيء له ولجنوده الظلام وتجعل الليل كالنهار، لهذا كان يكسب حروبه مع الأعداء.

٥ - كان ذو القرنين عليه السلام يؤمن بالله وباليوم الآخر، وكان حاكماً عادلاً رحيماً في تعامله مع أتباعه. فكان لا يقهر أهل المناطق التي يقوم بفتحها ولا يظلمهم. وكان يقول لهم

"لا داعي لأن يقلق من لم يرتكب الإثم بينكم؛ أما من يعملون الخير، فسنجزيهم خيرًا".

فأقام بمعاملته الناس بالرحمة والتفاهمَ عرشًا في قلوب الناس. وكان يحب كل شيء ينفع الإنسانية.

٦ - كان شخصًا كريمًا ومتسامحًا. ولم يكن يجري مثل سائر الحكام وراء الثروة. عرف بكرمه وحبه للعفو.

٧ - كان رجلاً وقورًا حكيمًا. وكان حليماً ذا شفقة، وكان يملك نفسه عند الغضب. خلاصة القول أنه كان يخدم الإنسانية وينصر المظلومين. وكان يرى أن الثروة إنما جعلت لخدمة الشعب وليس لرفاهية الحكام.

الغزوات التي دعا فيها إلى التوحيد:

عمل ذو القرنين عليه السلام على توسيع رقعة مملكته وتدعيم أركان دولته بما قام به من فتوحات. وبدأ ذو القرنين يبلغ للممالك الأخرى أوامر الدين ونواهيه. في البداية سار بجيشه، الذي تكون من المؤمنين، ناحية الغرب. ودعا إلى عقيدة التوحيد في كل مكان كان يذهب إليه. تقدم جهة الغرب إلى أبعد نقطة.

حتى انتهت اليابسة، ووصل حتى سواحل البحر العميق. وبدت الشمس وكأنها تغرب في بحيرة من الوحل اليابس. وصادف أن رأى في تلك المنطقة قوما كافرين. فآمن بعضهم به. ودخل في حرب مع من لم

يؤمنوا. فتركهم في الظلمات وانهزموا. غير أن ما تبقى منهم تاب إلى الله، وقبلوا جميعًا بعقيدة التوحيد. ويحكي القرآن الكريم عن هذا الموقف على النحو الآتي:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَأَتْبَعَ سَبَبًا. (الكهف، ٨٤-٨٥)

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (الكهف، ٨٦)

وكان ذو القرنين الذي أُعطي سلطة بهذا الشكل يتحرك وفق القواعد الإلهية:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ (الكهف، ٨٧)

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف، ٨٨)

دعا ذو القرنين الناس باستمرار إلى الإيمان. وقد نجّى من اتبعه؛ ووجد غير المؤمنين جزاءهم أيضًا.

قام ذو القرنين عليه السلام بغزوات إلى ناحية الشرق بعد غزواته ناحية الغرب. وتتحدث الآية الكريمة عن ذلك بهذا الشكل:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف، ٨٩)

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (الكهف، ٩٠)

وصل ذو القرنين عليه السلام حتى المحيط الأطلسي أو البحر المتوسط حسب رواية أخرى. وهناك شاهد غروب الشمس في الأفق. بيد أنه كان ينظر إلى هذا البحر كينبوع ماء داخل هذا الكون الضخم. وكانت الشمس تغرب وقد غطاها الضباب وكأنها تُدفن داخل عين ماء طينية. و قابل على الساحل قومًا كافرين. لهذا السبب ترك الله عز وجل لذي القرنين حرية الإختيار بين أن يعذبهم أو أن يتخذ فيهم حسنًا.



وكان هؤلاء القوم الذين قابلهم ذو القرنين عليه السلام ، كانوا يدخلون إلى الكهوف أو إلى البحر اتقاءً لأشعة الشمس الشديدة. وكانوا يخرجون من الكهوف عندما تنطفئ حدة الشمس ليلبُّوا احتياجاتهم، وكانوا يعملون لتأمين معيشتهم. فدعاهم ذو القرنين عليه السلام إلى الدين الحق.

بعد ذلك قام ذو القرنين ﵇ بحملات صوب الشمال. وهناك رأى أقوامًا يتحدثون لغة غريبة. فتحدث إليهم عن طريق ترجمان. ويذكر الله ﷻ حملات ذي القرنين ﵇ في القرآن على النحو الآتي:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف، ٩٢)

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ (الكهف، ٩٣)

وهناك احتمال كبير أن هؤلاء القوم كانوا من الترك. واقترب هؤلاء القوم من ذي القرنين ﵇ وقالوا له إن هناك مخلوقات تدعى يأجوج ومأجوج يزعجونهم. وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبين هؤلاءالمخلوقات سدًّا يقيهم شر هؤلاء القوم. من هنا تم إقامة سد ذي القرنين. واختار هؤلاء القوم - الذين يُخمن أنهم كانوا من الأتراك - طريق الهداية وصاروا مسلمين. تتحدث الآية الكريمة عن هذا الموقف على النحو الآتي:

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (الكهف، ٩٤)

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (الكهف، ٩٥)

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾

(الكهف، ٩٦)

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف، ٩٧)

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف، ٩٨)

وهناك من يقولُ بأن سد ذي القرنين عن سور الصين. وهناك اختلاف على مكان وجود السد. ويُذكر أن هدم هذا السور بين علامات القيامة الأخرى. وسوف يهدم هذا السور قرب قيام الساعة وسيخرج يأجوج ومأجوج إلى الأرض وينتشرون فيها ويعيثون في الأرض فسادًا. وسوف يخرجون بأعداد هائلة لدرجة أن الإنس والجن معًا لن يشكلوا سوى عُشر عددهم، أي أنهم سيشكلون تسعة أعشار سكان الأرض. ويتحدث القرآن الكريم عن هدم هذا السد وخروج هؤلاء القول إلى الأرض، على النحو الآتي:

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (الأنبياء، ٦٩-٧٩)

قوم يأجوج ومأجوج:

تذكر الروايات، أن يأجوج ومأجوج أُمّةٌ مفسدة سيئة. وجوههم مفلطحة قرصية الشكل، عيونهم صغيرة، آذانهم صغيرة للغاية، قصيرو القامة، أعدادهم هائلة. سينتشرون على الأرض قرب قيام الساعة. يتكاثرون مثل الذباب. يتناسلون في وقت قصير بالمليارات واحد من الآخر تمامًا مثل سيدنا آدم وحواء. وبذلك ستتزايد أعدادهم فجأةً. ولا يعلم مكانهم الآن سوى الله تعالى.

فإذا جاء وقت خروجهم، انهدم سد ذي القرنين، وانتشر هؤلاء القوم على الأرض. غير أنهم لن يتمكنوا من الدخول إلى مكة والمدينة المنورة والقدس الشريف. عدا هذه الأماكن فسيدخلون أي مكان آخر على وجه الأرض. وسيشربون ويأكلون أي شيء يقابلهم فتجف المياه، وسيعيثون في الأرض فسادًا. سيكونون مثل الجراد، سيؤذون كل ما يحيط بهم. ولن يهلكهم في النهاية سوى الله ﷻ.

قَصَصٌ ملْؤه العبر:

قابل ذو القرنين عليه السلام في إحدى حملاته قومًا غريبي الأطوار. كان هؤلاء القوم يجتهدون ليتخلصوا من الخوف من الموت معرضين عن زينة الدنيا؛ وكانوا يتناولون النبات فقط، وكانوا يجتهدون في العبادة كثيرا، وبذلك كانوا يحاولون التخلص من أهواء النفس. لم يكن هؤلاء القوم يملكون أشياءً كثيرة من عرض الدنيا. وكانوا يؤَمّنون رزقهم من الخضراوات والفاكهة التي يزرعونها. وكانوا يهتمون كثيرًا بالمحافظة على هذه الأطعمة. وكان كل شخص من هؤلاء القوم يحفر قبره، وينظفه كل يوم، ويتعبد لله في جواره. فأرسل ذو القرنين عليه السلام في طلب حاكمهم.

فبعث إليه الحاكم قائلاً:

-"لا أود رؤية أحد. فليأت إليَّ من يريد أن يراني".

فجاءه ذو القرنين لما سمع كلماته، وسأل الحاكم قائلاً:

-"كنت قد دعوتك إلي، لما لم تأتِ؟"

فأجابه الحاكم:

-"لست في حاجة إليك، ولو كان لي حاجة لديك لجئتك".

فرد عليه ذو القرنين وقال:

-"ما حالكم؟ لم أرَ هذا الحال عند قوم من قبل!"

فقال الحاكم:

-"نعم، نحن لا نهتم بالذهب والفضة. لأننا رأينا الإنسان عندما يحوز مقدارًا منهما، فإنه يطلب المزيد ولا يبقي طمأنينة. لأجل هذا لا نجري وراء الثراء الدنيوي..".

فسأله ذو القرنين عليه السلام وقال:

-"ما تلك المقابر؟ لماذا تحفرونها وتجعلون عباداتكم في جوارها؟"

فرد الحاكم:

-"فعلنا ذلك لأننا لا نركض خلف الدنيا. لأننا عندما نرى قبورنا ونتذكر أننا داخلوها، نجد أنفسنا نعرض عن كل شيء هو عندنا".

فسأله ذو القرنين عليه السلام:

-"لماذا ليس لديكم طعام آخر غير الخضروات. لو ربيتم الحيوانات لشربتم من لبنها، واستفدتم من لحومها؟"

فرد عليه الحاكم قائلاً:

-"لم نرد أن نجعل معدتنا قبورًا للحيوانات. نحن نؤمّن احتياجاتنا من النباتات. والأصل أننا لا نتذوق طعم أي منهما عندما نبتلع الطعام!..". [٧]

قال أحدهم لذي القرنين عليه السلام:

- "علمني شيئًا أقوي به إيماني وبصيرتي[٨] !"

فقال له ذو القرنين عليه السلام:

- "لا تغضب على أحد في وقت الغضب! لأن الشيطان يحفز الإنسان على فعل الشر أكثر ما يكون في وقت الغضب. لا تعجل! فعندما تعجل، تفقد نصيبك الذي ستناله. كن لينًا مع الناس جميعًا القريب منك والبعيد، احذر أن تكون من المعاندين أو المنكرين أو الظالمين!"

أوصى ذو القرنين عليه السلام قبل أن يموت وقال:

---

٧ - في الواقع إن الله عز وجل لم يضع أية محظورات على الأكل من لحوم الحيوانات التي أحل الله تناول لحومها. وحال هؤلاء القوم الذين نتحدث عنهم هو اختيار خاص بهم هم.

٨ البصيرة: أن يدرك الإنسان الحقائق ويفهمها بقلبه. والفراسة: تمييز الصواب قبل أن يحدث

-"غسّلوني، وكفنوني. ثم ضعوا جسدي داخل تابوت. لكن اجعلوا يدي خارجه. وليأتِ خدمي من خلفي. حمّلوا خزائني على بغل. أود أن يراني الناس وأنا راحل إلى الآخرة خالي اليد، على الرغم من أن لي سلطنة رائعة ومُلك دنيوي. ليشاهد شعبي أن خدمي وخزائني ستظل في الدنيا، ولن تأتى معي إلى الآخرة. حتى لا ينخدعوا بهذه الدنيا الخادعة الكاذبة!"

ولما مات ذو القرنين عليه السلام فعلوا ما قاله تمامًا. ويفسر العلماء هذه الوصية على النحو الآتي:

"حكمت الشرق والغرب بالجيوش التي تسير من ورائي. تحت إمرتي عدد لا يحصى من الجند وكثير من الخدم. لم يخرج منهم أحد عن أمري. ملكت حكم الدنيا كلها. ملكت خزائن لا تحصى. غير أن نعم الدنيا فانية. فها أنتم ترونني راحل إلى قبري خالي اليد! وها هو مال الدنيا يبقى فيها. افعلوا ما ينفعكم في آخرتكم!.".

ويوضح رسول الله ﷺ هذه الحقيقة التي أشار إليها سيدنا سليمان في وصيته على النحو الآتي:

"يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُه " (البخاري، الرقاق ٢٤; مسلم، الزهد ٥)

ويُرْوَى أن ذا القرنين عليه السلام توفي في مكان يقال له "دُومة الجندل" بين المدينة المنورة والشام، ودُفن على جبال تهامة بجوار مكة.

عليه السلام!...

أسئلة للتقييم

أ- أجب عن الأسئلة الآتية

١ - بماذا تميزت أخلاق قوم سدوم؟

٢ - أي من صور العبرة والعظة يشير الوضع الجغرافي ورائحة وخواص مياه بحيرة لوط التي توجد في المكان الذي هلك فيه قوم سدوم وعدم وجود إمكانية لظهور أي نبات أو حيوان هناك؟

٣ - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الحجر، ٧٣-٧٤) إلى أي أحاسيس وأفكار تسوقنا المعلومات التي تضمنتها الآيتان الكريمتان؟

٤ - بأي معلومات تمدنا لوحات شعب بومباي الموجودة في يومنا الحاضر بخصوص فجورهم وانحرافهم؟

٥ - يصبح الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض؛ أي المخلوق الذي تجلت فيه صفات الله، يصبح بنمط الحياة التي يعيشها خليلاً لربه إذا شاء وعدوا له إذا شاء. ما الذي يجب علينا فعله حتى نصبح أولياء مقربين لله تعالى؟

٦ - ما السمات التي اتصف بها قوم يأجوج ومأجوج؟

٧ - بماذا أوصى ذو القرنين عليه السلام الشخص الذي أراد أن يقوي إيمانه وبصيرته؟

٨ - أمر ذو القرنين عليه السلام في جزء من وصيته أن يترك زراعاه في الخارج بعد موته، وأن يتبعه حتى القبر خدمه وماله. كيف أعطى درسًا بطلبه هذا؟

٩ - ما الأشياء التي يمكن أن تعرقلنا إذا نحن اضُطررنا للهجرة من أجل ديننا وعقيدتنا؟

١٠ - ما التأثير الذي تركته شخصية نبينا محمد ﷺ على أصحابه؛ جعلتهم يفتدونه بكل شيء قائلين "فداكَ أبي وأمي يا رسول الله"؟

١١ - إذاً الإنسان لن يستطيع نقل أي من النعم معه إلى الحياة الآخرة، فأي فكر وفهم يمتلكه هذا الإنسان ليظن هذا؟

١٢ - ما السبب الذي من أجله سأل اليهود نبينا - صلى الله عليه وسلم - عن ذي القرنين عليه السلام وأصحاب الكهف ؟

١٣ - وضح السر وراء الانتصارات العظيمة التي حققها ذو القرنين عليه السلام في حربه ضد أعدائه؟

١٤ - كيف يكون سلوك الإنسان الذي يتفكر في الموت وما بعده؟

ب- أكمل مكان النقاط فيما يلي

١ - ذهب لوط عليه السلام إلى مصر بصحبة .... حتى يكتسب التجربة في موضوع إرشاد الناس.

٢ - جاء هلاك قوم لوط بـ............................... و... .

٣ - كان قوم لوط يفعلون .... (أحمد بن حنبل، المسند، I، ٣١٧)

٤ - جاء ذو القرنين عليه السلام من نسل يافث أحد أبناء .... عليه السلام.

٥ - لا يجب أن نخلط بين ذي القرنين عليه السلام و.. وهو أحد الحكام في التاريخ.

٦ - وهب الله عز وجل ذا القرنين عليه السلام القوة. هو أيضا قام بحملات نحو الشرق والغرب وأقام ....

٧ - نظم ذو القرنين عليه السلام في البداية حملة إلى .... حتى يدعو إلى دين التوحيد.

ج- ضع إشارةً علي الإجابات الصحيحة للأسئلة الآتية

١ - الدنيا بالنسبة للإنسان مكان للتعبد منذ خلقه، وغاية الإنسان في ذلك أن تتحقق عبوديته لله. وحتى يتحقق ذلك، يتسابق لخدمة الإنسان كل شيء في الدنيا التي هي مكان العبادة في فترة استخدام الانسان لهذا الشيء ليكون ملائمًا لغايته. أما أولئك الذين لا يستخدمون الدنيا ونعمها بشكل يلائم مقصدهم الأساسي، فلا يمكنهم أبدًا أن يصلوا إلى السعادة الحقيقية.

أى مما يلي لا يمكن استخراجه من الفقرة السابقة؟

أ - الإنسان هو أكثر الكائنات قيمة، وهو المؤهل بقدرته ووصفه لأن يحقق العبودية لله.

ب - تقوم المخلوقات الحيّة منها والجامد على خدمة الإنسان الذي يعبد الله.

ج - سيصل الإنسان الذي هو بمثابة أصل الكائنات كلها، إلى السعادة في المدة التي يحياها في الدنيا بشكل يلائم الغاية من خلقه.

د - الدنيا مثل الدار التي ينزل بها الضيف مدة قصيرة للغاية. وسيسأل الإنسان عن المدة التي قضاها هناك بدون تعبد.

٢ - قال قوم سدوم الذين لم يعرفوا للإنحراف والفجور حدًا مخاطبين، قالوا مخاطبين الذين ليسوا على شاكلتهم "ليخرج المتطهرين من أرضنا". أي مما يأتى لا يمكن أن يشير إلى طبيعة تفكيرهم ؟

أ - لم يستطيعوا تحمل وجود المتطهرين الذين ظلوا بمنأى عن الإنحراف الذي سقطوا هم فيه.

ب - رغبتهم في معرفة ليس على شاكلتهم.

ج - رغبتهم في تمييز المتطهرين وذوي الأخلاق الحسنه من بينهم.

د - لأنهم كانوا لا يحبون الأشخاص الذين لا يفعلون هذه الأفعال القبيحة التي يرتكبونها هم.

٣ - أى مما يلي ليس اشارة على الغفلة والطغيان الذي أضل أعين قوم سدوم عن الحقيقة؟

أ - بدلا من أن يتورطوا في قلة الحياء والفجور التي فعلوها، نجدهم يطلبون من لوط عليه السلام **أن** يستحسن فعلهم.

ب - تهديدهم بالنفي لسيدنا لوط عليه السلام الذي دعاهم إلى الطريق الطاهر الحلال.

ج - أنهم طردوا الملائكة التي جاءت لإهلاكهم قاذفين لوطاً عليه السلام بالحجارة.

د - على الرغم من أن سيدنا لوطاً عليه السلام حذرهم بمجيء العذاب، إلفا أنهم تحدوه قائلين "لو أنك صادق فيما تقول، آتنا عذاب الله".

٤ - في الوقت الذي يتعرض فيه القوم للعذاب،نجي الله بعنايته لوطًا وعائلته. غير أن زوجته واهلة كانت من الهالكين. وسوى الله الأرض بها مع القوم التعساء. أي مما يلى لا يمكن ان يكون سببًا لحدوث هذا ؟

أ - كانت واهلة امرأة منافقة وكانت تتعاون مع قوم سدوم.

ب - التزام واهلة الصمت تجاه فجور القوم وكفرهم.

ج - دعم واهلة قومها ضد سيدنا لوط.

د - كون واهلة من قوم لوط في الأساس.

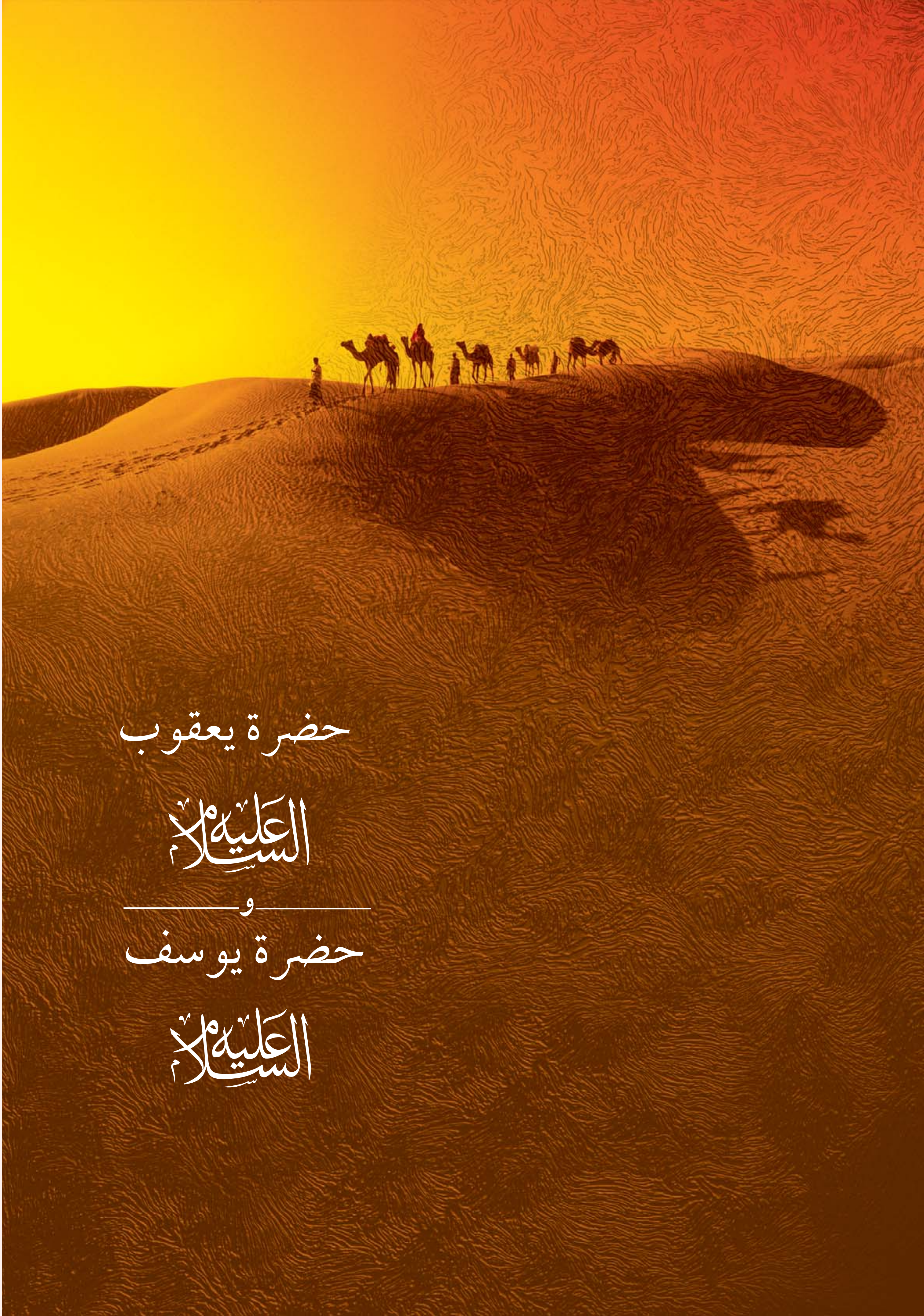
٥ - إن حماية العرض والشرف في مجتمع من المجتمعات وما يرتبط بذلك من إدراك للأخلاق الجميلة بصون النسل والنسب، هي من مهام العبودية التي كلفنا بها الله تعالى. أي مما يلي ليس من الشروط الضرورية لتنفيذ هذه المهمة ؟

أ - بذل جميع الأفراد جهدًا كبيرًا لحماية العفة والحياء.

ب - توصية الشباب ألا يتزوحوا حتى يحصلوا على كل المعلومات الخاصة بالنكاح.

ج - تطبيق شروط النكاح بدقة.

د - الحث على الزواج حتى تستمر حياة العائلة ووفاء الازواج لبعضهما البعض.



حضرة يعقوب عليه السلام

و

حضرة يوسف عليه السلام

الذي انكوى بنار الشوق والمحبة وصار مثلاً أعلى في الصبر

حضرة سيدنا يعقوب

عليه السلام

و

الذي صار سلطانًا لمصر وللقلوب بعد الأسى ومحنتي العبودية والسجن

حضرة سيدنا يوسف

عليه السلام

يعقوب ويوسف عليهما السلام

أُرسل يعقوب بن إسحاق - عليهما السلام- إلى أهل كنعان.

يُرْوَى أنه ولد في مدين أو في منطقة الشام. ولد يعقوب عليه السلام بعد أخاهُ التوءم آيس، ولما كان يعقوب عليه السلام قد عقب في ولادته أخيه فقد أُطلق عليه يعقوب بمعنى "الذي يعقب".

ولكلمة يعقوب معنى آخر هو "صفوة الله عز وجل"؛ أي "العبد الذي اصطفاه الله عز وجل وطهره". أما لقب يعقوب عليه السلام فهو "إسرائيل "ويعنى "عبد الله ".

جاء من نسل يعقوب عدد كبير من الأنبياء. فجاء من نسل سيدنا يعقوب عليه السلام سيدنا موسى وسيدنا هارون وسيدنا داود وسيدنا سليمان وسيدنا زكريا وسيدنا يحيى وسيدنا عيسى (سلام الله عليهم أجمعين).

وكان آيس أخا سيدنا يعقوب عليه السلام صيادًا ماهرًا. وفي يوم خرج آيس للصيد فقامت أمه بذبح أحد خراف يعقوب عليه السلام وقامت بشيها وطهيها. ووضعت الطعام الذي أعدته أمام سيدنا إسحاق عليه السلام وقالت:

- "هذا هو إكرام ابنك..".

فدعا إسحاق عليه السلام الله عز وجل أن يجعل من ذرية ابنه يعقوب عليه السلام الأنبياء والملوك. وجاء آيس من الصيد وكان يعقوب قد انصرف، وقال:

- "أبي الحبيب، جئتك بالصيد الذي طلبت..".

فدعا إسحاق عليه السلام له نظير هديته قائلاً:

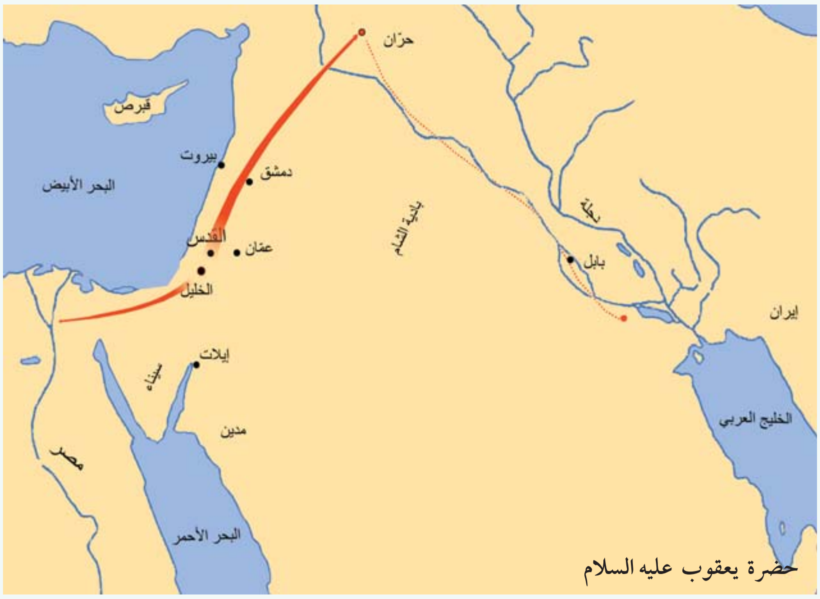
- "وسع الله ذريتك وبارك لك فيها!"

فاستجاب الحق سبحانه وتعالى الدعاء وأعطى آيس ذرية كبيرة وبارك له فيها. فنسل الروم الموجود حتى يومنا الحاضر مشتق من روم بن آيس فقط.

لقد قدر الله عز وجل لكل نبي دعاء خاصًّا يستجيبه جل جلاله إذا دعا به. وقد دعا كل نبي دعاءه في الدنيا، أما الرسول الأكرم ﷺ فقد ادخر دعاءه إلى يوم القيامة. وبدعائه ستتحقق الشفاعة العظمى يوم القيامة.[١]

وكان آيس يغار من يعقوب عليه السلام. وحتى لا يحدث خلاف أو نزاع بينهما قامت الأم بإرسال ابنها يعقوب إلى خاله. وكان لخال يعقوب عليه السلام بنتان. اسم الكبرى لِيا، أما الأخرى فهي رحيل.

وظل يعقوب عليه السلام في خدمة خاله مدة سبع سنوات أثمرت زواجه من ابنة خاله الكبرى لِيا. ظل بعدها سبع سنوات أخرى في بيت خاله تزوج بعدها ابنة خاله الصغرى رحيل أيضًا.[٢]



حضرة يعقوب عليه السلام

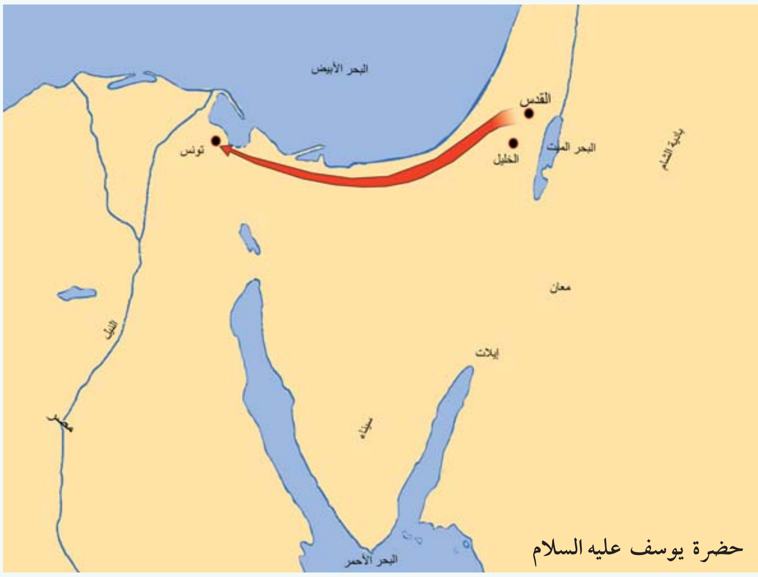
و قد أعطى خال يعقوب عليه السلام وهو يُزوّجه ابنتيه، جاريتين تخدمان زوجتيه؛ هما زلفه وبلها. وفي الوقت نفسه وهبه كلتيهما.

ولد ليعقوب عليه السلام اثنا عشر ذكر؛ ستة من لِيا، وأربعة من الجاريتين السابق

---

١ الشفاعة العظمى: يتضرع رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل حتى ينظر الله عز وجل في حساب المؤمنين الذين يعانون مواقف عصيبة شديدة لا تحتمل في يوم القيامة، فيستجيب الله عز وجل لهذه الرغبة. وفي الوقت الذي سينشغل فيه كل شخص في هذا اليوم بالنظر لحاله، سيظل نبي الله فقط يدعو من أجل سلامة المؤمنين وسلامتهم.

٢ كان يجوز في شريعة يعقوب عليه السلام أن يتزوج رجل واحد من أختين. وقد استمر هذا الحكم حتى شريعة موسى عليه السلام



حضرة يوسف عليه السلام

ذكرهما، واثنين من رحيل. وقد كانت رحيل لا تنجب لفترة طويلة؛ فلجأت إلى الله ﷻ ودعته؛ فوهبها الله طفلا "يوسف". ثم رزقت من بعد يوسف بطفلها الثاني بنيامين. وتوفيت رحيل بعد ولادته بأربعين يومًا.

كلف الله ﷻ يعقوب عليه السلام بالنبوة في السنة نفسها التي ولد فيها سيدنا يوسف. وقد آمن بيعقوب عليه السلام عددٌ كبير من أهل كنعان بعدما بدأ يدعوهم إلى عقيدة التوحيد.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعلومات في آيات مختلفة على النحو الآتي:

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (مريم، ٤٩- ٥٠)

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (ص، ٤٥)

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (ص، ٤٦)

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص، ٤٧)

وكان يوسف عليه السلام يختلف عن إخوته في جميع أحواله. وكان أبوه يحبه حبًّا جمًّا وهو مازال في سن مبكرة. فقد رأى يعقوب عليه السلام أن يوسف يملك الصفات نفسها التي يملكها هو.

لأجل هذا كان يميل إليه أكثر من سائر إخوته. فكان يحبه كثيرًا، ولا يفارقه.

ويتحدث النبي ﷺ عن فضيلة هؤلاءِ الأنبياء فيقول:

"الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"

(البخاري، الأنبياء ١٩، التفسير ١٢/ ١)

أحسن القصص: قصة يوسف:

يتحدث القرآن الكريم عن قصة يوسف عليه السلام فيصفها بقوله «أحسن القصص» (أي أجمل القصص)[٣] ويروي تفاصيلها بسورة كاملة مستقلة.

تقول الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف، ٧)

روي عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"علموا أرقاءكم سورة يوسف؛ فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله ﷻ عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً!". (الزمخشري، الكشاف، ٣، ٩٨)

فقد تعرض يوسف عليه السلام بسبب حسد إخوته له لمصائب كثيرة مثل إلقائه في البئر وتعرضه للحبس. فأرسل الله ﷻ جبريل إلى يوسف عليه السلام الذي لم يفقد شيئًا من تقواه أمام ما يمر به من مصائب. فتلطف به وسلى وروَّح عنه. فسهّل عليه البلاء. ثم منحه بعد ذلك القوة والعزة والسلطنة.

وكان يوسف الذي تعرض للإيذاء والجفاء هو نفسه الذي كان رحيماً في تعامله مع الضعفاء والمحتاجين والفقراء والغرباء في أيام سلطنته.

ويجب علينا أن نعلم أنه ما من أحد يقرأ سورة يوسف ويتفكر فيما فيها من معان سامية حميمة، فإنه ينال السرور الذي ناله يوسف عليه السلام.

وقصة يوسف هي كما يوضح لنا هذا البيان الإلهي، هي قصة تمتلىء بالحكم والعبر. فتروي السورة خصوصيات مثل النبوة والعبودية والسجن وتفسير الرؤى والصبر والفرقة والنشوة والعشق والمعاملة الحسنة وقت البلاء وتحمل أذى الأعداء والعفو عند المقدرة ومقاومة حيل النساء ودسائسهم. فهي من أكثر قصص القرآن الكريم لفتاً للإنتباه والدقة

ولم يكن هناك أي كتاب أو أثر تمكن من سرد قصة يوسف بشكل أجمل من ذلك الذي هو في القرآن الكريم من قصة. وكم يتضح بشكل واضح في ختام هذه السورة، فإن هذه الأحداث التي ذكرت في سورة يوسف إن هي إلا من أخبار الغيب ولا تحمل أية إضافة أو تأليف عقلي أو نقلي معين.

تتحدث هذه السورة أيضا عن ميراث النبوة والقوى الروحانية مثل الروح والقلب. تمثل زليخة في هذه السورة النفس الأمّارة. غير أنها تسلم بعد ذلك وتنال رضا الله وترى روحها التربية. وفي النهاية تتوحد

---

٣ أحسن القصص: أجمل سرد أو أجمل قصة أو حكاية أو ملحمة. وكلمة قصة هي في الأصل بمعنى اتباع الأثر وتتبع الحال. ولتأخذ إحدى الحوادث أو الأخبار اسم القصة، يجب عليها أن تحمل خاصية الإتباع أو قيمة معينة لكتابتها.

مع يوسف وتهذب روحها المحن والابتلاءات التي مرت بها وتجعلها أكثر نضجًا من الناحية المعنوية إلى أن يتحقق الوصال مع الله.

وأسباب نزول هذه السورة هي:

يذهب علماء اليهود إلى رؤساء المشركين فيقولون لهم:

"- إسألوا محمداً عن عائلة يعقوب، ولماذا هاجروا من الشام إلى مصر، وما هي قصة يوسف؟"

فيذهب رؤساء المشركين إلى الرسول ﷺ ويسألونه عن ذلك. فتتنزل عليه سورة يوسف. (الآلوسي، التفسير، ١٢، ١٧٠)

كانت المحن والابتلاءات تنصب صبًّا على رسول الله والمؤمنين وقت نزول هذه السورة. وكان سيدنا النبي ﷺ قد فقد سيدتنا خديجة وعمه أبا طالب. وتزايدت الضغوط على المؤمنين أيضًا. وها هي السورة تنزل في عام سمي "بعام الحزن"، فوجد كل من رسول الله ﷺ وأصحابه فيها العزاء والسلوى. وفي هذه السورة بشرى للمؤمنين الذين يسيرون على هدي سيدنا النبي ويصبرون على المصيبة والبلاء بالنصر القريب.

يقول الله تعالى في بداية سورة يوسف:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف، ١-٣)

كان يوسف عليه السلام أجمل أبناء يعقوب عليه السلام. وكان حسن النسب كذلك؛ فقد جاء نسله من ثلاثة أنبياء فنال سمو الشرف. وشرُف يوسف عليه السلام بمميزات سامية مثل جمال الخلقة والرسالة الدنيوية والصبر وقت المحن والمعاملة الحسنة. وهذه من ألطاف الله العالية الجميلة. وكان دعاؤه أجمل الأدعية في الوقت نفسه، وكان يتضرع إلى الله ويتمنى عليه قائلاً:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف، ١٠١)

وهذه هي أول سورة نزلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشكل قصة؛ ألفاظها موجزة ومعانيها واسعة عميقة.

يضاف إلى ذلك أن هذه السورة تمثل الحس النفسي لقلب يوسف وروح يعقوب وجسد رحيل وإخوته الأحد عشر. ويحوي البيان القرآني معاني فريدة رقيقة بهذا الشكل. وحتى يمكننا التعبير عن هذا لا بد من وجود عين ترى الحقائق وبصيرة تفرق بين الدقائق.

رؤية سيدنا يوسف:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف، ٤)

عندما رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤية لم يكن قد تعدى السابعة. وتمثل الأحد عشر كوكبًا التي رآها يوسف إخوته والشمس كانت أبوه يعقوب عليه السلام أما القمر فكانت خالته لِيا لأن أمه كانت متوفاة ذلك الوقت.

وكانت الحكمة من تمثيل إخوة يوسف عليه السلام بالكواكب، ما كان لهم من تأثير على بعضهم البعض في توجيه كل منهم لحياة الآخر.

أما ذكر الشمس والقمر، فهي إشارة إلى أن يوسف عليه السلام سيلتقي بأبيه، وفيها إشارة أيضا إلى ما سيقع من بعد من إخوته.

جاء أحد اليهود إلى رسول الله ﷺ وسأله:

- "يا محمد! أي الكواكب رأى يوسف؟"

فصمت سيدنا رسول الله للحظة، جاءه فيها جبريل وأخبره بأسماء تلك الكواكب. ثم التفت النبي ﷺ لليهودي ورد عليه قائلاً:

- "لو أنني أخبرتك بها، هل تسلم لله جل جلاله؟"

فقال اليهودي:

- "نعم".

فقال له رسول الله ﷺ:

- "هي جريان والطارق والذيال وذو الكنفان وقابس ووثاب وعمودان والفبلق والمصبح والضروح وذو القرع وتابع عليه السلام حديثة،

وقال إن هذه الكواكب نزلت مع الشمس والقمر من السماء وسجدوا جميعًا ليوسف عليه السلام.

فرد اليهودي وقال:

- "والله إن الأسماء التي ذكرتها هي الأسماء الصحيحة!"

أقسام الرؤيا الثلاثة:

الصنف الأول: هي الرؤية التي تنتج عن خيالات الشخص، أو رؤية الشخص شيئا انشغل به في حياته اليومية من قبيل رؤية العاشق لمعشوقته أو ما شابه ذلك.

الصنف الثاني: وهي الرؤية المشوشة التي يتدخل فيها الشيطان بوسوسته لتتأزم نفس من رآها. يقول رسول الله ﷺ:

"الرؤيا الصالحة من الله. والحُلْم من الشيطان. فإذا رأى أحدُكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب. وإذا رأى ما يكره فليتعوَّذ بالله من شرها ومن شر الشيطان. ولْيَتْفُلْ ثلاثًا، ولا يحدث بها أحدًا، فإنها لن تضره".

(البخاري، الطب، ٣٩)

الصنف الثالث: يعرف النبي ﷺ هذا الصنف في الحديث الشريف

"إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب (تتحقق كما يراها)**، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"** وما كان من النبوة فإنه لا يكذب. (البخاري، التعبير، ٤، ٢٦؛ مسلم، الرؤيا، ٦)"

"الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له" (البخاري، التعبير، ٥).

يأتي ملك الرؤى ويبين للشخص الذي رآها آثارًا من اللوح المحفوظ. لأجل ذلك فهذه الرؤية صحيحة وصالحة. وتعتبر الرؤية التي رآها يوسف عليه السلام من هذا النوع من الرؤى:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيم. لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخوتهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف، ٥-٧)

الغيْرة والحسد، نار تميت القلب:

لم يدرك أبناء يعقوب عليه السلام يهودا وروبيل وشمعون خصوصية العلاقة بين أبيهم ويوسف والحكمة من حبه هذا، لهذا السبب حقدوا على أخيهم وقالوا:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ. اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف، ٨-٩)

فهم يعقوب عليه السلام بعد الرؤيا التي رآها يوسف أن ابنه سيكون وريثًا له في النبوة، فازداد حبه له. إلا أن إخوة يوسف حسدوه على ذلك، وأخذ حِقدُهم على يوسف يزداد يوماً بعد يوم. وجعلهم حسدهم هذا يتخذون القرار فيما بينهم بنصب فخ ليوسف.

لقد كانت حب يعقوب عليه السلام المفرط ليوسف سببًا في اختبار الله ليعقوب عليه السلام وابتلائه بهذا الشكل.



من أسماء الله ﷻ اسمه "الرقيب"؛ أي الذي يراقب باستمرار. أي أن الله ﷻ الذي يراقب عباده كل لحظة رأى أن حب يوسف في قلب يعقوب طغى على أي موجود آخر.

لهذا السبب ابتلاه الله ﷻ في الظاهر حتى يجر الحب الشديد الذي يكنه يعقوب في قلبه ليوسف عليهما السلام إلى الاعتدال. وبذلك كان لطف الله على يعقوب عليه السلام بتحويل حب يعقوب إلى الذات الإلهية.

لقد رأى يعقوب عليه السلام حقيقةً نور النبوة في جبين ابنه يوسف، لهذا السبب أولاه اهتمامًا أكبر. وهو ما فتح الطريق أمام غيرة باقي إخوته وحسدهم له. وجاء اليوم وفاضت مشاعر هذه الغيرة التي في قلوبهم، فوضعوا خطة سيئة للخلاص من أخيهم يوسف.

والعبرة التي يمكن أن نستقيها من الآية هي أنه يجب على الإنسان أن يخفي حبه في قلبه وأن يكون حبه هذا سرًّا، حتى لا يصبح هذا الحب سببًا للغيرة والحسد.

لقد أثار حب يعقوب عليه السلام الشديد ليوسف غيرة الله[٤]؛ ولأجل هذا ابتلاه[٥] الله ﷻ. ولهذا السب انفصل يوسف عن أبيه. لأن اختبار أي أب في ولده لهو البلاء العظيم لهذا الأب. فعلى الرغم من أن نوح عليه السلام دعا على قومه بالهلاك، فإنه لم يطق رؤية ابنه يغرق في الماء،

وقال:

- "ربي، إن ابني من أهلي!"

فالقلب الذي هو مركز جميع المشاعر حلوها وسيئها، يصبح أسود ويتحول إلى الشر إذا لم يهفو إلى طريق الله ويطمئن بذكره جل جلاله. وتوضح الآية الكريمة ذلك على النحو الآتي:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

والذكر هو اطمئنان القلب ولا يتأتى إلا بإدراك الله، ولا ينجو القلب إلا بهذا الطريق؛ لأن القلب هو

٤ أثارت غيرة الله: يريد الله من عبادة حتى ينالوا رضاه أن يبتعدوا عن كل حال لا يرضاه الله.

٥ الابتلاء: الاختبار. يختبر الله ﷻ عباده بتعريضهم لأزمات متعددة.

بيت الله والمكان الذي تتجلي فيه محبة الله. فإن لم يكن في القلب ذكر لله، فإن القلب يصبح أسود ويموت، ويرنو إلى أهواء النفس.لقد كان الحسد مذمومًا. لأنه معنى مخالف لما أمر الله به. أما الغبطة وهي تمنى الشخص لمثل النعمة التي مع آخر، فهي مثنيٌّ عليها.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

"إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" (أبو داود، الأدب ٤٤؛ بن ماجة، الزهد ٢٢)

والحسد يضر بصاحبه أكثر من المحسود. ويشبه الحسد بشخص أراد أن يرمي آخر بحجر، فارتد الحجر مرة أخرى وفقأ عينيه هو. وليس للحسد نفع غير زيادة غضب الحاسد.

وفي النهاية لا يأتي الحسد إلا بالإهانة لصاحبه. فهاهي الأفعال السيئة التي ارتكبها إخوة يوسف بدافع من غيرتهم ترتد إليهم هم في النهاية.

خطة خبيثة:

ولما توصل إخوة يوسف إلى قناعة بخصوص أخيهم:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (يوسف، ١٠)

ويروى أن يهودا هو الذي جاء بهذه الفكرة وأقنع إخوته بها. كم هو عبرة حال هؤلاء الإخوة؛ فأكثرهم رحمة كان من أوصى بحسده أن يلقى يوسف عليه السلام في البئر. وبهذا، كم من عدو خفي يلبس لباس الصداقة بحسده. وهو ما يوجب التنبه إليهم والحذر بقدر المستطاع.

إن أصحاب الإستقامة الحقيقية هم الذين قلوبهم حية فقط. أما ضد ذلك من القلوب البعيدة عن الذكر فإنها تقع تحت تأثير النفس؛ فتجف بنار الشهوة، وتتصلب وتصبح أعضاؤها غير قادرة على العبادة. واستمرار القلوب على هذا الشكل، يجعل منها بعد ذلك كقطعة الحطب لا تنفعُ إلا للإشتعال في النّار. نسأل الله أن يحمينا من الوقوع في هذا الأمر..

يقول الله عز وجل:

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الزمر، ٢٢)

وفي النهاية جاء إخوة يوسف أباهم بالخطة التي وضعوها:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف، ١١-١٢)

البلاء مرتبط بالكلمة التي تخرج من الفم:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف، ١٣)

يُرْوَى أن يعقوب عليه السلام رأى في رؤية رآها أنه فوق جبل، وأن يوسف عليه السلام في صحراء. وفجأة هجم على يوسف عليه السلام عشرة ذئاب. وفُقد يوسف عليه السلام بين هذه الذئاب.

ولهذا السبب قال لأبنائه معبرًا عن قلقه: "أخاف أن يأكله الذئب!".

ولكنه لمّح دون أن يدري للحيلة التي سوف يحيكونها ليوسف وللغطاء الذي سوف يصطنعونه لهذا. لأن إخوة يوسف لم يكونوا يعلمون حتى تلك اللحظة أن الذئاب يمكنها أن تأكل الإنسان. ألم يكن لإخوة يوسف خطة مكتملة كهذه. وكان ما صرح به والدهم هو خيط الأساس الذي تمكنوا خلاله من إكمال خطتهم سراً.

جاء في الحديث الشريف:

"**البلاء مرتبط بالكلمة التي تخرج من الفم!**." (السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١١٠)

لا يجب على الإنسان أن يمد خصمه بأمور قد يستخدمها ضده.

يقول ابن السقيط الذي قتل بعد قطع لسانه:

"من الممكن أن تكون المصيبة التي تلحق بالإنسان جراء زلة لسانه، هي مصيبة أكبر من تلك التي تلحق به من زلة قدمه! فما يقع من مصيبة جراء زلة القدم هو جرح سيندمل مع الأيام. أما ما يخرج من الفم من قول فإنه قد يذهب بالرأس كله".

وعلى الرغم مما رأى من رؤية وخبر، بقي يعقوب عليه السلام في عجز عن ردع أبنائه من اصطحاب يوسف عليه السلام معهم. ولربما يكون هذا القول المأثور هو خير ما يعبر عن هذا الأمر:

"إذا جاء القدر، عميي البصر!"

والعبد الذي يثق في نفسه ويقول "لا أفعل مثل هذا قط "يكون قد فتح الباب للشيطان ولا يتركه الشيطان حتى يجعله في موقف هزلي، ويجعله يفعل ما يريد. من أجل هذا يجب ألا نبالغ فيما نقول وأن نلجأ إلى الله عز وجل.

فالعبد الذي يقول:

«لا أفعل هذا الخطأ أبداً»

يكون بقوله هذا قد ترك باباً مفتوحاً للشيطان يدخل منه، فيترك الشيطان كل أعماله ويسلط عليه إلى أن يتمكن منه فيقع في الخطأ الذي أصر بقوله على عدم فعله. (السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١١٠)

من هذا المنطلق لا يجب على المرء التكلم بشكل قاطع وأن يلتجيء دائماً إلى الله تعالى.

لقد كان إخوة يوسف أناساً قصروا في حرمة أبيهم وأخيهم. ولهذا، وعملاً على تحقيق ما بيتوا من خطة وحيلة، توجهوا إلى أبيهم بالقول والتنبيه فقالوا:

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (يوسف، ١٤)

خيانة الإخوة:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾

(يوسف، ١٥)

وما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى "وأوحينا إليه» أي إلى يوسف، هو ما اعتمد عليه معظم علماء التفسير ليؤكدوا أن النبوة أعطيت ليوسف عليه السلام منذ أن كان في هذا العمر والمرحلة[٦].

قبل يعقوب عليه السلام أن يرسل يوسف مع إخوته تحت إصرار منهم؛ ولأنه رأى أن يوسف أيضًا يرغب في هذا، وحتى يظهر تسليمه بالقدر من ناحية أخري.

وحتى يطمئنوا يعقوب عليه السلام ويسعدوه قاموا باحتضان يوسف أمامه وحتى غابوا عن نظره. ولما غابوا عن أنظاره، حنثوا بعهدهم، وطرحوا يوسف أرضًا، وقالوا:

"يا صاحب الرؤيا الكذاب! أين هي الكواكب التي رأيتها تسجد إليك؟ هيا ائتنا بها كي تخلصك من بين أيدينا!.".

وبدؤا يضربون يوسف ويؤذونه. إلى أي أخ يلجأ يوسف والجميع يؤذونه ويوبخونه ويضربونه؟! فلم يتمالك نفسه وانخرط في البكاء وهو يقول:

- "أبي الحبيب! ما أسرع ما نسوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم أمامك، ما أسرع ما نسوا وصيتك التي أوصيتهم إياها!.. تعالَ وانظر ما فعلوا بابنك! هذا الذي لا يُفعل بالعبيد!.".

تذكر الروايات أن روبيل رفع يوسف وألقاه أرضًا، وأسرع وجلس فوق صدره محاولاً قتله. وأراد لاوي أيضًا أن يكسر عنقه. أما يوسف فكان ينادي على يهودا وكان أكثرهم رحمة ويقول:

- "يهودا! خفِ الله وامنعهم أن يقتلوني!"

فجاء يهودا وقد شعر بالعطف ناحية أخيه، وقال:

---

٦ لقد أرسل الله سبحانه وتعالى الوحي إلى كل من يحيى وعيسى عليهما السلام في سن البلوغ. كما قام بمثل ذلك مع بعض عباده بانتظار تهيأتهم للنبوة عندما يشاء. كما فتح الله تعالى باب الولاية لبعض عباده وهم في سن الطفولة. ومن هؤلاء الأولياء الصلح عبد الله التستري. ولهذا، فإننا نفهم من ذلك أنه لا علاقة للعمر بتولي النبوة سواء أكان طفلاً أو قد بلغ الأربعين. ولكن معظم الأنبياء شرفوا بالنبوة في سن الأربعين الذي يعتبر سن الوصول إلى مرحلة الكمال. ولهذا نجد أن معظمهم بدأ برسالته النبوية بعد سن الأربعين.

- "لا تقتلوه! ألم نتعاهد على ذلك؟"

فردوا عليه:

- "بلى!"

فقال يهودا:

«- ألا أقول لكم بشيء خير من قتله؟ ألقوه في البئر!»

إلقاء سيدنا يوسف في البئر:

ولما استحسن بقية الإخوة حديث يهودا قائلين "رأي صائب للغاية"، أخذوا القرار برميه في البئر.

وكان البئر الذي خططوا أن يرموا أخاهم فيه، هو البئر الذي حفره شدّاد أثناء إعمار الأردن. وكانت فتحة ذلك البئر ضيقة، ولكنه كان يتسع مع التقدم ناحية العمق.

كان يوسف يتشبث بملابس إخوته ولكنهم كانوا يدفعونه. وقاموا بخلع قميصه، وقاموا بربط يديه حتى لا يتشبث بأي شيء. وحتى يقنعوا أباهم قاموا بذبح إحدى الأغنام ولطخوا قميص يوسف بدمائها.

فقال يوسف مخاطبًا إخوته الذين عروه من قميصه:

- "إخوتي! ردوا إلي قميصي؛ حتى إن مت كان كفنًا لي، وإن قدرت لي الحياة كان لي لباسًا!" ومع هذا لم يفعلوا وأخذوا قميصه.

و في النهاية دلَّوا يوسف حتى منتصف عمق البئر ثم قاموا بقطع الحبل حتى يموت. وكان هناك ماء في عمق البئر. فنهض يوسف على قدميه وأخذ يصرخ على أمل أن تدب الرحمة في قلوب إخوته فيخرجونه من هناك. فلما علم إخوته أن يوسف لم يمت أرادوا رميه بحجر بغية قتله. غير أن يهودا منعهم من جديد عن فعل هذا.



في تلك الأثناء نادى الله ﷻ على جبريل:

- أدرك عبدي!

فلبى جبريل عليه السلام أمر ربه في الحال، وأمسك بيوسف، وأجلسه في مكان آمن داخل البئر. وألبس يوسف قميص إبراهيم عليه السلام وقام بإطعامه وسقايته مدة بقاءه في البئر من نعم الجنة.

وكان يوسف قد لجأ إلى الله عندما أُلقي في البئر، وقال:

- "يا شاهد لا تغِبْ! يا قريبا ليس بعيدا! يا غالبا ليس مغلوبا! اجعل لي من أمري فرجا ومخرجا!.".

تذكر الروايات أن يوسف ظل في البئر ثلاثة أيام. وتذكر رواية أخرى أن يوسف لم يمكث في البئر سوى ساعة واحدة.

وعلّم جبريل عليه السلام يوسف ذلك الدعاء:

"اللهم يا مجيب الدعاء، ويا جابر كل كسيرو يا مهون كل كربة، ويا صاحب كل غريب! اللهم يا مؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، ويا ملجأ كل خائف، ويا كاشف كل كربة ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملأ.. يا حي يا قيوم أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجا ومخرجا، إنك على كل شيء قدير".

وبدأ يوسف يذكر ربه في البئر. فاستأذنت الملائكة الله عز وجل كي تستمع إلى تضرعه الجميل.

فذكر الله تعال الملائكة بكلماته لهم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٣٠)

في الوقت الذي تميل فيه الروح والقلب نحو العالم الروحاني؛ نجد أن النفس وما ارتبط بها من قوى، وكذلك الحواس السفلية تميل نحو العالم الحيواني. فإذا ما ابتعد الإنسان عن تزكية النفس وترك نفسه على حالها، فإن النفس تغلب الروح وحينئذ يتحكم الجسد في الروح. وهذا هو حال الفسقة من الناس.

وعندما تولد في القلب الخصال الحميدة نتيجة للذكر والمناجاة، فإن الغلبة تكون حينئذ للروح والقلب. وتنحني النفس والجسد أمام الروح. وهذا هو حال السعداء.

قد قدر الله جل جلاله حزنًا وهمًّا عظيمين على يعقوب ويوسف. وكانت الحكمة من الاختبار الشاق الأليم الذي مرا به هو زيادة ارتباطهما بربهما بما صبروا. من أجل ذلك كانوا يتوجهون كل وقت إلى الله ويظلون معه.

وبذلك وصلوا إلى درجات عالية متخلصين من كل ما هو فانٍ. لأنه لا يصل لمثل هذه المراتب إلا من يتحمل المحن والمشاق.

وبذلك قدر الله ليوسف أن يسجن مدة اثنتي عشرة سنة حتى يصل إلى الكمال بخلوته والرياضة الروحية والمجاهدة. فربما لو ظل يوسف إلى جوار أبيه، لما تمكن من تحقيق تلك الأمور. من أجل هذا كانت الحكمة من أن الأنبياء عاشوا فترة من حياتهم بعيدًا عن أوطانهم غرباء.

عودة إخوة يوسف بعد إلقاء أخيهم في البئر:

بعد أن ألقى إخوة يوسف أخاهم في البئر اتجهوا نحو طريق العودة إلى البيت، فأتوا أباهم وفي عيونهم دموع الكذب. تتحدث الآيات الكريمة عن هذا الأمر فتقول:

﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (يوسف، ١٦- ١٧)

علماً أن إخوة يوسف لم يكتفوا بالبكاء كذباً وإنما أضافوا على ذلك:

﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف، ١٨)

تذكر إحدى الروايات أنه حين جاء إخوة يوسف يعقوب عليه السلام بالقميص الملطخ بدم يوسف، مرره يعقوب على وجهه وعينيه وبدأ يبكي وينتحب، وهو يقول:

- "لم أرَ حتى يومي هذا ذئبًا رقيقًا بهذا الشكل! لقد أكل ابني ولم يمزق القميص الذي يرتديه فوق جسده!"

صبر جميل:

لقد أصبح حزن يعقوب عليه السلام على ولده يوسف قصة تتناقلها الألسن. ويعبر الشاعر يونس أمره عن ذلك الأمر فيقول:

لقد كنت يعقوباً بحالي،

وكان اسم المولى على لساني،

فقدت يوسف في أرض كنعان،

يبكي ويبكي يعقوب قائلاً: يا يوسفي!

أخذوا يوسف وعادوا بدم،

وقالوا ببهت أكلته الذئاب،

لا أدري ما فعلوا بقميص يوسف،

يبكي ويبكي يعقوب قائلاً: يا يوسفي!

وهكذا، لم يبق ليعقوب عليه السلام إلا البكاء ذرفاً للدموع صابراً على ألمه وحزنه. ولهذا، لم يشتكي لأحد عن

حاله صابراً وقال:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ...﴾ (يوسف، ٨٦)

سأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام وقال فيما معناه:

- "إلى أي درجة وصل تأثر يعقوب عليه السلام بفقدان يوسف؟"

فأجابه جبريل عليه السلام فيما معناه:

- "عانى يعقوب فقد ابنه بنفس قدر معاناة سبعين أماً فقدن أبناءهُنَّ!"

فسأله رسول الله ﷺ فيما معناه:

- "وفي هذه الحال كيف كان قدر ثوابه؟"

فأجاب جبريل عليه السلام فيما معناه:

- "عادل ثوابه ثواب مائة شهيد. لأنه لم يظن في الله للحظة ظنًّا سيئًا" (السيوطي، الدر المنثور، ٥، ٥٧٠)

وهكذا، لقب هذا الصبر بقوله: «صبر جميل».

والصبر الجميل هو تلقي المصائب والبلاء بعيداً عن العويل، والشكوى، بمتانة وتوكل. فمن يشكو ربه لعباده يفقد خاصية الصبر.

إخراج سيدنا يوسف من البئر وبيعه:

وفي الوقت الذي ركن فيه يعقوب عليه السلام إلى الصبر الجميل، كان يوسف عليه السلام يعيش في البئر متوكلاً على الله عز وجل ومسلماً لأمره. وفي تلك الأثناء

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (يوسف، ١٩- ٢٠)

وعلى الرغم من أنهم فتنوا بجمال يوسف عليه السلام، إلاّ أن من أخرجه من البئر باعه بثمن بخس من الدراهم. ذلك أنهم كانوا يخافون من أن يخرج أحد فيطالب به، فباعوه بسرعة بالرغم من جماله الباهر عملاً على التخلص منه قبل أن يطالب به أحد.

يقول الشيخ الكبير محيي الدين ابن العربي -قدس الله سره- في تفسير قوله تعالى:

﴿...وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (الأحزاب، ٣٨).

إن سر هذا القول هو أن الله تعالى إذا أراد أمراً فإن زلة بسيطة من عباده كفيلة بتحقيق ذلك»

علماً أن يوسف عليه السلام وقف يوماً أمام المرآة ينظر إلى نفسه ويشاهد جماله فيقول:

«- لو أنني أباع عبداً لكنت لا أقدر بثمن؛ وكان ثمني غالياً جداً!»

فبسبب هذه الزلة أصبح عبدًا وباعوه بثمن بخس. وتلك الحادثة التي تحكي عن بيعه بثمن بخس، مثيرة للاهتمام:

فيُرْوَى أنه بينما كان سيدنا النبي ﷺ عائدًا من المسجد، خرج عليه الأطفال، وقالوا له:

- "إذا لم تعطنا مثل ما أعطيت الحسن والحسين فلن نتركك!"

فقال ﷺ مخاطبًا (بما معناه) بلالاً رضي الله عنه:

- "اذهب إلى البيت، وأحضر ما تجده هناك، أريد أن أشتري نفسي منهم!"

فذهب بلال وأحضر ثماني ثمرات من الجوز.

فاشترى رسول الله ﷺ نفسه بهذه الثمرات. وتحدث مازحًا بما معناه:

"لقد باعوا أخي يوسف بثمن بخس. وها هم يبيعونني أيضًا بثمان ثمرات من الجوز!.".

روي عن سيدنا رسول الله في الحديث الشريف:

"**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**" (مسيم، باب تحريم ظلم المسلم وتحقيره، ٤، ٣٤، رقم ٢٥٦٤)

وبالشكل نفسه فقد أهدى فرعون والدتنا هاجر بوصفها جارية إلى والدتنا سارة. وجاء من هاجر إسماعيل عليه السلام وجاء من نسل إسماعيل عليه السلام سيدنا النبي ﷺ.

فلا فضل لإنسان على الآخر من البنية الفيزيقية. فالإنسان إما أن يكتسب العزة والشرف ببنائه الروحي، أو أن يصبح ذليلاً.

أي أن الإنسان إذا كان طاهر القلب أعماله صالحه، فهو مقبول عند الله. ولا يهم إن كان جميل الهيئة أو لديه أموال كثيرة أو قليلة. كيف يمكن أن يُباع بثمن قليل عندما يصير جسده عبدًا!... تُري بكم سيقيم في يوم المحشر من يحولون أرواحهم وقلوبهم إلى عبيد لرغباتهم النفسية الذاتية؟

لهذا السبب يجب على المؤمن أن يعلم جيدًا ماهية القيمة والعزة، ولا يصير عبدًا لنفسه في أي وقت. تتحدث الآية الكريمة عن ذلك كما يأتي:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ (الفرقان، ٤٣)

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرِيهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوِيهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٢١)

تذكر التفاسير أن التاجر الذي اشترى يوسف عليه السلام قام ببيعه بعد ذلك إلى وزير مالية مصر. وأدرك وزير مالية مصر مدى ذكاء سيدنا يوسف واستعداده، من أجل هذا فكر أنه بإمكانه أن يستفيد منه في المستقبل وأنه قد يتخذه ولدًا لأنه لم يكن عنده أولاد.

قام التاجر الذي اشترى يوسف عليه السلام بثمن بخس ببيعه إلى وزير المالية بمبلغ كبير. فقد قام هذا التاجر، الذي كان أول من اشترى يوسف، بتزينه وخرج به ليبيعه، وفي النهاية باعه بعد مزاد استمر ثلاثة أيام. في النهاية اشتراه وزير المالية عزيز مصر بقدر وزنه مسكاً ولؤلؤًا وذهبًا وفضةً.

سيدنا يوسف وزليخة:

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف، ٢٢)

كَبُرَ يوسفُ عليه السلام، واشتدَّ بنيانه، وأصبح شاباً شديدَ الجمال. فكان حاله سبباً بأن تفكر فيه سيدة البيت الذي يعيش فيه بأسلوب مختلف عما يجب عليه. يروي لنا القرآن الكريم تفاصيل ذلك بقوله تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف، ٢٣- ٢٤)

كانت زليخةُ تمتلك أوصاف النفس الزبون الثلاثة؛ أي الثروة والشهرة والشهوة. وكانت صاحبة حسن وجمال، وكانت لا تجد في أحد ما يتناسب مع أوصافها، ما جعلها محط الأنظار للجميع. وكانت زليخةُ قد أغلقت باب الغرفة بإحكام شديد.

ولهذا فكانت جرأتها في طلب الخطيئة أشد قوة وعزماً. فقالت ليوسف عليه السلام برغبة شديدة:

«هيت لك!» أي «تعال إليَّ» تقصد في قولها الإصرار على الفعل السيء المشين.

وأمام هذا المشهد الذي يذيب إرادة الكثيرين عن المقاومة، تمكن يوسف ﷺ بما أعطاه الله من قوة وثبات عظيمين بقوله تعالى:

«ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه».

علماً أن من أشد ما يمكن للرجل أن يتعرض إليه من امتحان في حياته هو: أن تدعوه امرأة ذات الأوصاف المتميزة من الجمال والشباب والثروة، وأن يضاف على ذلك الخلوة، فيقول لها «كلا».

وهكذا، وأمام كل ما كان أمامه من أمور قوية جاذبة، تمسك بدرع من الله تعالى بقوله «معاذ الله» فكان نعم العبد المخلص، وخير صاحب للتقوى بالتجائه إلى الله ﷻ.

ولهذا جاءت الآية القرآنية الكريمة تتحدث عن برهان الله الذي كان صوناً من الله ومحافظة له ﷺ.

ولهذا، إن من خير الأمور التي تمكن المرء من مقاومة أمور الدنيا ورغباتها المتمثلة مجازاً في قوله تعالى «هيت لك» أي «تعال إلي»، هو أن يقول المرء في قلبه «معاذ الله» «ملتجئاً إلى الله» تعالى في قدرته التي لا نهاية لها.

تطرقت التفاسير إلى تفسير كلمة "برهان" على النحو الآتي:

أن يوسف ﷺ سمع صوت هاتف يقول له:

"احذر! احذ!" لذا لم يلتفت لصوت زليخة، وهي تقول "هيا تعالى".

وبعد أن تكرر الصوت ثلاث مرات، ظهرت صورة ظلية لسيدنا يعقوب ﷺ عندها استجمع يوسف رباطة جأشه وأعرض عن زليخة.

أذن الله أن يُقدّم إلى يوسف بن يعقوب ﷺ عونا معنويًّا، فمنعه من أن يميل إلى زليخة التي تمثل النفس الأمّارة[٧] هنا.

يقول علي بن حسن في إحدى رواياته:

كان هناك صنم تعظمه زليخة في الغرفة التي أعدتها[٨].

فقامت زليخة بوضع غطاء فوق الصنم قبل أن تدعوا يوسف إليها.

فلما رأى يوسف هذا سألها:

- "لماذا فعلت هذا؟"

---

٧ - النفس الأمارة: هي النفس العاصية التي تحث العبد على ارتكاب المعاصي. وكلمة "الأمّارة" تعني التي تأمر بكثرة. والهدف الأساسي للنفس التي لها هذه الصفات، هو إرضاء أهوائها بلا مقياس محدد. وهي النفس التي تعاون الشيطان; وتجري وراء الأهواء والمعاصي.

٨ - في ذلك العهد كان من الممكن أن يتخذ بعض الأشخاص أصنامًا خاصة بهم.

فقالت زليخة:

- "استحيي أن يراني في لحظة فجور!"

فقال لها يوسف:

- "ي أنتِ تخجلين من قطعة من الحجر لا تسمع ولا ترى ولا تفقه شيئًا؛ ألا يحق لي أيضًا أن أخجل من ربي الذي خلقني في أبهى صورة ولا يخفى عليه شيء؟!"

فلما رأى يوسف برهان ربه، جرى مسرعًا نحو الباب وقد شعر بالخوف. فجرت زليخة هي الأخرى خلفه:

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف، ٢٥)

فقال لها العزيز:

"- من الذي أراد بأهلي سوءاً؟"

فأضافت زليخة إلى ذنبها ذنباً آخر فقالت مفترية على يوسف:

"- أراد هذا الشاب أن يراودني عن نفسي."

فالتفت العزيز إلى يوسف وقال:

"- هل هذا هو نتيجة الإحسان الذي قدمته إليك؟ لم يكن عليك أن تخزنني!"

فقام يوسف عليه السلام بسرد الوقائع الحقيقية للحادثة دفاعاً عن نفسه من ذلك الإفتراء:

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ (يوسف، ٢٦)

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف، ٢٧)

وتذكر إحدى الروايات أن العزيز قال لزليخة:

- "لن أقبل بحديثكِ طالما لم تأتيني بدليل!"

وفي رواية أخري، أن يوسف عليه السلام دعا الله أن يظهر دليل طهره. فحدثت المعجزة وتحدث في تلك اللحظة طفل يبلغ من العمر ثلاثة أو أربعة أشهر، وهو ابن خال زليخة، تحدث وشهد بطهر يوسف عليه السلام.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. (يوسف، ٢٨)

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (يوسف، ٢٩)

وبدأت هذه الحادثة تنتشر بين الناس.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَيهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يوسف، ٣٠)

النساء يقطعن أيديهن لما رأيْنَ يوسف:

قررت زليخة أن تعطي درسًا لنساء مصر بعد أن سمعت ما يدور حولها من شائعات:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(يوسف، ٣١)

أمام ما كان من فعل لنساء مصر أمام ما رأوه من جمال يوسف عليه السلام قالت لهم زليخة:

﴿قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف، ٣٢)

فتح يوسف عليه السلام الذي كان وجهه كالشمس، وهو يطوف شوارع مصر، وفاق بجماله جمال القمر ليلة الرابع عشر من الشهر، فتح يديه إلى السماء وتضرع إلى ربه خائفًا من أن يعصي أمر ربه في محنة المرأة التي يمر بها. تضرع إلى الله أن يحفظه. لأن المرأة إذا غفلت عن الحق، كان كيدها أعظم من كيد الشيطان.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف، ٣٣)

يجب علينا أن نعلم أنه لا خلاص من شر النفس، إذا هي اتبعت أي نفَّذت رغباتها، إلا باللجوء إلى الله والامتثال لأوامره. وبذلك يكون يوسف قد أفلح باللجوء إلى الله.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف، ٣٤)

إن لم يتسلح الإنسان بحفظ الله تعالى، فإنه ما من قلب حتى ولو كان قلب نبي حائز على العصمة، فإنه ونتيجة لبشريته، لا يمكنه أن يكون آمناً من مكائد الدنيا، والميل إلى بعض الرغبات، ووسوسة الشيطان وأحاديث النفس. فلا يمكن له أن يحمي نفسه بنفسه! ولهذا، كان "برهان الله» إلى يوسف عليه السلام خير مثال يوضح هذه الحقيقة.

ولهذا، فإن من واجبنا كعباد لله؛ أن لا نأمن لحيل أنفسنا أبداً، وأن نبقى في حالة من التيقظ فنلجأ دوماً إلى الله تعالى مدركين لعجزنا في هذا الشأن.

السجن:

وقبولاً من الله تعالى لدعاء يوسف عليه السلام:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (يوسف، ٣٥)

نُزِعَ عن يوسف عليه السلام لباسه وأُلبس لباساً مصنوعاً من الريش، وربطت قدميه بسلسلة من الحديد. وعندما اقترب يوسف عليه السلام من باب السجن أحنى رأسه وقال "بسم الله" ودخل. والتف حوله جميع من في السجن فبدأ بالبكاء. فأتاه جبريل عليه السلام يسأله عن سبب بكائه. فأخبره يوسف عليه السلام بأن لم يجد مكاناً يمكنه من الصلاة فيه، فقال له جبريل عليه السلام:



"- صل حيث بدا لك! فلقد طهر الله أربعين عرشاً داخل السجن وخارجه"[9]

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف، ٣٦)

فقال يوسف مخاطبًا الفتايين:

---

٩ - في عهد الأنبياء الأولين والأمم السابقة، لم يكن مسموحاً لهم العبادة حسب شريعتهم. فكانوا لا يستطيعون العبادة إلا في أماكن محددة. أما رسول الله ﷺ فقد منح لخصوصية مكانته وذاته المباركة تميزاً بأن جعل الله تعالى سائر أرجاء الأرض أماكن طاهرة يمكن لأمة محمد ﷺ العبادة فيها. ولهذا نجد أن رسول الله ﷺ قد قال:

«... وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً...» (البخاري، التيمم، ١)

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (يوسف، ٣٧)

وحول اسباب إلقاء هذين الشابين في السجن يروى ما يلي:

حاول بعض زعماء مصر من الناس المتزعمين فيها قتل الملك ريان بن الوليد عبر وضع السم له ومن ثم اختيار أحدهم مكاناً له في منصبه. ولهذا فقد قام هؤلاء الزعماء بمحاولة إغراء شابين يعملان في بلاط القصر أحدهما ساق والآخر طباخ لدى الملك. وأقنعوا هذين الرجلين بوضع ذلك السم في طعامه وشرابه.

ولكن ساقي القصر كان قد فهم سوء هذا العمل، فعدل عن وضع السم للملك. أما الطاهي فوقع في سوء عمله وارتكب هذا الذنب. وعندما أراد الملك أن يمد يده إلى طعامه صاح به الساقي وقال:

"- أيها الملك! إياك أن تأكل، فإن هذا الطعام مسموم"

وقال له الطاهي:

"- أيها الملك! إياك أن تشرب، فذلك الشراب مسموم"

وأمام ذلك الأمر، طلب الملك من الساقي أن يشرب من ذلك الشراب. فشرب الساقي دون اي تردد.

ثم أمر الملك الطاهي بأن يأكل من ذلك الطعام. لكن الطاهي أبى ورفض.فأطعم الملك من ذلك الطعام أحد الحيوانات فخر قتيلاً جراء ذلك مباشرة.

فأمر الملك بحبس كلا الرجلين. فرأى كل منهما ما كان من رؤيا وردت حول ذلك في القرآن الكريم.

(القرطبي، الجامع، جـ٩، ١٨٩)

بين يوسف عليه السلام للفتيين حقيقة موقفيهما، ودعاهما لدين التوحيد.

ولهذا السبب أخبرهم قبل أن يفسر لهما ما رأيا، أنه على الدين الحق، وأنه يأخذ علمه من لدن الله عز وجل وأن المصريين يسيرون في الطريق الخطأ، وبذلك يكون قد هيأهم لعقيدة التوحيد.

ثم دعاهم بعد ذلك إلى الدين الحق. والدرس المُستفاد هنا؛ أن المؤمن لا يترك "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[١٠] حتى في أصعب المواقف التي يمر بها.

ولهذا، كانت الآيات الثلاثة المتعاقبة تتحدث عن تبليغ يوسف عليه السلام لهما:

---

١٠ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الأمر بالخير، والنهي عن الشر. والمعروف هو الشيء الذي أمرت به الشريعة، والمنكر هو ما نهت عنه. أو بتعبير آخر يطلق المعروف على الشيء الذي يتوافق مع القرآن والسنة؛ أما المنكر فيطلق على الشيء الحرام والإثم الذي لا يرضى عنه الله وينكره.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف، ٣٨)

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف، ٣٩)

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَآؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٤٠)

تأويل يوسف عليه السلام للأحلام

بعد أن دعا يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن إلى عقيدة التوحيد، بدأ يفسر لهما تفاصيل رؤيا كل منهما على حدة فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف، ٤١)

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسيهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف، ٤٢)

وكانت النتيجة تماماً كما أشار يوسف عليه السلام إليهما. فأخرج الساقي من السجن وعاد إلى وظيفته التي كان عليها. أما الطاهي فكان مصيره الإعدام.

يرى بعض المفسرين أن طلب يوسف العون من غير الله، أثار غيرة الله؛ لأن هذا الحال يُعد زلة بالنسبة للأنبياء. وبسبب هذه الزلة قضى يوسف في السجن سبع سنين أخرى بعد الخمس الأولى التي كان قد مكثها فيه. وبذلك يكون يوسف عليه السلام قد قضى اثنتي عشرة سنة في السجن.

ويروى أنه خلال الفترة التي سجن فيها يوسف عليه السلام، كان كل من خرج من السجن يعود إليه بين الفينة والأخرى ليزوره ويتحدث إليه في جلسات طويلة. وفي أحد الأيام، وبينما كان حارس السجن يتحدث إلى يوسف عليه السلام قال له:

"- يا يوسف! إني أحبك لدرجة لا أحب أحداً مثلك قط."

فقال له يوسف عليه السلام:

"- إني ألتجيء إلى الله ليحميني من حبك لي!"

فقال له حارس السجن:

"- لماذا؟" فأجابه يوسف عليه السلام:

"- كان أبي شديد الولع بي، فألقاني إخوتي في البئر؛ وأحبتني زليخة فألقي بي في السجن؛ والآن، أمام حبك لي من يعلم المكان الذي سألقى به!؟".

عن مالك بن دينار أنه قال:

لما قال يوسف عليه السلام للساقي:

"- أُذْكُرْني عند ربك!"

قيل له: (أي أوحى الله سبحانه وتعالى إليه بقوله):

"- يا يوسف! اتخذت من دوني وكيلا؟ لَأطِيلنَّ حبسك!"

فبكى يوسف عليه السلام وقال:

"- يا ربي! أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت كلمة ولن أعود!"

ويخبر حسن البصري أنه يبكي كلما يقرأ هذه الرواية ويقول:

" كلما أصبنا بأمر لجأنا إلى الناس. فما هي عاقبة أمرنا مع ما نحن عليه من حال؟!"

يقول رسول الله ﷺ بما معناه:

"**رحم الله أخي يوسف لو لم يقل للساقي اذكرني عند ربك، ما لبث في السجن سبع سنوات بعد الخمس سنوات**" (البروسوي، روح البيان، ٤، ٢٦٤).

و على الرغم من هذا فالإبتلاءات والمحن والمشقات بأنواعها التي يقدرها الله عز وجل على الأنبياء والأولياء ليست من قبيل العقاب، بل هي لطف بهم.

يقول رسول الله ﷺ:

"**إذا أحب الله عبداً ابتلاه!**" (علي المتقي، كنز الأعمال، ٣، ٣٣٤/ ٦٨١١)

رؤية ملك مصر:

وتكمل الآية الكريمة هذه القصة بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف، ٤٣)

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ (يوسف، ٤٤)

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (يوسف، ٤٥)

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٤٦)

يفسر يوسف عليه السلام رؤية الحاكم بما أعطاه الله تعالى من العلم فيقول:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

(يوسف، ٤٧ - ٤٩)

بعد تفسيره لما كان من رؤيا، يفرح الحاكم بما حصل عليه من نتيجة ويرغب بمكافأة يوسف عليه السلام:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[11] (يوسف، ٥٠)

لم يذكر يوسف عليه السلام اسم زليخة تأدباً. كما أنه لم يرغب في أن تسعى لحيلة جديدة لما كان يظنه منها من عداوة وصلت إلى قمتها. فيجمع الحاكم تلك النساء جميعاً:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف، ٥١)

فيوضح يوسف عليه السلام سبب حركته هذه على بساطتها فيقول:

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (يوسف، ٥٢)

يبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بأنه لا يحب الخائنين أصحاب الحيل والمحتالين بقوله جلَّ وعَلا:

﴿...إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ (الأنفال، ٥٨)

١١ - على الرغم مما لحق بسيدنا يوسف من آلام كثيرة، فإنه راعى حق زليخة التي ظل في بيتها فترة، بما يليق بلطف نبي، ولم يذكر صراحة أنها كسرت بخاطره، واستدل بالنساء اللاتي قطعن أيديهن. تزوج يوسف بعد خروجه من السجن بزليخة وكان زوجها قد مات، وأنجب منها طفلين. ويروى أن يوسف عليه السلام قال لزوجته: "هذا أفضل مما كنتِ تطلبينه سابقًا، أليس كذلك؟"

وأكبر خيانة هي تلك التي يقوم بها المرء تجاه الله ورسوله. لذلك، ينبهنا الله تعالى لهذا الشأن فيقول جلَّ وَعَلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال، ٢٧)

إن الخائن ممن يمنع حقوق العباد مخالفاً أوامر الله تعالى ونواهيه، هو الذي سيعلم بعد ذلك أن الخيانة لا تعود في نهايتها بالضرر إلا على الخائنين أنفسهم كما كان الحال في المثل الذي ضربه القرآن الكريم عن «أصحاب ضروان» الذين خانوا الأمانة فانقلبت عليهم بشكل واضح مباشر.

فراسة سيدنا يوسف:

لم يرغب يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن قبل أن يقف ملك مصر على الحقائق التي عاشها، وقبل توضيح العزيز أصل المسألة. لأن يوسف كان يريد أن يعلم الجميع أنه أُلقي في السجن دون وجه حق. استخدم يوسف عقله لهذا، وضرب مثلاً للصبر والوقار ومنع الحاسدين من خلط الأمر أكثر من ذلك.فأثبت بذلك كذب الادعاءات وافترائها، وقبل بعد أن تخلص تمامًا من هذا الاتهام أن يخرج من السجن.

وهناك نوع من التشابه بين ما أبداه سيدنا يوسف من حساسية وما أبداه رسول الله ﷺ. تحكي عن ذلك أم المؤمنين صفية بنت حُيَي على النحو الآتي:

ذهب رسول الله ﷺ للاعتكاف، فذهبت لزيارته ذات ليلة، وتحدثت إليه. ولما هممت أن أعود إلى البيت، رأيته وقد نهض كي يوصلني إلى بيتي.

وفي الطريق التقينا باثنين من الأنصار رضي الله عنهما فلما رأوا النبي ﷺ أرادوا أن يبتعدوا بسرعة، فقال لهما رسول الله:

- "على رسلكما! تلك المرأة هي زوجتي صفية بنت حيي".

ولما قالوا له سبحان الله، يا رسول الله، أن يسلك الرسول سلوكًا غير لائق!!

قال لهم:

- "إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا". (البخاري، الاعتكاف، ٢؛ مسلم، السلام، ٢٣-٢٥)

و لأهمية هذه الحقيقة يحذر الله عز وجل عباده في القرآن الكريم على النحو الآتي:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء، ٣٦)

وبعد أن برأ يوسف ﷺ نفسه من التهم التي وجهها إليه الناس بشكل قاطع وحازم، توجه إلى ربه جلَّ وَعَلا ليحميه من أمارة نفسه فقال ﷺ:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف، ٥٣)[١٢]

ويقول الله سبحانه وتعالى في آية أخرى:

﴿...وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور، ٢١)

ولهذا، إن ما يجب على العبد هو أن يحفظ نفسه من شرها بالتمسك بالاستغفار والالتجاء إلى الله والتضرع إليه وأن يدعو الله ﷻ بالوصول إلى يوم القيامة أبيض الجبين.

إن شاء الله جعل العبد سلطانًا:

وفي نهاية الأمر، وبعد أن أدرك المَلِكُ سياسة وذكاء وروعة يوسف ﷺ، أراد أن يأتي به إلى مقام رفيع. ويتحدث القرآن الكريم عن هذا الأمر بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف، ٥٤)

ولما حانت ساعة خروج يوسف من السجن، اغتسل وارتدى ملابس جديدة، ودعا لمن في السجن بالخير.

وبينما هو يخرج من السجن توقف وكتب على باب السجن ما يلي:

"هنا منزل البلاء، وقبر الأحياء، ومكان الأعداء الصاخب، ومكان اختبار الأصدقاء".

قال يوسف ﷺ عندما دخل إلى حضرة الملك:

"إلهي! أرجو منك الخير قبل الخير الذي سيأتيني من هنا. أعوذ بعزتك وقدرتك من شره".

كان الملك يجيد التحدث بأكثر من لغة، إلا أن يوسف ﷺ كان يتقن عددًا من اللغات أكبر منه؛ فتعجب الملك لما علم بذلك، وطلب أن يسمع من يوسف ﷺ تأويل الرؤية التي رآها بلغة يوسف ﷺ فقص يوسف ﷺ ما قاله لرسوله قبل ذلك.

---

١٢ يقال أن الآيات ٥٢ و ٥٣ هي من كلام زليخة أيضاً. وفي هذه الحالة يكون معنى هذه الآيات كالتالي: «إنني لست أحاول أن أبرئ نفسي. فبينما أنا أسعى ليعرف يوسف بالحقيقة بأنني لم أخنه، فأنا لست أسعى من خلال ذلك لأن أزكي نفسي وأبرّئها. فما فعلته فعلته أمام عينيه، ولم أخنه من خلفه، أي بغيابه» وهكذا، فإن زوجة العزيز اعترفت بذنبها واستغفرت، فأقرت بالحقيقة وأعلنت إيمانها بشكل واضح بالله تعالى. وظهر من خلال ذلك براءة وعفة يوسف u بشكل واضح براق لسائر الشعب.

فسأل الملك الذي ظل مشدوهًا من تأويل يوسف وتعبيراته، عن التدابير التي يجب اتخاذها؛ فأجابه يوسف عليه السلام قائلاً:

- "يجب أن تزرعوا كثيرًا من القمح في السنوات الرغد، ثم تقوموا بتخزينه؛ وبذلك تستطيعوا أن تؤمنوا معيشتكم في سنوات القحط، وتتمكنوا كذلك أن توفروا دخلاً للخزينة بتصديركم جزءا منه.

فسأله الملك:

- "حسنًا، ومن سيقوم بهذا الأمر؟"

فرد يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، ٥٥)

يُفهم من الآية السابقة جواز أن يطلب كل شخص عادل، قادر على تنفيذ أحكام الشريعة، أن يطلب وظيفة إدارية. غير أنه ليس من المستحب أن يتسابق المسلمون فيما بينهم خلف طلب أو رغبة كتلك.

وفي هذه الآية إشارة كذلك إلى وجوب الحكم بأمر الله على الأرض، وأن تُؤْخذ السلطة من الإداري الظالم لتحقيق العدالة. ولكن مسئولية هذه الوظيفة ثقيلة وكبيرة.

وها هو يوسف عليه السلام يتولى وظيفة وزارة المالية رغبة منه في إصلاح العالم، لأنه يمتلك كل شروط هذه الوظيفة، ولأنه سيوظف كل هذه الشروط لتحقيق هذه الغاية.

﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف، ٥٦)

﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يوسف، ٥٧)

وضع الملك تحت تصرف يوسف عليه السلام إدارة مصر كلها مانحًا إياه صلاحياته.

كان يوسف عليه السلام يدعو المصريين إلى عقيدة التوحيد بوصفه عبداً ورسولاً اصطفاه الله لذلك. وبعد فترة من الوقت أصبح الملك - بلطف من الله عز وجل - مسلماً في حضرة يوسف عليه السلام. وآمن في حضرتها كذلك عدد كبير من الناس.

وبمجرد أن قبل يوسف عليه السلام بهذه الوظيفة، التي آلت إليه بمقتضاها إدارة مصر والتصرف في أمور الخزينة، بدأ يولي اهتمامًا للعمل بالزراعة. فزاد المحصول. وتكدست في المخازن المحاصيل التي زادت عن الحاجة.

وعندما جاءت السنوات العجاف التي ذُكرت في الرؤيا، بدأت المحاصيل الموضوعة في المخازن تسد حاجات أهل مصر، وأدرَّت دخلاً للخزينة بالتصدير للدول المجاورة كذلك. فكان يأتي إلى مصر من كل حدب وصوب أناس يتضورون جوعًا بسبب القحط الذي حل ببلدانهم، ويشترون من مصر قوتهم.

زواجه من زليخة:

في تلك الأثناء قامت زليخة بتوزيع كل شيء تملكه على الناس، ولم تُبقَ شيئاً لنفسها. وجف ينبوع عينها من البكاء على معشوقها يوسف، ونخر جسدها، ووصلت إلى حالة لا فرق بينها وبين امرأة عجوز.

وانطوت في أرض خَرِبَةٍ مهجورة على طريق يوسف. لقد فكرت في كل ما مر بها من حوادث حتى ذلك اليوم، وفهمت الحقيقة. مرت من أمام الصنم الذي عبدته، وقالت:

- "سحقًا لك، ولكل من يسجد لك ويعبدك! لم تفعل شيئًا لكبر سني وفقد بصري وقلة حيلتي! من اليوم أنا أنكر ألوهيتك وآمنت برب يوسف..". وانخرطت صباح مساء تذكر ربها الذي خلق العالمين، الواحد الذي ليس كمثله شيء.

ركب يوسف عليه السلام ذات يوم فرسه مع المقربين إليه، ومر من أمام بيت زليخة. فخرجت زليخة على الفور من البيت ونادت على يوسف من الخلف بصوت عال، وقالت:

- "أسبح صاحب تلك المقدرة التي جعلت السلاطين عبيدًا بذنوبهم، وجعلت العبيد سلاطين بعبوديتهم للحق تعالى!.".

أراد الله جل جلاله أن تحمل الرياح هذا الصوت الذي كان بعيدًا إلى حد ما وتلقيه في أذن يوسف عليه السلام فبحث يوسف عليه السلام وتحرى عن صاحبة هذا الصوت الذي لم يتعرف عليه. وكانت زليخة تقول لكل من كان يجيء للاطمئنان عليها أن يوسف سيكون الدواء لآلامها. خرجت زليخة في حضور يوسف عليه السلام وطلبت منه أن يدعو الله كي يعيد إليها بصرها وجمالها القديم. ثم طلبت منه الزواج بعد ذلك.

فدعا يوسف عليه السلام فتحققت رغبتاها الأولى والثانية. فعاد إليها بإذن الله بصرها وجمال وجهها. أما بالنسبة لطلبها الثالث فأحنى يوسف عليه السلام رأسه وأطرق يفكر. وفي تلك الأثناء جاءه جبريل وقال له بخصوص زليخة التي لم تزل تحافظ على عذريتها حتى ذلك الوقت:

- "يا يوسف! ربك يقرئك السلام ويأمرك ألا ترد طلب المرأة! تزوج بها. لأنها ستكون زوجتك في الدنيا والآخرة!"

فاستجاب يوسف عليه السلام لأمر ربه وتزوج بها، ورفع يديه إلى السماء وقال:

- "يا من أحسن إلي بنعمه الكثيرة، يا أرحم الراحمين يا الله!... أحمدك ولا أحصي ثناءً عليك!

إلهي! أدعوك أن تتم نعمتك علي، وأن تدلني على أبي يعقوب، وأنر له عينيه بإرشاده إلي، واجمعني وإخوتي.

ربِّ! يا مجيب الدعاء، وسعت رحمتك كل شيء!"

مجيء إخوته لشراء الحنطة وخطة سيدنا يوسف المحكمة:

أرسل يعقوب عليه السلام أبناءه عدا بنيامين أخا يوسف من الأب والأم أبقاه إلى جواره، أرسلهم لشراء الحنطة من مصر بسبب ما ألم بأرضهم من قحط.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ (يوسف، ٥٨)

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (يوسف، ٥٩)

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ (يوسف، ٦٠)

وسبب طلب يوسف عليه السلام إحضار أخيه الذي لم يأت معهم هو التالي:

بسبب ما كان من أيام قحط، كان الرزق يعطى على قدر الحاجة فقط. ولهذا كان يتوجب على الشخص أن يتواجد بنفسه لأخذ رزقه. ولهذا، عندما طلب إخوة يوسف الرزق لأبيهم وأخيهم الذي لم يأت معهم، قبل يوسف عليه السلام عذر الأب العجوز وأرسل له الرزق استثناءً لمرة واحدة. ولكنه وضع عليهم شرط إحضار أخيهم الآخر في المرة القادمة. وكان يرجو عبر هذه الوسيلة أن يرى أخاه وأن يأخذ منه أخبار والده. فقال له إخوته:

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (يوسف، ٦١)

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (يوسف، ٦٢)

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف، ٦٣)

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، ٦٤)

وعندما قال يعقوب عليه السلام "فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين" قال الله تعالى:

"ما دمت تتوكل علي بهذا الشكل، فبعزتي وجلالي لأجمعنك وولديك الاثنين!"

يُفهم من هذا أنه لا يجب أن يتوكل المؤمن على أحد غير الله، وألا يثق في حفظ الآخرين له. لأن كل شيء غير الله محتاج لمن يحميه. أما الله عز وجل فلا يحتاج لأحد.

حاول أبناء يعقوب ﷺ مع أبيهم بشتى الطرق حتى يسمح لهم بأن يأخذوا بنيامين معهم:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (يوسف، ٦٥)

وفي النهاية قبل أن يرسل معهم بنيامين.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (يوسف، ٦٦)

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف، ٦٧)

أما السبب الذي من أجله أمر يعقوب ﷺ أولاده أن يدخلوا مصر من أبواب مختلفة، لأنهم كانوا جميلي الهيئة مهندمي الثياب، كما أنهم رأوا من الملك عزًّا وكرمًا لم يره أحد غيرهم في سفرهم السابق.

فقد دُهش كل شخص لما لاقوه من كرم، وأخذ الجميع يرمقونهم بنظرهم. فربما جلب لهم دخولهم مجتمعين من باب واحد سوء الحال.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٦٨)

أنا أخوك يوسف!

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف، ٦٩)

يُرْوَى أن سيدنا يوسف قدم طعاما لإخوته. وأجلسهم على المائدة اثنن تلو الاثنين. ولما بقي بنيامين وحده، تأثر وبكى، ثم قال:

- "لو كان أخي يوسف سالمًا، كان قد جلس معي هو الآخر".

فأخذه يوسف ﷺ بنفسه إلى المائدة. وبعد الطعام أرسل إخوته اثنين اثنين إلى مكان إقامتهم. فبقي بنيامين أيضًا وحده. لأجل هذا قال يوسف ﷺ:

- "ليس لهذا رفيق! فليبق معي أنا!"

وظل ساهرًا إلى جانب بنيامين. وقال يوسف ﷺ:

- "هل تقبلني أخًا بديلا عن أخيك الذي مات؟

فقال بنيامين:

- "ومن يرفض أخًا مثلك! ولكن أباك ليس يعقوب وأمك ليست رحيل..".

هنا بكي يوسف عليه السلام ونهض واحتضن بنيامين، ثم قص على بنيامين الحقيقة:

- "أنا أخوك! لا تبتئس لما فعلوه بنا!.".

يشير قول يوسف عليه السلام لبنيامين:

"لا تبتئس لما فعلوه بنا في الماضي"، يشير إلى أن الله لا يوفق الحاسدين في إدراك حيلتهم. وبذلك فمهما صنعوا ليوسف ومهما حسدوه ومهما آذوه، فإنهم لم يبلغوا آمالهم. لقد جمع الله عز وجل الأخوين بعضهما ببعض في البداية ثم جمع يعقوب بيوسف بعد ذلك.

سيدنا يوسف يستبقي بنيامين:

تحدث يوسف بعد أن عرّف نفسه لأخيه بنيامين:

- "أخي، إنني سأستبقيك إلى جواري. أنت تعلم أن حزن أبي وهمه لفقدي كبير. فلو أنني استبقيتك هنا، فسيزداد حزنه أكثر. ولكن يجب علينا أن نفعل هذا حتى نلتقي به. وسوف أعد خطة محكمة في هذا الأمر.".

و بعد قوله هذا لبنيامين:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (يوسف، ٧٠)

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ (يوسف، ٧١)

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (يوسف، ٧٢)

﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (يوسف، ٧٣)

﴿قَالُوا فَمَا جَزَآؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (يوسف، ٧٤)

﴿قَالُوا جَزَآؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (يوسف، ٧٥)

بحسب شريعة يعقوب عليه السلام، فإن السارق يقبض عليه ويخدم صاحب المال لقاء ما سرقه من البضاعة عبداً لسنة كاملة. أمّا في قانون مصر فكان السارق يضرب ويدفع ضعفي ما سرقه من البضاعة أو المال.

ولما كان يوسف يريد أن يحتجز أخاه بنيامين عنده، فإنه أراد أن يكون العقاب بناءً لشريعة يعقوب عليه السلام، ولهذا سألهم عن جزاء من يكون سارقاً منهم. تقول الآية الكريمة:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، ٧٦)

وعندما أخرج صواعه من حمل أخيه بنيامين:

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف، ٧٧)

تذكر إحدى الروايات أن عمة يوسف عليه السلام كانت تحبه كثيرًا. وعندما كبر يوسف أراد أبوه أن يأخذه إلى جواره. أما عمته فلم تكن تريد الافتراق عن يوسف بأي حال من الأحوال. فربطت وشاحا ورثته عن إبراهيم عليه السلام بيوسف عليه السلام. وأخذت تبحث عن الوشاح فوجوده على يوسف. لذا استبقته عندها وفق القانون السائد وقتها. وها هم أخوى يوسف يشيرون إلى هذا الموقف.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف، ٧٨)

﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّـآ إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ (يوسف، ٧٩)

بدأ إخوة يوسف يفكرون بما يمكنهم أن يقوموا به أمام ما وضعوا فيه من أمر وما الذي يمكنهم أن يخبروا أباهم به. تصف الآيات القرآنية الكريمة حالهم فيقول جلَّ وَعَلا:

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يوسف، ٨٠)

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (يوسف، ٨١)

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (يوسف، ٨٢)

فذهبوا إلى أبيهم ونقلوا إلى أبيهم ما قاله إخوانهم بالضبط.

الأسى الذي يفتح باب المكافأة:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف، ٨٣)

لم يشأ يعقوب عليه السلام أن يصدق أقوال أبنائه هذه المرة على الرغم من صدقهم، لما قام به إخوة يوسف في السابق من كذب عليه. فقال لهم:

" كلا، بل لقد خدعتكم أنفسكم وجرتكم إلى أمر عظيم، وإلا فما علم العزيز بشريعتنا التي تمسك السارق أسيراً عنده؟"

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف، ٨٤)

وكان يعقوب عليه السلام مذ أن فقد ابنه يوسف لا يتمكن من النوم. وكان يعقوب عليه السلام أشرف الناس عند الله تعالى في تلك الحقبة من الزمن على وجه الأرض. وبنتيجة البكاء المستمر الذي أصابه، ابيضت عينا يعقوب عليه السلام. ويقال بأن حكمة ذلك هي أن لا يتمكن من رؤية بقية أبنائه فيزداد عليه حزنه وألمه وكدره.

يقول رسول الله ﷺ:

"يقول الله عز وجل: من أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة" (الترمذي، الزهد، ٥٨/ ٢٤٠٠)

وبحسب رواية البخاري فيقول:

"إن الله قال:إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ" (البخاري، المرضى، ٧)

بكى يعقوب عليه السلام أربعين سنة. ويروي بعض الأئمة عن العمى الذي أصيب فيه فيقولون: لقد اعطى الله تعالى يعقوب عليه السلام عمى البصر، لا ليشاهد مظهر يوسف الخارجي، بل ليتمكن من رؤية الجمال المطلق الدائم المتجلي.

لأن نور الجمال الإلهي قد تجلى في يوسف عليه السلام، وهو السبب الذي دفع يعقوب عليه السلام لمحبة يوسف بهذه الدرجة. ولوقوعه في خطأ لا إرادي أمام المولى عز وجل الذي هو "الحسن المطلق" أخذ الله تعالى يوسف منه، وأخذ عينيه اللتين تنظران إلى ظاهر يوسف عليه السلام.

وهو ما يشير إلى أن العبد إذا ما نظر إلى الدنيا بظاهر ما فيها ولم يدرك فناء هذه المظاهر، فإنه لن يتمكن من رؤية "الحسن المطلق" أي الجمال الإلهي أو الجمال المطلق.

لا تيأسوا من رحمة الله:

﴿قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف، ٨٥)

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٨٦)

ومن ثم قال يعقوب عليه السلام لأبنائه:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، ٨٧)



اليأس من رحمة الله، هو عدم إدراك لصفة الحق تعالى "الرحمن الرحيم"؛ وعدم معرفة بالرحمة الإلهية. لقد ذكر فرعون اسم الله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر، ٥٣)

يُفهم من هذه الآية أن الكافر وحده هو الذي يقنط من رحمة الله.

وبناءً على هذا الأمل الذي تحدثنا عنه، يرسل يعقوب عليه السلام برسالة مع أبنائه إلى عزيز مصر، أي إلى يوسف عليه السلام. وكان يعقوب عليه السلام يجهل حينها أن ابنه يوسف هو عزيز مصر نفسه. ويقول له في هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من إسرائيل يعقوب ابن إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، إلى عزيز مصر:

نحن سلالة تعرضت للكثير من البلوى. فابتلي جدنا إبراهيم بنار نمرود فصبر. فأوصله الله إلى بر السلامة. وابتلي أبي بمحن أخرى أيضاً فصبر. فكافأه الله تعالى أيضاً. أما أنا، فقد ابتلاني الله بفقد ابني يوسف. فأصبحت عيناي لشدة البكاء والحسرة عليه عمياء لا ترى، وانحنى ظهري. فكنت أسلي نفسي بولدي الذي أسرته عندك. لقد قلت عنه بأنه سرق. ومن كان من نسلنا لا يسرق. فنحن لا نلد من السارقين. فإما أن تعيده إلي، أو أن أدعو عليك دعاء يصيب به أولادك حتى البطن السابع بتأثيره!»

وعندما قرأ يوسف عليه السلام هذه الرسالة بكى وكتب له جواباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

من عزيز مصر إلى إسرائيل يعقوب؛

يا أيها العجوز، لقد أتتني رسالتك. قرأتها وفهمت فحواها. تتحدث عن الآباء الصالحين وصبر كل منهم على بلائه. فكما صبر كل منهم على ابتلائه فاصبر أنت أيضاً! والسلام!»

وعندما بلغ يعقوب عليه السلام جوابه قال:

«- إقسم بالله العظيم، إن من يكتب مثل هذه الرسالة ليس بملك، إن هي إلا رسالة نبي. ومن كتب هذا لا بد وأنه يوسف.» فأرسل أولاده مرة أخرى إلى مصر ليستعلموا عن الأمر مرة أخرى. فخرج أبناؤه مباشرة إلى هناك:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف، ٨٨)

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (يوسف، ٨٩)

بحسب ما تروي التفاسير فإن إخوة يوسف عليه السلام الذين ألقوه في البئر، كانوا يؤذون أخاهم الأصغر بنيامين أيضاً ويحقرونه.

مثال عظيم للعفو:

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف، ٩٠)

﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف، ٩١)

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، ٩٢)

إن هذه الآيات الكريمة لهي تشير في الوقت نفسه إلى أسلوب من أجمل أساليب التربية، وهو الإجابة على الإساءة بالإحسان. علماً أن علو الشأن في مثل هذه الحالات يكون سبباً في انتهاء عداوة الأعداء، فينقلب المرء إن لم يكن صديقاً أو كان عدواً نحو الصداقة، ومن كان صديقاً فإن صداقته ومحبته تزداد.

تخبرنا الآية الكريمة بشكل جميل ذلك فتقول:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت، ٣٤)

ونذكر لرسول الله ﷺ مثالاً للعبرة في هذا الشأن:

كان أبو سفيان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل نزول الوحي. ولكنه عاداه بعد النبوة وهجاه. وكان شاعر الرسول حسن بن ثابت رضي الله عنه يجيب على هذا الهجاء. ومن ثم تاب أبو سفيان عما كان منه من أعمال. وخرج قاصداً المدينة المنورة. فالتقى برسول الله ﷺ في الطريق. فلم ينظر رسول الله ﷺ إلى وجهه. فتأثر أبو سفيان لذلك. فيقول كما علمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه الآية الكريمة:

«تالله لقد آثرك الله علينا، وإن كنا لخاطئين»

فيجيبه إمام الرحمة والشفقة رسول الله ﷺ بالآية الكريمة من سورة يوسف:»لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.» عافياً بذلك عما كان منه من أخطاء وأفعال سابقة. وكان أبو سفيان بعد أن اسلم

لا يوفع رأسه لرؤية النبي ﷺ استحياءً منه لِفَخْرِ الكائنات سيدنا محمد ﷺ. (فاقدي، المعازي، ٢، ٨١٠ -٨١١؛ ابن هشام، السيرة، ٤، ٢٠ – ٢٤؛ ابن عبد البر، الإستيعاب، ٤، ١٦٧٤)

وعندما فتح رسول الله ﷺ مكة المكرمة تجمع أهل قريش في حرم المسجد الحرام. وجلسوا في جوار الكعبة. وكانوا ينتظرون ماذا يفعل بهم رسول الله ﷺ.

فيأتيهم رسول الله ﷺ ويقول لهم سائلاً:

«- يا أهل قريش! يا أهل مكة! ماترون أني فاعل بكم؟»

فيجيب أهل قريش:

«- خيراً (أي نظن أنك ستقوم بخير) أخ كريم وابن أخ كريم. (أي أنك أخ، صاحب كرم وصاحب خير! فأنت اليوم صاحب قوة وقدرة، فعاملنا بالخير والحسنى!)»

فيقول لهم رسول الله ﷺ بناءً على جوابهم هذا:

"أقول كما قال أخي يوسف -لإخوته-:

"(لاتثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين)اذهبوا فأنتم الطلقاء"

لقد مكن الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ من أهل قريش، وأرضخهم له، وعلى الرغم من أن فرصة أخذ الإنتقام لما بدر منهم سنوات طويلة من عذاب وأذية للمؤمنين، إلا أن رسول الله ﷺ عفا عنهم بهذا الشكل وتركهم أحراراً. ولهذا أطلق على أهل مكة اسم: «الطلقاء: أي الأحرار». (ابن هشام، السيرة، ٤، ٣٢؛ الواقدي، المجازي، ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد، الطبقات، ٢، ١٤٢ – ١٤٣)

وهذا الحال أيضاً هو بنفس الوقت تجلٍّ لكمال الله تعالى بصفته ستار العيوب، أي الذي يستر العيب ويعفو عن الخطأ.

ويكتب الشاعر ضياء باشا كلمات من الشعر يصف فيها حال يوسف عليه السلام مع إخوته فيقول:

يجبر مولانا صاحب القدرة الظالمين على القول:

تالله لقد آثرك الله علينا[13]

ألقوا قميصي على عيني أبي:

كان يوسف عليه السلام يرسل الضيافة صباح مساء إلى إخوته. وكان إخوته يشعرون بالخجل الشديد من عزة كرمه معهم عندما يتذكرون ما كان منهم من أفعال سيئة بحقه. فيرسلون رجلاً إلى يوسف عليه السلام يقولون له:

١٣ «تالله لقد آثرك الله علينا» (يوسف، ٩١)

«أنت تكرمنا صباح مساء! ولكننا نخجل منك لما فعلناه بك!»

فيجيبهم يوسف عليه السلام قائلاً:

«كان أهل مصر ينظرون إلي دائماً بنفس المشهد الذي رأوني فيه أول مرة. وكانوا يقولون «ننزه الله تعالى الذي رفع عبداً بيع بعشرين درهماً إلى هذا المقام». أما اليوم، فلقد اكتسبت شرفاً من خلالكم. لأنهم عرفوا بأني أخ لكم وحفيد نبي عظيم مثل إبراهيم عليه السلام»

ولم ينطق يوسف عليه السلام بهذه الكلمات فخراً وتكبراً، وإنما سعياً منه للتخفيف عن إخوته، وتأمين الراحة لهم، وتخفيف حرجهم تجاهه.وهو ما يظهر مرة أخرى صفاته المتميزة المتمثلة في عفوه وكرمه.

وبينما كان يوسف عليه السلام يظهر هذا النوع من العفو والمسامحة لإخوته، قال لهم بعد أن أعطاهم قميصه شفاءً لأبيه من العمى الذي أصابه:

﴿اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (يوسف، ٩٣)

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف، ٩٤)

﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ (يوسف، ٩٥)

إبصار سيدنا يعقوب عليه السلام:

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقيهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٩٦)

وكان يهودا هو من أحضر هذا الخبر المفرح لأبيه. فقال:

"- لقد كنت أنا من أحضر إليه القميص المضرج بالدم فكنت السبب في حزنه وكدره. والآن، سأحضر له أنا أيضاً هذا القميص لأكون سبباً في سعادته!" فخرج مسرعاً من مصر إلى أرض كنعان بحماس شديد ورأس مرفوع وسرعة كالسهم كما روي عن ذلك.

ويقال بأن هذا القميص هو نفسه ذلك القميص الذي أحضره جبريل عليه السلام من الجنة لإبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار.

يقول مولانا جلال الدين الرومي -قدس الله سره- تعليقاً على الموضوع الذي تحدثنا عنه أعلاه بقوله:

"إن ما رآه يعقوب عليه السلام في وجه يوسف من تميز كان أمراً خاصاً به. فلم يحظ أحد آخر من إخوة يوسف بمثل هذا النور. لكن عالم القلب عند إخوة يوسف كان بعيداً عن رؤية وفهم (الوجه الحقيقي) ليوسف عليه السلام.

عندما رأى يعقوب عليه السلام تلك الخصوصية فيه تعلق به قلبه. لقد كان ليوسف جاذبية خاصة عند يعقوب. ولهذا، عندما وصل إليه رائحة قميصه تمكن من معرفته حتى من مسافة بعيدة. أما أخاه الذي حمل هذا القميص فكان محروماً من الإحساس بهذه الرائحة. لأن قميص يوسف كان أمانة في يد أخيه. فكان أخو يوسف مكلفاً بحمل هذا القميص وتسليمه ليعقوب عليه السلام. أي أن هذا القميص كان في يد أخيه كالجارية المتميزة بين يدي بائع العبيد.

وليست لشخص تاجر العبيد بنفسه. فكانت تعود لشخص آخر غير تاجر العبيد. كم من عالم أتى، لم يكن له نصيب من العلم الذي اقتنى. فكان حافظاً للعلم، ولكنه لم يكن حبيباً لله تعالى."

ويعتبر تأثير قميص يوسف عليه السلام على عيني يعقوب عليه السلام نموذجاً ومثالاً للتبرك والإستعانة بالأشياء...

تقول الآية الكريمة:

﴿...قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف، ٩٧)

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف، ٩٨)

وعندما قال يعقوب عليه السلام "سوف أستغفر لكم ربي" أي بعد حين، هو إشارة لضرورة استحقاق العفو من الطرف المظلوم أولاً قبل أن يستغفر لهم.

أي أنه أجل استغفاره لهم إلى أن يلتقي بيوسف عليه السلام ويتأكد من غفرانه لهم.

ويوضح البعض بأن تصرف يعقوب عليه السلام هذا، إن هو إلا تأجيل للدعاء والإستغفار إلى وقت أكثر قبولاً مما هم عليه الآن.

ولهذا، وبحسب رواية محارب بن دسار، يقول:

عندما أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المسجد وقت السحر في إحدى الأيام، وجد أحدهم يناجي ربه ويقول:

«- إلهي، دعوتني فأتيت؛ أمرتني فأطعت. فاغفر لي في وقت السحر هذا!».

أعطى عمر بن الخطاب دقته إلى مصدر هذا الصوت فعرف بأنه صوت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وعندما سأل عبد الله عن هذا الأمر قال له:

«- مما لا شك فيه أن يعقوب عليه السلام عندما قال لأبنائه: «**سوف أسغفر لكم ربي**» كان يقصد تأجيل ذلك الإستغفار إلى وقت السحر. لأن الله تعالى يمتدح هذا الوقت فيقول «**والمستغفرين بالأسحار**» (آل عمران، ١٧).»

(الطبري، التفسير، جـ٨، ٨٥)

وبحسب إحدى الروايات، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا: (حين يبقى ثلث الليل الآخر) فيقول:

«من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»" (مسلم، المستغفرين، ١٦٨ - ١٧٠)

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

"وقد قال أخي يعقوب لبنيه «سوف أستغفر لكم ربي» يقول حتى تأتي ليلة الجمعة..." (الترمذي، الدعوات، ١١٤)

الوصول وتحقق الرؤيا:

وقف يوسف عليه السلام والحاكم وجميع الخلق صفاً لاستقبال يعقوب عليه السلام وعائلته. وعندما وصل يعقوب عليه السلام أمام يوسف عليه السلام نزل الجميع عن أحصنتهم وتعانق النبيان بشوق ومحبة.

يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف، ٩٩)

إن المكافآت الكبرى تأتي دائماً بعد كثير من الصبر والمصائب والابتلاءات الكبيرة.

ويرفع يعقوب عليه السلام يديه إلى السماء بعد هذا اللقاء مباشرة ليشكر الله تعالى ويقول:

«إلهي! اغفر لي بكائي على يوسف، وقلة صبري على فراقه، وما فعل أبنائي بإخوتهم!»

وكان يوسف عليه السلام أيضاً في حالة كبيرة من الشكر والحمد:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف، ١٠٠)

لقد أدرك يوسف عليه السلام بعد تحقق نعم الله تعالى عليه كاملة بأن هذه الحياة الدنيا ليست مكان استقرار، وأن كل ما فيها من أشياء إن هي إلا أشياء زائلة، وبأنه بعد أن وصل إلى القمة فإن الزوال قادم. فذكر نعم الله تعالى التي تلطف بها عليه شاكراً له ومناجياً فقال عليه السلام:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف، ١٠١)

وإذا ما لفت المرء انتباهه إلى هذه الآيات الكريمة، فإننا نجد أن يوسف عليه السلام هو نموذج لسائر المؤمنين على حسن المعاملة. فنضجه ومسامحته ومجاملته لإخوته الذين ألقوه في البئر تخلصاً منه، على الرغم من قوته وقدرته على الانتقام منهم، إن هو إلا إشارة للمؤمنين إلى قمة الكمال الأخلاقي. إنه وعلى الرغم من وصوله

من العبودية إلى الحكم، لم يخرج لنفسه أي حصة من هذا الأمر وربطه جميعه بلطف اللّٰه عليه. كما حاول تأويل أكبر خطأ ارتكبه إخوته في حقه وعزا ذلك إلى الشيطان فلم يرم بهذا الأمر في وجوههم. وأخيراً، إن لجوءه إلى اللّٰه تعالى هذا، إن هو إلا دليل على مدى تبعيته وتسليمه لله تعالى وقلقه الدائم إلى أن "يلفظ أنفاسه الأخيرة". كما أن دستور المتصوفين الأساسي الذي يعتمد على «مصاحبة الصالحين» هو واضح بشكل كبير في مثال يوسف عليه السلام ودعائه.

يُرْوَى أن يعقوب عليه السلام قد توفي بعد أربع وعشرين سنة قضاها في مصر إلى جوار ابنه. ودُفن عليه السلام في الشام إلى جوار والده إسحاق عليه السلام تنفيذًا لوصية أوصي بها من قبل. لقد أحب المصريون سيدنا يوسف كثيرًا وكانوا يرحبون ببقائه في مصر كثيرًا. وعاش يوسف عليه السلام في مصر من بعد أبيه ثلاثة وعشرين عامًا توفي بعدها. وقام المصريون بعد وفاته بوضع نعشه في صندوق من المرمر ودفنوه في النيل. ووجد سيدنا موسي بعد ذلك نعشه وقام بدفنه إلى جوار يعقوب.

عليهم السلام!..

أسئلة للتقييم

أ- أجب عن الأسئلة الآتية

١ - ما سبب نزول سورة يوسف؟

٢ - ما الأوصاف القبيحة التي جعلت أعين الإخوة التي حسدت سيدنا يوسف تتحول إلى قتله؟

٣ - كيف لجأ يوسف عليه السلام إلى الله عندما أُلقي في البئر؟

٤ - أي نموذج يمثل بالنسبة لنا قيام يوسف عليه السلام بتبليغ الدين الحق لمن كانوا معه في السجن، على الرغم مما عاناه من صعوبات وأزمات في حياة السجن؟

٥ - ما السبب الذي أدى إلى نجاة يوسف عليه السلام من السجن؟

٦ - بماذا تذكرنا هذه المقولة "عندما يصبح جسد الإنسان عبدًا، فياله من ثمن بخس ذلك الذي يباع به في سوق العبيد! تُرى بكم سيُقدر يوم المحشر ثمن أولئك الذين حوّلوا روح الإنسان وروحه إلى عبد لرغباتهم النفسية ؟" ؟

٧ - أي درس يمكن الإستفادة به خجل زليخة من صنم جامد كان في غرفتها عندما عقدت زليخة العزم على ارتكاب الإثم، وقيامها بوضع غطاءٍ عليه؟

٨ - قابل يوسف عليه السلام شرور إخوته بالخير، فخجلوا من ذلك. ما الكلمات التي قالها لهم يوسف عليه السلام والتي أظهرت تواضعه وتسامحه معهم؟

٩ - وضح سبب حب يعقوب ليوسف بشكل أكبر عن حبه لباقي إخوته؟

١٠ - وضح الفائدة من تعلم وتعليم سورة يوسف؟

١١ - إلى كم صنف يمكن تقسيم الرؤى؟ أعطِ معلومات عن كل صنف؟

١٢ - ما الذي يمكن فعله حتى لا يصبح الحب سبباً من أسباب الغيرة والحسد؟

١٣ - لماذا يمتحن الله عز وجل الأنبياء والأولياء والمقربين إليه تعالى؟

١٤ - هل يتعارض قول يوسف عليه السلام "اجعلني على خزائن الأرض"مع مفهوم التواضع في الإسلام؟ وضح ذلك؟

١٥ - بماذا يذكرنا عفو يوسف عليه السلام لإخوته وترفقه بهم؟

١٦ - ما فوائد تذكر الموت؟

ب- أكمل مكان النقاط فيما يلي

١ - ذكر القرآن الكريم أن قصة يوسف عليه السلام هي .... القصص.

٢ - سورة .... هي أول سورة نزلت في القرآن الكريم في صورة قصة.

ج- ضع إشارةً علي الإجابات الصحيحة للأسئلة الآتية

١ - سامح يوسف عليه السلام إخوته على الرغم من كل ما ارتكبوا من شرور وقوله ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، ٩٢) كان بالنسبة لنا نموذجًا للعفو والتسامح. في ضوء ما سبق أيٌّ مما يأتي ليس واحدًا من نتائج مقابلة الشر بالخير؟

أ - أنه يزيل الحقد والخصومة بين الأشخاص.

ب - إذا قوبل السوء بالمعاملة حسنة بين صديقين، فإن ذلك يؤدي إلى زيادة المحبة والتآلف بينهما.

ج - مقابلة من يعمل السوء بالخير، يصبح سببًا لتمادي من يفعل الشر.

د - اذا امتثل الشخص لأمر الله عز وجل، حدثت الطمأنينة القلبية مع رضى الله.

٢ - "........، يشبه الذي يرمي الآخر بحجر فارتد الحجر وأصاب الشخص الذي رماه ففقأ عينيه" أي كلمة يمكن وضعها مكان النقاط في العبارة السابقة؟

أ - الكبر. ب - الحرص.

ج - الحسد. د - الكسل.

٣ - يرى الكثيرون أن إلقاء سيدنا يوسف في البئر، وما عايشه بعد ذلك من أحداث، كان امتحانًا ودرسًا عظيمين. في ضوء ما سبق أي مما يأتي ليس صحيحًا؟

أ - اضطر يوسف عليه السلام إلى الزواج من زليخة وهي عدوة يوسف.

ب - أن يعقوب عليه السلام أحبه كثيرًا، وتعلق قلبه به، وأنه لم ير النور الذي رآه في عيني يوسف عند إخوته.

ج - أنهم رأوا أن جمال يوسف عليه السلام لا يعدل أي شيء وفهموا أنه لن يتمكن من اللجوء لأحد غير ربه.

د - على الرغم من الشرور التي ارتكبها إخوة يوسف، إلا ان معاملته الحسنه كانت درسًا بالنسبة إليهم.

٤ - أي مما يلي ليس من سمات صاحب الصبر الجميل؟

أ - أنه يعلم من لدن الله ما يحل به من مصائب و ابتلاءات، ويرى أن الخير هو نهاية كل شيء.

ب - لا يبذل جهدًا لينجو من الإبتلاءات والمصائب التي تنزل به، لانها من عند الله.

ج - لا ينزل الإختبار الذي يأتي من الله على عباده لغفلتهم.

د - هو من يرضي بما قسمه الله له، ولا ينقطع عن شكر ربه.

٥ - أيٌّ مما يلي هو نتيجة يمكن استخراجها من قول يوسف عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف ٣٣)؟

أ - اللجوء إلى الله والإمتثال لأوامره، هو الطريق الوحيد للنجاة من هلاك النفس وشرها .

ب - أن يوسف عليه السلام وإن كان نبيًا، إلا أنه قد يرتكب الإثم.

ج - الشخص الذي يُقوّي روحه أمام رغبات النفس لا يخطيء ولا يرتكب الإثم.

د - لا بد لأى شخص يوضع في مواجهة مع نفسه المهلكة أن يرجح الدخول إلى السجن.

٦ - أيٌّ مما يلي هو السبب الرئيسي لإستبقاء يوسف عليه السلام لأخيه بنيامين إلى جواره؟

أ - لأنه أحب بنيامين أكثر من باقي إخوته.

ب - لأنه كان يمهد الأرض للقاء أبيه يعقوب عليه السلام.

ج - لأن بنيامين أخذ صواع الملك فأراد أن ينزل به الجزاء.

د - أراد أن يحمي بنيامين من شرور إخوته.

٧ - قال يوسف - عليه السلام- لأخيه بنيامين﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف، ٦٩) أي مما يلي لا يعد نتيجة يمكن استخراجها من الآية السابقة ؟

أ - أن يوسف عليه السلام قد واسى بنيامين.

ب - النية السيئة لإخوة يوسف، وأنهم لن يستطيعوا أن يضروهما.

ج - أنه هدّء من روع بنيامين، لأنه أراد الانتقام من إخوته.

د - أن يوسف أوصى بنيامين بالصبر مقابل حسد إخوته وسلوكهم السي.

٨ - سورة يوسف هي أول قصة نزلت. وتحتوي هذه السورة على معان عميقة واسعة. فهي تصور الجوانب المعنوية للأفراد فيها أي لسيدنا يعقوب ويوسف ورحيل وإخوة يوسف وزليخة كل على حدة. في ضوء ذلك أيٌّ مما يلي غير صحيح؟

أ - سيدنا يوسف - عليه السلام- يمثل القلب.

ب - سيدنا يعقوب - عليه السلام- يمثل الروح و الأم رحيل تمثل الجسد.

ج - إخوة يوسف، يمثلون المشاعر النفسية.

د - زليخة تمثل العقل السليم.

٩ - "أخذ الله عز وجل "عيني يعقوب عليه السلام الجسمانيتين" التي رأى بهما جمال يوسف الظاهري؛ ولكنه أعطي يوسف في مقابل هذا "بصيرة القلب" التي سيرى بها "الجمال الإلهي" الذي تجلى في يوسف". أي مما يلي لا يمكن اعتباره نتيجة يمكن استخراجها مما سبق ؟

أ - أن الله عز وجل استرد إحدى نعمه من يعقوب - عليه السلام- ، ولكنه أنعم عليه في المقابل بنعمة أكثر قيمة.

ب - أن الله عز وجل أراد أن يري يعقوب -عليه السلام - الجمال الحقيقي (الحسن المطلق) الذي هو تجلٍّ لصفات جمال الله، بدلاً من الجمال الظاهري للموجودات.

ج - لا يمكن للشخص ان يشاهد الجمال الحقيقي طالما لم يتراجع عن استخراج الجمال الدنيوي الذي يشاهده بعينه الجسمانية من القلب. .

د - أن الله عز وجل عاقب يعقوب - عليه السلام - بأخذ عينيه بسبب اثم ارتكبه.

١٠ - كان رسول الله ومن معه من المؤمنين يتعرضون لأزمات مختلفة في نفس العام الذي نزلت فيه سورة يوسف. أي من الإختبارات الآتيه لم يتحقق هذا العام ؟

أ - موت ٧٠ من المؤمنين في غزوة أحد.

ب - فقدان سيدنا النبي لزوجته السيدة خديجة.

ج - وفاة أبي طالب عم سيدنا الرسول ﷺ.

د - زيادة المشركين لضغطهم وظلمهم للمؤمنين.

١١ - أي مما يلي لا يمكن إعتباره نتيجة لمعجزة عودة البصر ليعقوب - عليه السلام - بعد ارسال قميص يوسف اليه؟

أ - أن رائحة قميص يوسف - عليه السلام - عالجت عيني يعقوب عليه السلام.

ب - حمل القميص قيمة معنوية بالنسبة ليعقوب لأنه أحب يوسف - عليه السلام - كثيرًا.

ج - يوصف ارتداد البصر ليعقوب - عليه السلام - ، بأنه العلاقة بين الشيء وهو الرابطة والاستعانة بالله تعالى.

د - لا يحمل قميص يوسف - عليه السلام - قيمة معنوية كبيرة لأنه ظل في يد إخوته لأيام

مفتاح الحل

آدم عليه السلام

ب – إجابة سؤال أكمل مكان النقاط

١ - الإنسـان ٢ - أبو الأرواح ٣ - التـوبة - الاسـتغفار ٤ - العـلم اللادوني ٥ - الأسـحار

ج – إجابة سؤال الاختيار المتعدد

١ - ج ٢ - ج ٣ - ب ٤ - د ٥ - د ٦ - ب ٧ - ج ٨ - د ٩ - د ١٠ - ج

إدريس ونوح عليهما السلام

ب – إجابة سؤال أكمل مكان النقاط

١ - ألف ٢ - ثلاثون ٣ - إلـى السـماء ٤ - مؤتمـن علـي سـر الله ٥ - الإسلام ٦ - هذا سـحرك

ج – إجابة سؤال الاختيار المتعدد

١ - ج ٢ - ب ٣ - أ ٤ - د ٥ - ب ٦ - ب ٧ - د ٨ - ج ٩ - ج

هود وصالح عليهما السلام

ب - إجابة سؤال أكمل مكان النقاط

١ - من الغفلة
٢ - غرورهم - تكبرهم
٣ - ريح صرصر
٤ - أربعون
٥ - لا إله إلا الله صالح نبي الله
٦ - آتنا العذاب الذي توعدتنا به

ج - إجابة سؤال الاختيار المتعدد

١ - د
٢ - د
٣ - ج
٤ - د
٥ - ج
٦ - ج
٧ - ج
٨ - أ
٩ - ج
١٠ - د
١١ - أ
١٢ - د

ابراهيم واسماعيل واسحاق عليهم السلام

ب - إجابة سؤال أكمل مكان النقاط

١ - خليل الرحمن
٢ - جني - هاجر
٣ - أبو الأضياف
٤ - إبراهيم عليه السلام
٥ - الشام - فلسطين
٦ - يعقوب
٧-الملائكة - السلاطين

ج - إجابة سؤال الاختيار المتعدد

١ - د
٢ - ب
٣ - ج
٤ - ج
٥ - د
٦ - د
٧ - د
٨ - ب
٩ - أ
١٠ - د
١١ - د
١٢ - ب
١٣ - د
١٤ - ج
١٥ - د
١٦ - ج
١٧ - أ

لوط و ذو القرنين عليهما السلام

ب – إجابة سؤال أكمل مكان النقاط

١ - سيدنا إبراهيم
٢ - حجارة مسومه
٣ - لُعن
٤ - نوح
٥ - الإسكندر الأكبر
٦ - سد ذو القرنين
٧ - نحو الغرب

ج – إجابة سؤال الاختيار المتعدد

١ - د
٢ - ب
٣ - ج
٤ - ج
٥ - د

يعقوب و يوسف عليهما السلام

ب – إجابة سؤال أكمل مكان النقاط

١ - أحسن القصص
٢ - سورة يوسف

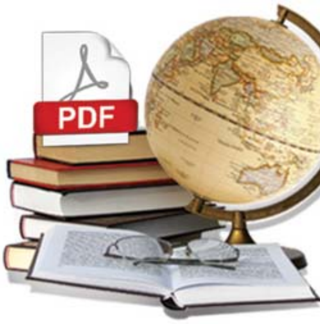
ج – إجابة سؤال الاختيار المتعدد

١ - ج
٢ - ج
٣ - أ
٤ - ب
٥ - أ
٦ - ب
٧ - ج
٨ - د
٩ - د
١٠ - أ
١١ - أ

المحتـــــــــــويـــــــــات

دار الأرقم
للنشريات والمطبوعات

كتب إسلامية مجاناً



يمكنكم الآن تحميل حوالي ١٠٠٠ من الكتب الإسلامية بـ ٥٠ لغة من الإنترنت مجاناً

كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.net

تستطيع الآن طباعة النسخ بصيغة الـ pdf أو تحميلها على الحاسوب وإرسالها لأصدقائك عبر البريد الإلكتروني.

الإنكليزية - الفرنسية - الإسبانية - الروسية - الإيطالية - البرتغالية - الألمانية - الألبانية - العربية - الأذرية - الباشكيرية - البنغالية - البوسنية - البلغارية - الصينية التتارية القرم - الهولندية - الجورجية - الهندية - الألمانية الهوسا - المجرية - الإندونيسية - الكازاخستانية - التترية قازان - القرقيزية - اللتوانية - ليتوانيا - اللوغندية المسخيت التركية - الماليزية - الرومانية - المنغولية - المورية - التركمانية - التيغرينية - السواحلية - الطاجكية - الأمهارية - الصينية التقليدية - الكورية التوية الأوكرانية - الأغورية - الأوزبكية - الولوفية - الزرمية - الأورمية - الفارسية - الأردية - السلوفينية

www.islamicpublishing.net



دار الأرقم